إشكالية التفسير في علم الآثار: ظاهرة التضحية بالأطفال في قرطاجة نموذجاً*

مولاي محمد جانيف

معهد الآثار -جامعة اليرموك

إربد - الأردن

تكتسي مسألة التفسير أهمية خاصة في علم الآثار، إذ تتوخى الإجابة عن أسئلة، الهدف منها هو فهم الظاهرة الأثرية وتعليلها. والفهم لا يتأتى طبعاً إلا بعد عملية الوصف والتركيب، وهي في كل الأحوال عملية شاقة طويلة، تبدأ في الميدان ولا تنتهي إلا بعد استكمال البحث لمختلف أوجهه وجوانبه.

إن اختيارنا لظاهرة التضحية بالأطفال في قرطاجة البونية نموذجاً لإشكالية التفسير في علم الآثار، هو اختيار ينطلق من السمة الجدلية لهذه المسألة التي أثارت على امتداد قرن من الزمان أو يزيد جدلاً يبدو زخمه واضحاً في الكم الهائل من الأدبيات التي كتبت في هذا الموضوع[1]، والتي حاولت الإجابة عن السؤال الإشكالي: لماذا مورست التضحية بالأطفال في قرطاجة والعالم البوني.؟

سؤال لا تطمح هذه الدراسة للإجابة عليه بقدر ما تسعى إلى استعراض الفرضيات أو النماذج التفسيرية التي قُدمت كمحاولة لتقديم تفسير للظاهرة. لكن ربما بدا من الأصح لو أننا تساءلنا أولاً: هل مورست التضحية بالأطفال فعلاً في قرطاجة؟ ما المقصود بكلمة تضحية أولاً؟ للأسف يبدو الحقل الدلالي لهذه الكلمة مقيداً في اللغة العربية

* أساس هذه الدراسة عمل أكاديمي قُدّم لنيل شهادة الماجستير (دبلوم الدراسات العليا) في الآثار من معهد الآثار والأنثروبولوجية- جامعة اليرموك- الأردن، سنة ١٩٩٧.

بمعاني "الذبح، القتل..." (Immolation) وهي معاني تشكل جزءاً بسيطاً من مدلولات اللفظة المقابلة في اللغات الأعجمية (Sacrifice في الفرنسية والإنكليزية و Opfer في الألمانية). ولئن كانت الكلمة الأولى (Sacrifice) تؤدي معنى عاماً يرفد من المعنى الذي أدته الكلمة في أصلها اللاتيني (sacrificum)، إضفاء القداسة على الشيء أو جعل الشيء مقدساً، فإن الكلمة الثانية (Opfer)، يقابلها في الفرنسية offre وفي الإنكليزية Offering لا تخرج عن نطاق هذا المعنى إن نحن اعتبرناها متأصلة من الفعل اللاتيني (operari) [أنجز/أوفى بعهد/ أدى التزاماً](٢).

هكذا يتضح أن اللبس الذي تخلقه كلمة "تضحية" في اللغة العربية غير وارد في اللغات الأجنبية سواء مع الكلمة (Sacrifice) أو مع الكلمة (offering)، كلتاهما تعنيان تفويض أو تقديم الشيء المكرس أو المضحى به إلى سلطة عليا غير عادية. هل مورست التضحية بالأطفال فعلاً في قرطاجة والعالم البوني؟

هذا السؤال ليس بجديد، لأنه أثير حقيقة منذ سنة ١٨٦٢، السنة التي نشر فيها الأديب الفرنسي غوستاف فلوبير G. Flaubert (١٨٢١ - ١٨٨٠م) روايته الشهيرة "صلامبو" (Salammbô)، التي استلهم فيها كتابات جملة من المؤلفين الكلاسيكيين، على رأسهم ديودور الصقلي. والواقع أن فلوبير بروايته هذه قد خصص لنفسه مكاناً في صفوف هؤلاء المؤلفين أنفسهم الذين لم تكن لنصوصهم سلطة كافية تمنع باحثاً مثل سانت - بوف Sainte Beuve من التساؤل: هل مورست التضحية بالأطفال فعلاً في قرطاجة؟ ومن الإجابة بالنفي(٣)!

التشكيك إذن في صحة الروايات الكلاسيكية ليس حديث عهد. ولئن كان في الحالة المذكورة انتقاداً لنص (رواية فلوبير والروايات الكلاسيكية)، فإن حدة هذا التشكيك لم تخف إلا بعد توالي اكتشافات "أحرام التضحية" في عموم العالم البوني: في نورا بسردينيا سنة ١٨٨٩ وفي موتيه بـ صقلية سنة ١٩١٩ ثم في قرطاجة سنة ١٩٢٢.

هكذا جاءت الشواهد المادية لتدفع إلى أخذ الروايات الكلاسيكية المذكورة على محمل الجد، وفوق ذلك إلي التخلص من نزعة الشك وطرح السؤال الإشكالي: لماذا مورست التضحية بالأطفال في قرطاجة وفي غير قرطاجة؟

لم يتخذ الجواب عن هذا السؤال منحى واحداً في كل الحالات. لكن ما تحكم في الأجوبة بشكل أو بآخر ووجهها نحو تقديم نماذج تفسيرية وصارمة في أغلب الأحيان هو اتخاذ أو عدم اتخاذ روايات العهد القديم مرجعاً في تحقيق ذلك. إن هذه الروايات باعتبارها سلطة مرجعية حقيقية لم تكن مجرد نصوص تحتاج إلى شواهد مادية تثبت ما ورد فيها من أخبار، بل كانت المصدر الذي تستلهم منه التفسيرات والأجوبة، وليست استعارة اللفظي "توفت"[٤] من هذه الروايات تسمية على "أحرام التضحية" سوى مثال بسيط على ذلك؟

بيد أن الحكم على هذه النماذج التفسيرية انطلاقاً من اتخاذها أو عدم اتخاذها لروايات العهد القديم مرجعاً يبدو حكماً اختزالياً قد يصح على جماعة الفيلولوجيين الذين أعلَوْ النص على ما سواه، لكنه لا ينطبق على جملة من علماء الآثار ومؤرخي الأديان الذين حاولوا التخلص من المرجعية الواحدة التي يمثلها النص (توراتياً كان أن كلاسيكياً) باعتماد مرجعيات متعددة بدءاً بعلم الآثار المقارن والأنثروبولوجيا العضوية مروراً بـ الباليوديموغرافيا والديموغرافيا التاريخية وانتهاءً بالإيكولوجيا.

ولأن المرجعيات تعددت فقد انفتحت آفاق واسعة أمام هذه النماذج التفسيرية، ما أدى إلى التباين بينها مع أن هناك نماذج حاولت التوفيق بين نموذجين أو أكثر.

وهنا محاولة لاستعراض هذه النماذج، مع ضرورة التنبيه إلى أن تصنيفها تحت عناوين كبرى هو مجرد أسلوب إجرائي صرف لا يهدف إلى إصدار تصنيفية بقدر ما يحاول تقديم صورة واضحة نسبياً على الخطوط التي قاربت أو باعدت بين التفسيرات.

١- النموذج التفسيري المحافظ:

استمد نزعته المحافظة من ارتباطه بروايات النص التوراتي، لذلك اتجـه رواد هـذا النموذج نحو تفسير مضمون هذه الروايات تفسيراً حرفياً: هنـاك إلـه (مولـوخ) ذو أصول كنعانية أو سورية تعميماً قدم له بنو إسرائيل أطفالهم عندما حادوا عن طريـق (يهوه) ومشوا في طريق (بعل)، فجاء الأنبياء ليشجبوا هذا الخروج عن الطريق القويم ويردوا أتباع (يهوه) إلى سراط إلههم...

الفينيقيون كنعانيون، انتشروا في حوض البحر الأبيض المتوسط فنقلـوا معـهم إلـى مستعمراتهم الجديدة عبادة (بعل) وطقوس التضحية بالأطفال، وكفى بأحاديث الكتـاب الكلاسيكيين ثم بعد ذلك بـ "أحرام التضحية" في نورا، موتيه، قرطاجة...دليلاً علـى ذلك.

أصحاب هذا النموذج نجد فيهم عالم الآثار ومؤرخ الأديان ورجل اللاهوت، لكن مـا يوحد بين مناهجهم هو المركزية التي يشغلها النص التوراتي في أعمالهم. كيف أجـاب هؤلاء عن السؤال الإشكالي: لماذا مارس الكنعانيون وبنو إسرائيل التضحية بالأطفال؟ لماذا قدموا للإله (مولوخ) الأضاحي من أبنائهم؟

لم تؤثر كثيراً الخلفية العلمية أو الأكاديمية لأصحاب هذا النموذج في توجيه الأجوبـة، بل إن ما أثّر في ذلك هو النص الذي كانت له الأسبقية على مـا سـواه. وهنـا لـن نستعرض سوى بعض التفسيرات التي طرحت ضمن هذا النمـوذج وحـاولت فـهم الطقس من خلال تاريخ الأديان. هناك أولاً النظرة التطورية التي رفع لواءها جيمـس فرايزر G. Frazer[٥] والتي يجد تطبيقها على قرطاجة (القرن الثامن- القرن الثاني ق. م). حواجز من غير السهل تجاوزها. وهناك النظرة التي رأت في طقوس التضحيـة بشكل عام محاولات مارسها بنو البشر قديماً، لتغذية آلهتهم حسب فكرة كـانت تـرى الآلهة مثلها مثل الإنسان تحتاج إلى طعام يقيم أودها[٦].

٢-النموذج التفسيري المشكِّك:

إذا كانت جذور هذا النموذج ترجع إلى أواسط القرن الماضي، كما تجلت عند سانت-بوف (انظر أعلاه)، فإن معاودة ظهوره على ساحة البحث لم تتحقق إلا في الخمسينيات من القرن الحالي، على لسان كلود شيفر C. Schaeffer: "أعتقد أنه في قرطاجة أيضاً لم يتعلق الأمر في الحقيقة بأطفال أحياء قُدِّموا كأضاحي (م ل ك)، ولكن بأطفال ولدوا أمواتاً أو قضوا في سن مبكرة، فتم دفنهم في جبانات خاصة بالقرب من أحرام أو هياكل (sanctuaires). إن الوفيات في صفوف الأطفال كانت قد أوجدت في القديم [عند الكتاب الكلاسيكيين] فكرة أضاحي الأطفال التي تبناها بعض الآثاريين. لكن عندما نبحث عن دلائل نقوشية أو أثرية غير قابلة للرفض، فإن الفرضية تتلاشى"(٧).

اقتبسنا مقطعاً مطولاً من نص شيفر لسببين اثنين: أولاً لأنه يطرح فكرة تأسيسية، وثانياً فرضيته تقدم جملة من القضايا لم تثر انتباه أحد قبله. إن نصه تأسيسي لأنه يشكل في الواقع بداية تيار حقيقي نظر بعين الشك للروايات الكلاسيكية وتخلص نسبياً من سلطة النص التوراتي، إذ لم يرجع لأسفار العهد القديم إلا للتحقق من بعض الأمور التقنية مثل المكان الذي كان يحرق فيه الأطفال وكيفية الحرق، أما القضايا التي تطرحها فرضية شيفر فهي فعلاً جديدة:

الارتفاع الكبير في وفيات الأطفال؛ موقف الكتاب الكلاسيكيين من هذه الظاهرة حيث نظروا إلى وفيات الأطفال كأضاحي ذبحت ثم أحرقت وقُدمت لـ كرونوس/ ساتورن.

غير أن في نص شيفر أمر غير واضح، إنه يتحدث عن "أطفال وُلدوا أمواتاً أو قضوا في سن مبكرة فتم دفنهم في جبانات / معابد؟ ولماذا كانت هذه الجبانات بالقرب من أحرام؟

لن نجد الإجابة عن هذه الأسئلة سوى عند جملة من الباحثين، الفرنسيين والإيطاليين بالأساس، الذين طوروا فرضية شيفر التي وإن كانت فرضية تأسيسية إلاّ أنها ظلّت بحاجة إلى أعمال تطورها وتسد ثغراتها.

مهمة مثل هذه كانت ضرورية لإخراج الفرضية المذكورة من الغموض المحيط بها، ومساعدتها على الإجابة عن أسئلة تتبادر إلى الأذهان بمجرد ما يقال بأن العظام المتضمنة في جرار (محرم ت ن ت) تعود لأطفال ولدوا أمواتاً، أو توفوا في سن مبكرة. إذا كان الأمر كذلك فلماذا تم اللجوء للحرق؟ ولماذا صاحبت الجرار "الجنائزية" أنصاب نذرية؟ كيف نفسر وجود بقايا حيوانية مع عظام عائدة لأطفال؟

لم يجب شيفر عن هذه الأسئلة، لكن من أخذ على عاتقه إنجاز ذلك هو سباتينو موسكاتي S. Moscati[٨]. يتفق عميد الدراسات الفينيقية*، مع شيفر حول قضية ارتفاع نسب الوفيات بين الأطفال في المجتمعات القديمة بشكل عام، ويتفق معه بالطبع في أن العظام الموجودة في الجرار "الجنائزية" في أحرام التضحية تعود لأطفال ولدوا أمواتاً أو قضوا في سن مبكرة[٩].

لكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تم اللجوء للحرق؟ ولماذا صاحبت الجرار "الجنائزية" أنصاب نذرية؟ بل إذا كان الأمر كذلك، أي كانت ظاهرة الوفيات بين الأطفال مرتفعة في القديم، فلماذا لم يمارس اليونان والرومان طقوساً مماثلة؟ ألم تعرف مجتمعاتهم الظروف ذاتها، ما دام الحديث يدور عن مجتمعات تحكمت في نموها الديموغرافي والاقتصادي إواليات (ميكانيزمات) مشابهة؟

---

* لا بدّ من القول: إن (الفينيقيين) ليست سوى التسمية التي أطلقها الإغريق -انطلاقاً من (الأوديسية) المنسوبة إلى الشاعر الملحمي هوميروس- على كنعاني الساحل السوري (الأوسط) ثم شاعت التسمية لاحقاً لدى هيكاتيوس الملطي وهرودوتس وغيره من الكتّاب الإغريق والرومان....الخ. (رئاسة التحرير)

لم يحالف موسكاتي كثير من النجاح في الإجابة عن هذه الأسئلة، فهو حتى يفسر ظاهرة الحرق أو اللجوء للنار استعان بالميثولوجيا والفكر الديني، فحاول من خلالهما قراءة دور النار عند القدماء، ذلك الدور الذي اعتبره تطهيرياً بالأساس، ثم ليتحدث من هذا المنطلق عن طقس تطهيري (rito purificatorio)(١٠). بيد أنه تحدث أيضاً عن طقوس تعميدية أو استهلالية (riti d'iniziazione) كان يتم بموجبها تطهير الطفل الذي ينظر إليه باعتباره متوفى في سن مبكرة كإنسان غير طاهر، لا بد من إحراقه لإخراجه من هذه الحالة إلى حالة الطهارة التي تجعله مقبولاً في المجتمع، وتخوله التمتع في الما وراء بالمزايا التي يتمتع بها "المشفيون"(١١).

لكن كيف أجاب موسكاتي عن السؤال الصعب: لماذا لم تقدم لنا المجتمعات المجاورة، تحديداً المجتمعان اليوناني والروماني، ظواهر مشابهة مع أنهما عانت ديموغرافياً واقتصادياً من المشاكل نفسها؟

بالنسبة له النفي الوارد في السؤال غير صحيح، لأن هناك مثالين على الأقل يقدمهما لنا العالمان اليوناني والروماني يدلان على أن أنداد الفينيقيين والبونيين مارسوا هم أيضاً حرق الأطفال: هناك أولاً مثال أثينا التي عثر فيها على جرار احتوت عظاماً محروقة تعود لأطفال وحيوانات تم تأريخها للقرن الرابع- الثالث ق. م. ثم هناك مثال بولياPuglia الواقعة جنوب شرق إيطالية، التي عثر فيها على مدافن خاصة بالأطفال امتد تاريخها من العصر الحديدي حتى القرن الثاني الميلادي. كيف قرأ أو أوّل موسكاتي هذين المثالين؟ كيف تم ربطهما بمثال قرطاجة وبالأمثلة الفينيقية-البونية الأخرى؟

في نظره، يقدم المثال الأول الدليل على أن اليونان مارسوا طقساً لا يختلف عن الطقوس التي مارسها البونيون؛ أما المثال الثاني -مقال بوليا- فيقدم حسب رأيه الدليل على أن الفصل قد ساد في العالم الكلاسيكي (اليوناني- الروماني) بين مدافن البالغين

ومدافن الأطفال[١٢]. في رأي موسكاتي إذن لم تمارس التضحية بالأطفال بالصورة التي نقلها لنا الكتاب الكلاسيكيون. أنى لتلك الصورة أن تصح -يتساءل موسكاتي- والآلهة التي كانت تقدم لها هذه الأضاحي المزعومة قد أسبغت عليها صفات الأمومة[١٣]؟ كأن صفات الأمومة هذه تجعل أي ممارسات من هذا القبيل أمراً غير معقول !

إن وقوفنا الطويل نسبياً على التفسير الذي قدمه موسكاتي نبرره بسبب وجيه: المنطلق الذي شكّله التفسير لتطوير فرضيات شكلت استمراراً حقيقياً للنهج التشكيكي الذي لمسناه عند شيفر وموسكاتي.

هناك أولاً الباحثة الفرنسية كوليت بيكار C. Picard التي اقتبست الكثير من أفكار موسكاتي، لكنها تحدثت عن النار بوصفها مبدأ تطهيرياً أو تخليصياً (من الخلاص) يقود إلى الخلود؛ حاولت قراءة ذلك في ضوء الحكاية التعليلية (etiologic) الواردة في جوستان Justin: كيف تهربت ديدون (أليسا) من ملك اللوبيين الذي أراد أن يتزوجها بأن ألقت بنفسها في محرقة أقيمت بأمر منها، فكان من نتيجة ذلك أن كرست لها في الموضع نفسه عبادة ارتبطت بها[١٤].

إذا كانت بيكار قد اقتبست أفكار موسكاتي دون أن تضيف عليها جديدا، فإن غرا M. Gras، وروياّر P. Rouillard وتيكسيدور J. Teixidor أغنوا هذه الأفكار بأن طرقوا بعض الجوانب التي أغفلها موسكاتي في دراسته. بالنسبة للباحثين الثلاثة، لاشك أن الوفيات في صفوف الأطفال كانت مرتفعة قديما، وهو ارتفاع تبدو ملامحه واضحة في الـ "توفت" الذي دفن فيه أطفال ماتوا في مراحل مبكرة، إما قبل أوان ولادتهم (=أجنة) أو عند الولادة أو بعدما بلغوا من العمر أشهراً[١٥]. بيد أن غرا وزميليه يتجاوزون هذه المقدمة التي لا شك أنها الصرح الذي بدونه تنهار فرضيتهم ليحاولوا

الجواب عن سؤال مهم: كيف يمكن تفسير موقف الكتاب الكلاسيكيين من ظاهرة التضحية بالأطفال عند البونيين؟

الجواب عند الباحثين الثلاثة واضح وبسيط: عانت مجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط قديماً من نسب عالية في وفيات الأطفال. هذه ظاهرة عامة عانى منها المجتمع البوني كما اليوناني كما الروماني، لكن الاختلاف تجلى في الطريقة التي تعامل وفقها كل مجتمع مع هذه الظاهرة. هنا يبرز دور الثقافة، وهو دور مهم للغاية لأنه هو الذي وجه هذه الطرق وغلّفها بمفاهيم معينة. ولعل أفضل مثال لتوضيح هذه الفكرة هو مقارنة الطريقة التي اتبعها اليونان في تعاملهم مع هذه القضية بالطريقة التي سلكها الفينيقيون- البونيون: فإذا كان الأولون قد دفنوا موتاهم من الأطفال في جرار أو في قدور، أي حسب الطريقة التي اصطلح على تسميتها "الوضع في قدور" (putting in cooking pots)، غير بعيد عن مدافن الآباء، فإن الآخرين أحرقوا موتاهم من الأطفال ولم يدفنوهم إلا في النادر من الحالات. فعل مثل هذا كان كفيلاً بإثارة الاستغراب وسوء الفهم عند الطرف الآخر، الذي انبرت أقلام كتّابه واصفة هذا الفعل بأقذع الصفات[١٦].

في ظل هذا التفسير يصبح موقف الكتّاب الكلاسيكيين مفهوماً، إنه موقف حاصل عن سوء فهم، عن تباين ثقافي مثلته ظاهرتان ثقافيتان متمايزتان: عند اليونان كانت الرغبة قوية في الاحتفاظ بالأموات من الأطفال قرب آبائهم، أما الفينيقيون-البونيون فلجئوا للحرق مهشمين بذلك أطفالهم الذي قضوا في سن مبكرة، وهو الفعل الذي رأى فيه الكتّاب الكلاسيكيون مظهراً من مظاهر القسوة والبربرية[١٧].

بيد أن الدراسة المتميزة في إطار النموذج التفسيري المشكّك هي تلك التي أنجزتها هيلين بنعيشو-سفر H. Bénichou-Safar وسارت في اتجاهين: اتجاه فيلولوجي واتجاه تناول بالنقد والتمحيص السجل العظمي والمعطيات الأثرية المتاحة. في إطار الاتجاه

الأول[١٨]، استطاعت الباحثة أن تقدم قراءة جديدة للمصطلح (م ل ك) في ضوء المعطيات التي يقدمها العهد القديم سواء في نصه الماسوريتي (le texte massorétique) أو السبعوني (la Septante) أو اللاتيني الشعبي (la Vulgate) حيث استنتجت بأن اللفظة (م ل ك) هي دلالة على طقس استهلالي المراد منه تفويض أمر الأطفال المتوفين في سن مبكرة إلى سلطة دينية عليا أو تحديداً إدخالهم تحت نير الإله (*le rite d'entrée sous le joug*). أما في الاتجاه الثاني،[١٩] فقد حاولت من خلال مقارنة الـ (توفت) أو "هياكل التضحية" بالمقابر، معرفة ماهية ووظيفة "هياكل التضحية" هذه. وقد توصلت بناءً على جملة من المقارنات إلى أن الـ (توفت) أدى وظيفة جنائزية وطقسية في الوقت نفسه، أي أن الأماكن التي عثر فيها على بقايا الأطفال المتفحمة كانت هياكل دون أن ينفي عنها ذلك وظيفتها الجنائزية.

ما يلاحظ حول دراسة غرا، رويّار وتيكسيدور فضلاً عن تفسيرات بنعيشو-سفر هو أنها عالجت هذه الطقوس في سياق تزامني (سنكروني)، لكنها لم تقدم أي جواب فيما يخص تطور الطقس، تحديداً ظاهرة ارتفاع نسب بقايا الأطفال في الجرار "الجنائزية" خلال الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والثاني ق.م.

دراسة أضاحي الأطفال في قرطاجة في سياقها التطوري (دياكروني) سنجدها في نموذج تفسيري آخر، إنه نموذج لورنس ستايغر L. W. Stager.

٣-فرضية ستايغر أو النموذج التفسيري التوفيقي:

ليس المقصود في نعتنا لهذا النموذج بالتوفيقية، التوفيق بين النموذجين التفسيريين السابقين، النموذج التفسيري المحافظ والنموذج التفسيري المشكّك، بل القصد منه هو التباين الشديد بين المقدمات التي انطلقت منها فرضية ستايغر وبين النتائج التي توصلت إليها والسعي نحو التوفيق بين هذه وتلك.

انطلق هذا النموذج من

انتقاها من الباليوديمو.

مقولات من نص ديني

انتقاؤها من علوم وليدة

عمل صاحب هذا النموذج في (هيكل ت ن ت) بـ قرطاجة خلال النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، وبذلك يكون هو الوحيد بين المفسرين الذي بثه في مجموعة قليلة جداً من المقالات السيارة[٢٠].

إن اهتمام ستايغر بتطور الطقس قاده إلى تحليل المعطيات المتوفرة ضمن سياق دياكروني (تطوري). شملت الدراسة التي اعتمد عليها في بناء فرضيته محتويات ١٣٠ جرة من بين ٤٠٠ جرة هي حصيلة التنقيبات التي اجراها هو وفريقه في جزء من (هيكل ت ن ت). العدد المدروس قسم إلى مجموعتين:

مجموعة أ (القرن السابع- السادس ق.م.) مثلتها ٨٠ جرة قدمت النسب المئوية التالية:

عظام أطفال: ٦٢,٥ (٥٠ جرة)،

عظام حيوانات: ٣٠ (٢٤ جرة)،

عظام مختلطة: ٧,٥ (٦ جرار).

مجموعة ب (القرن الرابع ق.م.) مثلتها ٥٠ جرة قدمت النسب المئوية التالية:

عظام أطفال: ٨٨ (٤٤ جرة)،

عظام حيوانات: ١٠ (٥ جرة)،

عظام مختلطة: ٢ (جرة واحدة)[٢١].

كيف فسّر ستايغر هذه الأرقام والنسب ؟ إن الدلالات بالنسبة له، لا تكمن في تغيّر طارئ على الطقس فحسب، بل تتجاوز ذلك لتقدم لنا صورة ديموغرافية مقارنة لجانب من الجغرافية البشرية في قرطاجة. بيد أن ستايغر لم يبلور فرضيته بشكل واضح نسبياً إلا بعد ذلك بسنتين حين نشر في دورية (Biblical Archaeology Review) التي يفوق اهتمامها بالإثارة والدعاية اهتمامها بالعلم، لأنها موجهة في الأصل للقارئ العام المسكون بهاجس الدعاوى الصهيونية، نشر بالاشتراك مع وولف Wolff مقالة حملت عنواناً مثيراً: "**التضحية بالأطفال في قرطاجة: طقس ديني أم وسيلة للتحكم في النمو السكاني**"؟[٢٢].

ما فعله ستايغر حقيقة هو أنه قدم النموذج التفسيري التقليدي بصورة جديدة: الشواهد المادية التي نصادفها في (هيكل ت ن ت) تقدّم الدليل على صحة ما ورد في النص التوراتي[٢٣]، وهنا تكمن نزعة المحافظة في فرضية ستايغر، لكنه على خلاف أصحاب ذلك النموذج جرّد الشواهد المادية من مدلولها الديني أو الطقسي، ليعتبرها مظهراً من مظاهر التحكم في النمو السكاني الذي لا تخفى أبعاده الاقتصادية والاجتماعية. وهو لكي يثبت النقطة الأخيرة عمد إلى إجراء سلسلة من القياسات التاريخية (historical analogies) التي تصب في خانة "قتل الأطفال" دون إبداء أي قدر من الحذر؛ فتحدث مثلاً عن مستشفى "الروح القدس" الذي بناه في نهاية القرن الثاني عشر البابا إينوسنت الثالث في روما "لأن العديد من النساء ألقين بأبنائهن في [نهر] التيبر"، ثم ذكر بين أمثلة عدة كيف أنه كان من المستحيل استيعاب عدد الأطفال غير المرغوب فيهم (unwanted) في أحد مستشفيات لندن خلال أواسط القرن الثامن عشر[٢٤].

ونحن من جانبنا نريد أن نضيف إلى الأمثلة التي ذكرت أعلاه أمثلة أخرى ربما كانت أكثر أهمية، لأنها ترتبط بمجتمعات عاشت الظروف نفسها التي عاشتها قرطاجة تقريباً وظهرت على المسرح التاريخي خلال الفترة ذاتها: هناك مثال إسبارطة التي يخبرنا

بلوتارخ أن أهلها كانوا يلقون بأبنائهم المشوهين في أمكنة هامشية أسموها "مواضع العزل" (apothetia)[٢٥]، ثم هناك الأمثلة التي يقدمها لنا العالم الروماني حيث قدرت نسبة الوفيات من الأطفال في عامهم الأول بين ٣٠,٦% و٣٢,٨%[٢٦].

ولكن هل القياس هنا صحيح؟ إن القياس حتى يكون سليماً لا بد أن يتم بين نظيرين. لكن أين احترام ستايغر لهذا الشرط؟ هل يصح قياس حالة قرطاجة على حالة أوروبة القرن السابع عشر؟

إن ستايغر مدفوعاً بالرغبة في جعل فرضيته أكثر تماسكاً، يتجاهل تماماً عبارة مهمة في كل الاستشهادات التاريخية التي اعتمدها، المقصود عبارة "الأطفال غير المرغوب فيهم" (unwanted children).

إن الحديث عن "أطفال غير مرغوب فيهم" يعني أن هناك "أطفالاً مرغوباً فيهم" ، أي أن النوع الأول من الأطفال لم يكن مقبولاً في المجتمع إما لضعفه أو لتشوهاته الخلقية، لذلك أُخضع للانتخاب الطبيعي، أما النوع الثاني فهو الجدير بحمل أسماء الآباء وتحمل المسؤوليات في المجتمع مستقبلاً. ويبدو أن ستايغر لم يرد أن يقرأ في هذه العبارة سوى معنى واحد ووحيد، معنىً يجعلها تنطبق على النوعين معاً من الأطفال، هذا بالطبع من أجل إضفاء مدلول اقتصادي على الطقس الذي كان يمكّن في رأيه "الآباء من تنظيم الولادات والقيام باختبار على مستوى الجنس. أما بين النخبة الاقتصادية لـ قرطاجة فربما استخدمت المؤسسة الدينية القيّمة على أضاحي الأطفال من قبل الأسر الغنية للحفاظ على ثروتها، وذلك بالحد من عدد الورثة الذكور الذين كان من المفروض أن يقسّم الإرث بينهم وكذا من عدد الإناث المفروض تقديم مهورهن عند أوان الزواج[٢٧]".

إذن الطقس في ضوء هذا التفسير ارتبط بالأسرة، وممارسته خضعت لحسابات اقتصادية صارمة أقله عند الأسر الموسرة. يخرج ستايغر بهذا الاستنتاج العقيم وهو لم

يقم بأدنى محاولة لدراسة اقتصاد قرطاجة ولا تحديد نمط الإنتاج الذي ساد في هذه المدينة. ويقيناً لو أنه فعل ذلك لقدم لنا نموذجاً تفسيرياً يعاني بصورة أقل من أغراض الارتجالية.

إن ارتباط الطقس بالأسرة في رأي ستايغر هو الكفيل وحده بتفسير احتواء بعض الجرار في (هيكل ت ن ت)، كل جرة على حدة، على بقايا طفلين أحدهما ولد قبل الأوان أو هو حديث ولادة والآخر تراوح عمره بين سنتين وأربع سنوات، وهذا يعني أن الطفلين معاً ينتميان إلى الأسرة نفسها، لأن سنتين إلى أربع سنوات -والرأي لستايغر- هي المدد الطبيعية التي تفصل بين كل ولادة وولادة عند الأسر التي لا تمارس أي نوع من تنظيم النسل قبل الإنجاب(٢٨).

بقي أن نشير إلى نقطة أخيرة في فرضية ستايغر، وهي نقطة لا تخلو من الأهمية لأنها تسعى إلى تحديد طبيعة الموضع الذي عثر فيه على بقايا الأطفال: هيكل أم مقبرة. في إجابته على تعقيب وجهة بيكار(٢٩) انبنى على أساس المقارنة بين ندرة قبور الأطفال في مدافن قرطاجة وبين ارتفاع بقاياهم في هياكل التضحية أو الـ (توفت)، تحدث ستايغر عن ظاهرة ندرة قبور الأطفال في مدافن قرطاجة باعتبارها ظاهرة عادية تصادف على سبيل المثال في مقابر بلاد الشام خلال الدور الثاني من العصر الحديدي، محاولاً في الوقت نفسه استغلال هذه النقطة، التي لا زالت أسبابها غير واضحة تماماً بالنسبة لعلماء الأنثربولوجيا العضوية، في إضفاء تماسك مزعوم على فرضيته، وهذا ما قاده إلى الخروج باستنتاج ماكر: إذا كانت قبور أو حالات دفن تعود على قلتها لأطفال في المدافن البونية، فليس لذلك سوى معنى واحد هو أن هؤلاء الأطفال ماتوا موتاً طبيعياً فتم دفنهم، بينما تمثل الحالات التي يقدمها الـ (توفت) نماذج تضحية والموضع الذي أمدنا بهذه الحالات ليس مدفناً بل هو هيكل(٣٠).

هذه هي الخطوط العريضة للنموذج التفسيري التوفيقي كما بناه ستايغر الذي عجز عن الاستفادة من أدوات ناجعة استقاها من علوم وليدة مثل الباليوديموغرافيا والديموغرافيا التاريخية. والحق أن ما يثير الاستغراب في محاولة ستايغر هو أنه على الرغم من استفادتها من هذه العلوم لم تستطع الاهتداء إلى فكرة خصبة أصبحت من الأدوات الأساسية في العلوم المذكورة، المقصود فكرة "قدرة الاستيعاب"، مع أنها لامستها أو كادت مرات عدة إلى الحد الذي يجعلنا نعتقد بأن نموذج ستايغر التفسيري كان منطلقاً لنموذج آخر قام بشكل أساسي على هذه الفكرة.

٤-قدرة الاستيعاب نموذجاً تفسيرياً:

لا ندري تماماً ما إذا كانت عبارة "قدرة الاستيعاب" تؤدي في العربية بأمانة المعنى أو المعاني التي يحملها المصطلح الإنكليزي "carrying capacity". فهذا المصطلح الذي استعاره علماء الباليوديموغرافيا والديموغرافيا التاريخية ثم المهتمون بالمنهج والنظرية في علم الآثار من إيكولوجيا الأحياء (biological ecology)، لا يخضع لتفسير موحد عند جميع مستخدميه، والسبب في ذلك هو أن له معنيين متمايزين: معنى مجرداً يُستخدم في الأبنية النظرية ومعنىً علمياً يستخدم في قياس المظاهر المحدّدة لعلاقة جماعة معينة من الناس ببيئتها[٣١].

كيف تم استخدام هذا المفهوم في تفسير ظاهرة التضحية بالأطفال؟ كيف تمت قراءة هذه الظاهرة في ضوء فكرة لا زالت تبحث عن ذاتها على المستوى النظري؟

الإجابة نجدها عند فاجنر C. G. Wagner وألبار J. Alvar[٣٢]. لكن قبل النظر في كيفية استخدام هذا المفهوم في تفسير أضاحي الأطفال، لا بد من استعراض الطريقة التي وظفه بها كل من فاجنر وألبار في تحديد الدوافع التي كانت وراء توسع الفينيقيين

غرباً. بالنسبة للباحثين لا يمكن فهم هذه الدوافع إلا في ضوء فكرة "قدرة الاستيعاب" (capacidad de sustentacion) لأنها الفكرة الكفيلة بتوضيح صورة تعامل الفينيقيين مع جملة من العوامل كانت في الحقيقة أسباباً وراء توجههم نحو منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط. يلخص فاجنر وألبار هذه العوامل في:

- عامل جغرافي:

فرضته ظروف الجغرافية الطبيعية المميزة لمنطقة الساحل السوري-اللبناني، حيث يتّسع مجال الجبال والمرتفعات على حساب السهول والأراضي الواطئة الصالحة للزراعة(٣٣).

- عوامل بيئية:

تمثلت أساساً في الظروف المناخية التي ميزت منطقة فينيقيا، والتي أثر فيها بشكل أساسي وجود سلسلة جبال تمتد على طول هذه المنطقة. سلسلة الجبال هذه تتلقى مياه الأمطار الناتجة عن عملية التبخر في البحر الأبيض المتوسط. تلقيها للأمطار بالإضافة إلى اعتدال ارتفاعها في المتوسط جعل منها منطقة غابوية غنية، مما ساعد في الوقت نفسه على حصول استقرار في الدورة المناخية. لكن هذا الاستقرار انعدم بمجرد ما أصبحت المنطقة الغابوية المذكورة فريسة لاستغلال مكثف كان السبب وراءه تزايد الطلب على أخشاب لبنان، خصوصاً من قبل مصر الفرعونية. كل ذلك كان له مفعول سلبي على الزراعة التي أصبحت تعني من التقلب المناخي ومن التقلص في الموارد المتاحة(٣٤).

- عوامل ديموغرافية:

تمثلت في النمو السكاني المضطرد وما فرضته من ضغط واستنزاف للموارد، خصوصاً بعد حصول بعض الأحداث التاريخية المؤثرة مثل زحف شعوب البحر(٣٥).

غير أن هذه العوامل لم تكن وحدها المسؤولة ، في رأي فاجنر وألبار، عن توجه الفينيقيين غرباً، ذلك التوجه الذي اتّخذ حسب الباحثين طابعاً زراعياً، بل لا بد من أخذ العوامل الاقتصادية والسياسية (=التاريخية) كذلك بالحسبان(٣٦).

بعد هذا الاستعراض لنموذج تفسيري طبق بصورة "قدرة الاستيعاب" في قراءة التوسع الفينيقي في منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط، لا بدّ الآن من استعراض كيفية توظيف المفهوم نفسه في تفسير ظاهرة التضحية بالأطفال عند الفينيقيين ما جاء أساساً في فاجنر(٣٧).

أول ما يثير الانتباه في دراسة فاجنر هو عنوانها: "التضحية مولوخ في فينيقيا" استجابة ثقافية للضغط الديموغرافي". الحديث إذن يمس فينيقيا، الأرض الأم، المستعمرات في غرب المتوسط! أليس في ذلك مصادرة على المطلوب؟

على الرغم من اعترافه بأن الجدل لا زال قائماً حول ما إذا كانت فينيقيا قد عرفت أو لم تعرف طقوساً من هذا القبيل، مشيراً في هذا الإطار إلى موقعي أوغاريت-رأس الشمرة وتل سوكاس(٣٨)، قدم فاجنر دراسته كما لو أن هذا الجدل قد زال وأصبح من الثابت أن الفينيقيين قد مارسوا في وطنهم الأم طقوس التضحية بالأطفال. وهو بناء على تسليمه بذلك، طرح نموذجه التفسيري القائم بشكل أساسي على مفهوم "قدرة الاستيعاب".

يعرّف فاجنر الطقس (مولوخ) بأنه قتل للأطفال يخفي أصداء بسيكولوجية (نفسية) وسلوكية متلازمة، مارسه فينقيو الغرب بعد أن تخلى فنيقيو الشرق عن ممارسته(٣٩). الطقس (مولوخ) إذن يجب البحث عن تجلياته "الأولى" في شرق المتوسط، مع الأخذ بعين الاعتبار ارتباط هذه التجليات بظروف بيئية قاسية عرفتها هذه المنطقة خلال

نهاية الألف الثانية ق. م. إنه ارتباط لا يتضح بصورة كافية إلا إذا تحدثنا في الوقت نفسه عن حصول ضغط ديموغرافي، حيث تتّخذ العملية منحى توليدياً (processual): سوء الظروف البيئية يؤدي بالضرورة إلى تقلص في الموارد وتهديد للأمن الغذائي، كما أن الضغط الديموغرافي يستنزف هذه الموارد الآخذة أصلاً في التقلص باطراد، وعندما يصل الأمر إلى الحد الذي ينعدم في التوازن، بين الموارد المتاحة وبين عدد السكان المعتمدين على تلك الموارد، تصبح الحاجة ماسة إلى تنظيم الوضع غير السوي، والعودة إلى حالة التوازن بالنسبة للفينيقيين كان المفتاح هو قتل الأطفال[٤٠].

بيد أن هذا التفسير تواجهه مشكلة حقيقية: إذا كان الطقس (مولوخ) استجابة ثقافية للضغط الديموغرافي فلماذا مارسه فينيقيو الغرب منذ بداية تأسيسهم لمراكز استيطانية مثل قرطاجة وغيرها...؟ إذ لا يعقل أن تلك المراكز عانت منذ قيامها ضغطاً سكانياً، بل إن العكس ربما كان صحيحاً.

حاول فاجنر حل هذه المعضلة بالحديث عن طقس ممارسته على النخبة، معتمداً في إثبات ذلك على نصين لا يقولان الشيء الكثير، أحدهما لـ ديودور والآخر لـ فيلون الجبيلي، ومتحدثاً في الوقت نفسه عن احتمال كون الـ (توفت) جبانة للأطفال[٤١].

ما المقصود باقتصار ممارسة الطقس على النخبة؟ ربما نفهم من ذلك أن النخبة تعني هنا الطبقة الحاكمة أو يمكن التوسيع من الدائرة التي يشملها هذا المصطلح لنتحدث عن معنى للمواطنة، أي اقتصار ممارسة الطقس على أفراد الشعب أو من يُعدون مواطنين[٤٢]، أو ربما ذهبنا مع بيكار إلى اعتبار أن الطقس (مولوخ/ م ل ك) كان طقساً وطنياً تنظمه الطبقة الحاكمة أو ممثلوها في البداية، ثم تحول إلى طقس أسري ارتبط أكثر بالأسرة[٤٣].

إذا كان هذا الاستعراض للنماذج التفسيرية التي حاولت تحديد الدافع وراء طقوس التضحية بالأطفال يوحي بشيء بأنه بحجم الغموض الذي لا زال يخيم بظلاله على

هذا الموضوع. والغريب أن الغموض لم يمنع أصحاب النماذج المذكورة من اتخاذ مواقف وثوقية جعلتهم يتوصلون بالضرورة -على حد رأي باولو كسيللا p. Xella[٤٤]- إلى استخلاص نتائج غير ناضجة.

إن انعدام النضوج يتّضح في كل نموذج تفسيري على حدة: في النموذج التفسيري التقليدي هناك إغراق في التعامل مع النص دون إخضاع مقولاته لنقد فيلولوجي عميق يُمكّن من التمييز بين الحقيقة النصية وبين الحقيقة التاريخية. ولئن كان هذا النموذج يشكو بسبب ذلك من توظيف كل الشواهد وعلى رأسها الشواهد الأثرية في خدمة النص قصد إثبات تاريخيته، فإن النموذج التفسيري المشكِّك أعطى لنفسه الحق في استبعاد النص وتجاهل مقولاته استناداً إلى "حقائق" الباليوديموغرافيا والديموغرافيا التاريخية. أما النموذج التفسيري التوفيقي، أي نموذج ستايغر، فيحسن أخذه مثالاً لـ "تمَأزق" المنهج والتفسير في علم الآثار الشرقية. إن "التمأزق" هنا ليس مصدره النتائج التي توصل إليها هذا النموذج: التضحية بالأطفال وسيلة من وسائل الحد من التزايد السكاني ، بل من المقدمات التي انطلق منها. إنها مقدمات ترفد من النص ومن آخر ما تم التوصل إليه في حقل النظرية في علم الآثار. لذلك ليس من المستغرب أن نجد ستايغر ضائعاً في نموذجه بين مقولات النص وبين الأدوات التي استعارها من الحقل النظري (القياس الإثنوغرافي مثلاً)، إلى الدرجة التي جعلته غير قادر تماماً على توضيح الحد بين الطقسي وبين الديموغرافي في ظاهرة التضحية بالأطفال. كيف يمكن تصوّر مجتمع ظلّ يمارس طيلة قرون الحد من التزايد السكاني بطريقته الخاصة: قتل الأطفال؟! إذا كانت التضحية بالأطفال استجابة للضغط الديموغرافي فعلاً، فمن المفروض أن يتم اختيار الضحايا أساساً من البنات[٤٥]، بل إذا كانت التضحية بالأطفال استجابة للضغط الديموغرافي، فقد كان من الأولى أن نجد لها حضوراً عند الأمم الأخرى!

يتحدث ستايغر في نموذجه عن الضغط الديموغرافي دون أن يقدم أدنى تعريف لـــه. من البديهي أن الضغط الديموغرافي لا يمكن في أي مجتمع إلا إذا كانت نسبة النمـــو السكاني عالية فيه، أي إذا كانت نسبة المواليد تفوق نسبة الوفيات. هل انطبـــق ذلـك على قرطاجة البونية؟ في الوقت الراهن لا يمكن تقديم الجواب حتى لو تم اللجوء مثلاً لـ سترابون الذي قال بأن عدد سكان قرطاجة بلغ ٧٠٠٠٠٠ نسمة(٤٦).

أما النموذج التفسيري الأخير، أي "نموذج قدرة الاستيعاب"، فهو النموذج الوحيد الـذي أبان حتى الآن بين النماذج المذكورة عن نضج نسبي، لكن خطأه المنهجي هـــو أنــه تعامل مع "فكرة قدرة الاستيعاب" كمحدّد مستقل منفصل تماماً عن العوامل الاجتماعيـة والاقتصادية، مع أن ذلك غير صحيح. إن الانتقاد الأساسي الذي يمكن توجيهه لـــهذا النموذج وكذلك لنموذج ستايغر هو أنه يعظم من شأن مسألة "الضغط الديموغرافـــي" إلى حد اعتبارها عاملاً أساسياً في عملية التغير الثقافي، وهذا يقود بـــالضرورة إلـــى إغفال المتغيرات الديموغرافية الأخرى، مثل مقدار نسبة المستهلكين إلـــى المنتجيـن وحجم الأسرة المرغوب فيه(٤٧).

ويبقى أن الانتقاد الذي وجه لـ "فكرة قدرة الاستيعاب" يدعو إلى إعادة النظر في هــذه الفكرة وعدم الوثوق كثيراً في نجاعتها إلا إذا تم التوصل إلى تحديد:

١-كمية الغذاء المتاح في منطقة محدّدة تستخدمها جماعة معيّنة من الناس،

٢-كمية الغذاء المتاح في ظل استخدام تقنية أو تقنيات إنتاج محدّدة،

٣-التغيرات الطارئة على بيئة المنطقة قيد الدراسة.

لكن هل بالإمكان تحديد هذه العناصر الثلاثة؟ نعتقد بأن الجواب بـ نعم علـــى هــذا السؤال سيكون فيه ضرب من التفاؤل المفرط (انظر في هذا الإطار حديث هـايدن B. Hayden عن معضلة "قدرة الاستيعاب"(٤٨)).

النماذج التفسيرية المذكورة تعاني كل حسب أطروحاتها من تأزم. ونحن هنا لن ندعي بأننا وجدنا الحل أو وضعنا يدنا على الجواب الذي سيحيل ظاهرة "التضحية بالأطفال" في العالم البوني، من ظاهرة غامضة مُلْغِزة إلى ظاهرة غاية في الوضوح.

ما نريد قوله في ختام هذه الدراسة المتواضعة يتلخص فيما يلي:

هناك نص (=العهد القديم والكتابات الكلاسيكية) تحدّث وأسهب في الحديث عن ممارسة الكنعانيين ثم من بعدهم الفينيقيين- البونيين لـ "التضحية بالأطفال"، وهناك من جهة أخرى شواهد مادية قد تثبت أو قد تنفي هذا الحديث.

لكن مشكلة النص هو أنه مبهم، يحتمل تفسيرات عدة ولذلك استخدمته كل النماذج التفسيرية وفق ما تراه متفقاً مع طريقة إجابتها عن السؤال الإشكالي: لماذا مورست "التضحية بالأطفال"؟

بالنسبة للنص التوراتي نعتقد أن إقحامه بشكل مكثف في دراسة موضوع "التضحية بالأطفال" عند البونيين هو أمر في غير صالح البحث، لأن هذا الموضوع ليس بحاجة إلى غموض يستعيره من النص التوراتي ليضيفه إلى حجم الغموض الكثيف الذي يحيط به في الأصل. أما الكتابات الكلاسيكية فلا يمكن الاستغناء عنها وإن كان من غير المفيد التعويل عليها كثيراً، لأنها تنقل في الحقيقة أخباراً انطباعية هدفها تنميط الآخر، إما باختلاق حكايات عنه قد لا يكون لها أساس من الصحة، أو بتأويلها بأفعال أتاها هذا الآخر بصورة مغرضة لأنها لم تكن مفهومة للذات أو لم ترد الذات فهمها. والتفسير الأخير محتمل إلى الحد الذي يدعونا إلى استحضار حكاية هيرودوت عن وفود القبائل التي جاءت إلى بلاط ملك الفرس العظيم، لتقديم الولاء فـ "كان كلّ وفد منها يشهق فزعاً كلما سمع عن المراسم الجنائزية لدى الوفد الآخر، فالبعض كان يحرق موتاه، والبعض الآخر كان يحنطهم، وفي النهاية اقتبس هيرودوت بيتا للشاعر بندار Pindar يقول فيه إن العرف هو الملك الذي يحكم الجميع[٤٩].

بيد أن هذا التفسير لا يجب أن يدفعنا إلى استبعاد هذه الكتابات استبعاداً كلياً، ذلك أن فيها معلومات هامة، مثل تلك التي تحدثنا عن ارتباط ممارسة الطقس عند القرطاجيين بظروف الحرب أو بظروف استثنائية بشكل عام[٥٠]. هذه معلومة في غاية الأهمية، تزداد أهمية كلما حاولنا ربطها بالإطار التاريخي لعلاقات قرطاجة بجيرانها، وقرأنا في ضوئها بالتالي التغير الطارئ على الطقس بالصورة التي قدمتها لنا جرار (هيكل ت ن ت) في قرطاجة وفي غير قرطاجة، على المستوى الدياكروني[٥١] (التطوّري). فالسجل العظمي لجرار (هيكل ت ن ت)في قرطاجة وفي موتيه[٥٢] يعلمنا بارتفاع نسب بقايا الأطفال خلال فترة ما بعد القرن الخامس ق. م. مقارنة بالفترة السابقة.

وعلى الرغم من أن المعلومات التي يقدمها السجل العظمي هي معلومات نسبية لأن الجرار التي تمّت دراسة محتوياتها قد لا تكون ممثلة لكل الجرار "الجنائزية" تمثيلاً جيداً، إلا أن ذلك يدعونا إلى طرح سؤالٍ، الجواب عليه مرهون بالطبع بوضع وحالة المعلومات المتاحة في الوقت الراهن: ما مدلول هذا التغير؟ لماذا كان القرن الخامس هو بداية التغير؟

هناك مسألة لم يتم التنبه إليها حتى الآن، تتمثل في "الثورة" التي جلبها القرن الخامس إلى قرطاجة وربما إلى المراكز الدائرة في فلك المدينة؛ إنها "ثورة" بدت ملامحها في أكثر من ميدان: في الدين ظهرت (ت ن ت ف ن بعل)[٥٣]، في الفن تغيرت ملامح الفخار من فخار مرتبط بالصناعة الفخارية الفينيقية الشرقية إلى فخار ذي ملامح محلية[٥٤]، كما تحولّت الأنصاب النذرية من أنصاب -عروش أو أنصاب- مذابح إلى مسلاّت رقيقة ذات رؤوس مثلثة، وهذا التحول صاحبه تحوّل آخر على مستوى النماذج الزخرفية[٥٥].

إذا رجعنا إلى التاريخ سنجد أن الفترة نفسها كانت غنية بالأحداث، هنا لن نشير سوى إلى معركة حميرا (٤٨٠ ق. م.) التي أسفرت عن هزيمة القرطاجيين أمام يونانيي

صقلية. ما دلالة هذه التحولات. وما علاقتها بازدياد نسبة "أضـــاحي الأطفـــال" فـــي قرطاجة بعد القرن الخامس؟

قبل الإجابة عن هذين السؤالين لا بد من التطرق لقضية "أضـــاحي الأطفـــال". نـــود الإشارة بدءاً إلى أن الأمر ربما تعلق بـــ "أضاح" -إن نحن تشبثنا باستخدام الاصطلاح الشائع- من أطفال توفوا في سن مبكرة، في وقت كانت فيه نسب الأموات من الأطفال مرتفعة تتراوح بين ٣٠ و ٤٠%، بحيث أن عدد أطفال الأسرة الواحدة الذين كـــانوا يصلون إلى سن الزواج لم يكن يتعدى طفلين(٥٦). طبعاً الأسباب وراء هـــذه الظـــاهرة متباينة. هناك أولاً السن الصغير للأم عند إنجابها أول أبنائها الذي إن لـــم يتعـــرض للوفاة فهو معرض لا محالة للهزال. وليس هناك من تعبير أفضل عن هذه المسألة من القول المنسوب إلى حكيم بابلي:

"كيف يكون المولود البكر على الدوام هزيلاً؟

إن العجل الصغير الذي يليه فيساوي ضعف قيمته،

الطفل الضعيف يأتي إلى العالم أولاً،

لكن "القوي البطل" يكون اسم الثاني(٥٧).

وهناك أسباب أخرى تتعلق بمستوى الرعاية المتواضع المتاح الذي كان يؤثّر بشـــكل كبير على مقاومة المواليد للظروف المحيطة.

ظاهرة "التضحية بالأطفال" قد تجد تفسيرها إذن في مسألة ارتفاع نسبة وفيات الأطفال قديماً، ذلك الارتفاع الذي لا شك أن وطأة الإحساس به ازدادت فـــي ظـــل ظـــروف الحروب التي خاضها القرطاجيون ضد جيرانهم سراقوزة، يونانييّ صقلية والرومـــان. ولئن كانت هذه الحروب قد صاحبتها تحولات ثقافية عميقة لم تقدر بعد حق قدرها ولم تُدرَس بما فيه الكفاية، فإن موضوع "التضحية بالأطفال" يجب أن يُقرأ في إطار هـــذه

التحولات. صحيح أن هذا الطقس مورس في قرطاجة منذ بداية تأسيسها، لكن ممارسته كانت محدودة ولم تصبح ظاهرة ملحوظة إلا بعد القرن الخامس ق. م. وليس لذلك سوى معنى واحد على الأرجح: مارس القرطاجيون والبونيون عموماً "التضحية بالأطفال"، أي حرق الأموات من أطفالهم مستعيرين بذلك طقساً كنعانياً قائماً ربما على نظرة خاصة للنار، باعتبارها مبدأ تخليصياً أو تطهيرياً قادراً على تجديد قوى الدولة والمجتمع والشد من أزرهما في مجابهة العدو. أما تقديم هؤلاء الأطفال لـ (ت ن ت ف ن بعل) و(بعل ح م ن)، أي لمبدأي الأنوثة والذكورة (= مبدأ الخصب) فمن المحتمل أن الغاية منه كانت العون من الإلهين المذكورين لتعويض الآباء بأطفال أصحاء بدل من الذين قضوا في سن مبكرة. وهذا لا يعني بالطبع أن القرطاجيين والبونيين عموماً لم يمارسوا كذلك دفن الموتى من أطفالهم. صحيح أن الأمثلة نادرة في هذا الإطار، لكن ندرتها قد تُعزَى إلى مسألة الطافونوميا (taphonomie) فحسب التي تجعل العثور على بقايا الأطفال في المقابر أمرا نادراً جداً.

خاتمة:

ما نصادفه من شواهد مادية في "هياكل التضحية" في قرطاجة وبعض مواقع العالم البوني لا يقدم لنا الدليل المعاين على روايات الكتاب الكلاسيكيين في روايات صحيحة، بل يجعل على العكس من ذلك التشكيك في هذه الروايات أمراً وارداً. من المحتمل أن النص الكلاسيكي يعكس حالة من عدم الفهم عانى منها واضعو هذا النص تجاه ظاهرة "التضحية بالأطفال" عند البونيين، فوضعوا جملة من الحكايات التي هدفت إلى تنميط الآخر ووضعه في خانة معينة، جمعت كل الأوصاف التي أراد لا شعور الذات أن يتصف بها هذا الآخر.

الشواهد المادية في هذه الحالة قد تكون مجرد شواهد عاكسة لتعامل ثقافي محدّد مع ظاهرة ديموغرافية: ارتفاع وفيات الأطفال. وعلى الرغم من أن رسم الحد بين ما هو

ثقافي وبين ما هو ديموغرافي في هذه الظاهرة يظل أمراً افتراضياً، إلا أنه يمكن الحديث عن لجوء البونيين إلى حرق أطفالهم الذين توفوا في سن مبكرة لاعتبارهم النار مبدأ تخليصياً تطهيرياً، ولتكريس من أحرقوه من أطفالهم الأموات لـ (ت ن ت ف ن بعل) ولـ (بعل ح م ن)، لأن هذين الإلهين كان ينتظر منهما تعويض الآباء عن موتاهم من الأطفال بأطفال أصحاء يشدّون من أزر الدولة ويدرؤون عنها الخطر الداهم.

لذلك قد يكون من غير المستغرب أن البونيين اضطروا أكثر لحرق موتاهم من الأطفال حينما أصبحوا متورطين في حروب طاحنة مع جيرانهم في عرض البحر المتوسط، حصل ذلك خلال القرن الخامس ق. م. وما بعده، وهي الفترة ذاتها التي شهدت فيها قرطاجة جملة من التحولات الشاملة التي تستحق أن تكون عنواناً على "ثورة".

ويبقى أن الشعور بالتهديد الممارس على الكيان القرطاجي، ذلك الكيان الذي شكّل مركزاً مهماً في عالم "الدياسبورا" (الشتات) الفينيقي، جعل اللجوء إلى طقوس من هذا القبيل أمراً مرغوباً فيه قصد درء الأخطار، وإعادة القوة للدولة التي تهددتها الأخطار لأول مرة بصورة حقيقية بعد معركة حميرا (٤٨٠ ق. م.). وإذا كان هناك أمرٌ يمكن أن نأسف له في نهاية هذه الخاتمة فهو غياب أي نص بوني يعكس لنا الحالة النفسية للقرطاجيين بعد هزيمتهم أمام يونانييّ صقلية، أو عند خوضهم الحرب ضد أغاثوكليس طاغية سراقوزة أو ضد روما في الحروب البونية الثلاث.

أما التوصية التي نحس أن طرحها لازم في نهاية البحث فهي ضرورة التصدي لدراسة التحولات التي عرفتها قرطاجة والمراكز الدائرة في فلكها بعد القرن الخامس، لأن تلك التحولات هي من العمق والخطورة بحيث تستحق أن تُدرس بشكل شامل ومعمق.

المصادر والمراجع والحواشي

(١) من أجل بيبلوغرافية تغطي جوانب مختلفة من المشكلة انظر
H. Bénichou-Safar, "**Tophets et nécropoles puniques**" *VIe Colloque International sur l'Histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord,* Nancy, 1995, P. 91-102.

(2) J. Henninger, "Sacrifice", *the Encyclopedia of Religion,* Vol. 12, New York, 1987, P. 544.

(3) M. Gras, P. Rouillard, J. Teixidor, "**The Phoenicians and Death**", *Byretus,* 39, 1991, P. 127-67.

(٤) وردت كلمة "توفت" في سياقات مختلفة من العهد القديم (انظر على سبيل المثال إرميا ٧: ٣١ "وبنوا مرتفعات توفت التي في وادي ابن هنوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار الذي لم آمر به ولا صعد على قلبي").

(٥) حسب فرايزر كانت طقوس التضحية تمارس منذ القديم لكنها تطورت حيث مورست "لتهدئة الإله بأن تحرق على شرف الملك أو ابنه [...] [ثم] حصل الاستبدال...فحل ابن الملك مكان أبيه، فرجل من العامة، فحيوان ثم أخيراً صورة تمثل شخصاً نقلاً عن
C. Bonnet, "**Melqart: Cultes et mythes de l'Héraklès Tyrien en Méditerranée**", Namur, 1988, P. 105.

(6) R. Dussaud. "**Milk, Molok, Melqart**", Revue de l'Histoire des Religions, 49, 1904, P. 181; W. Hallo, " Hallo, "**The Origins of the SacrifcialCult: New evidence from Mesopotamia and Israel**", in Ancient Israelite Religion, éds P. D. Miller Jr., P. D. Hanson, S. D. McBride, Philadelphia, 1987, p. 3-13.

(7) C. Schaeffer, **Communication dans Comptes rendus de l'académie des inscriptions et Belles-lettres.** 1956, p. 67; cf. id., apud A. Herdner, **Une prière à Baal des Ugaritains en danger**", Comptes rendus de I 'académie des Inscriptions et Belles-lettres, 1972, p. 698-99.

(8) S. Moscati, "**Il sacrifio.punico dei fanciulli: realtà O invenzione?**" Accademia Nazionale dei Lincei, Quaderno, 261, 1987, p. 3-15.

نشير هنا أيضاً إلى دراسات لـ موسكاتي تسير في الاتجاه نفسه:

id. "**Gli adoratori di Moloch. Indagine su un celebre rito cartaginese**", Milan, 1991; S. Moscati & S. Ribichini "**Il sacrifio dei bambini: un aggiornamento**", Accademia nazionale dei lincei, Quaderno, 266, 1991, p. 1-44.

(9) ibid, p. 10.

(10) ibid.

الرأي نفسه يرد في

C. Picard, "**Les sacrifices Molk chez les Puniques: certitudes et hypothèses**", Semitica, 39, 1990, p. 84;

P. Xella, "**Tendenze e prospetive negli studi religione fenicia e punica**", Atti del II Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici. vol. 1, Rome, 1991, p. 429.

(12) Moscati, "**Ii sacrifio punico**. . .", op. cit., p. 10.

(13) **Ibid**, P. 6.

(14) C. Picard, **op. cit.** p. 84-85, n. 39

حول تحليل واف لحكاية انتحار ديدون، انظر

C. Baurain, "**Le rôle de Chypre dans la fondation de carthage**", Studia Phoenicia VI (Carthago), Leuven, 1988, p. 15-27.

(15) Gras, Rouillard, Teixidor, **op. cit.**, p. 172.

(16) **ibid.**

(17) **ibid**, p. 172-173.

(18) H. Bénichou-Safar, "**Le rite d'entrée sous le joug des stèles de Carthage à l'Ancien Testament**", Revue de I 'Histoire des Religions, 210, 1993, p. 131-43.

(19) H. Bénichou-Safar, "**Tophets et nécropoles puniques**", VI Colloque International sur l 'Histoire et l 'archéologie de l 'Afrique du Nord, Nancy, 1995, p. 91-102

(20) L. W. Stager, "**Carthage:** A View from the Thphet", Phönizier im Westen (Madrider Beiträge 8), Mainz, 1982, p. 155-66; id., "**Phoenician Carthage: The Commercial Harbor and the Tophet**" (en hébreu), Qadmoniot, 17, 1984. p. 39-49; id., **Le tophet et le port commercial** Pour sauver Carthage, Unesco, 1992, p. 72-78; L. W. Stager & S. R. Wolff "**Child Sacrifice: Religious Rite or Population Control?", Biblical Archaeology Review**, 10, 1984, p. 30-5 1.

(21) W. Stager, "**Cartbage A View from the Tophet", op. cit.**, p. 159.

(22) L. W. Stager & S. R. Wolff, "**Child Sacrifice: Religious Rite or Population Control?**" , op. cit, p. 30-51.

(32) **ibid**, p. 32.

(24) **ibid**. p. 51.

(26) Gras, Rouillard & Teixidor, **op. cit.**, p. 173.

(26) W. V. Harris, "**Child Exposure in the Roman Empire"**, Journal of Roman Studies, 84, 1994, p. 1-22.

(27) Stager, "**Le tophet et le port commercial**", op. cit, p. 75.

(28) Stager, "**Cartahge: A View from the tophet**", op. cit., p. 161-62; id., "Phoenician Carthage: **The Commercial Harbor and the Tophet", op. cit.**, p. 48.

(29) G.-Ch. Picard, apud Stager, "**Carthage: A View from the Tonhet", op. cit.**, p. 165.

(30) Stager, "**Csrthage View from the Tophet**", op. cit., p. 165.

(31) M. A. Glassow, "**The Concept of Carrying Capacity in the Study of Culture Process"**, Advances in Archaeological Method and Theory, New York, 1978, p. 31-48.

(32) C. G. Wagner & J. Alvar, "**Fenicios in occidente: la colonizacón agricola**", Rivista di Studi Fenici, 17, 1989, p. 61-102; C. 0. Wagner, "**EL sacrificio del Moloch en Fenicia : una respuesta adaptativa a**

la presión demografica", Atti del 11 Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici, Vol. 1, Roma, 1991, p. 411-16.

(33) Wagner & Alvar, **op. cit.**, p. 63-64.

(34) **ibid**. p. 65-67.

(35) **ibid**, p. 68-72.

(36) **ibid**, p. 72-73.

(37) Wagner, **op. cit**.

(38) **ibid**. p. 415.

(39) **ibid**.

(40) **ibid**, 415416.

(41) **ibid**. 416.

(42) M. E. Aubet, "**"The Phoenicians and the West. Politics, Colonies and Trade"**. Cambridge, 1993, p. 216.

(43) G.-Ch. Picard & C. Picard, **"Life and Death of Carthage"**, New York, 1968. 153-54.

(44) P. Xella, **"Tendenze e prospective negli studi religione fenicia e punica"**, Atti del II Congresso Internazionale di Studi Penici e Punici, vol. I, Rome, 1 , p. 42

(45) M. E. Aubet, **op. cit.**, p. 2 15.

(46) E. Lipiński, **"Sacrifices d'enfants à Carthage et dans le monde sémitique oriental"**, *Studia Phoenicia VI (Carthago),* Leuven, 1988, p. 159.

(47) F. A. Hassan, ***"Demographic Archaeology"***, New York, *1985, p.* 163.

(48) Hayden, **"The Carrying Capacity Dilemma"**, *American Antiquity,* 40, 205-22 1.

(٤٩) ب. رسل، "حكمة الغرب"، الجزء الأول، ترجمة ف. زكريـــا، سلسـلة عــالم المعرفة، ٦٢، الكويت، ١٩٨٣، ص. ٩٠.

(٥٠) انظر في هذا الإطار

A. Simonetti, "**Sacrifici umani e uccisione rituali nel mondo fenicio-punico. Il contributo delle fonti letterarie classiche**", *Revista di Studi Fenici,* 11, p. 91-1 11.

(٥١) انظر

L. W. Stager, "**Carthage: A View from the** ***Tophet***", *op. cit.,*

(٥٢) الملاحظة نفسها تنطبق على مواقع أخرى مماثلة من قبيل ثاروس في صقلية، انظر في هذا الإطار

F. Fedele & G. V. Foster, "**Tharros: ovicaprini sacrificali e rituale del Tofet**", *Revista di Studi Fenici,* 16: 2946.

(٥٣) الحق أن هذا التغير الذي حصل على مستوى الدين لم ينل بعل الاهتمام الذي يستحق.

(54) A.M. Bisi, ***"La ceramica punica Aspetti e problemi"***, Napoli, 1970, p. 191.

(55) C. PICARD, "**Les representations du sacrifice** ***molk*** **sur les** ***ex-voto*** **/ stèles de Carthage**", *Karthago,* XVII, 1973-74 [l976j,p. 67-138; XVIII, *1975-76* [1978~,p. *5-116.*

(56) W. Suder, "***tophet*** **a Carthage. quelques remarques sur le rite funéraire et les problèmes démographiques**", *Atti del II Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici,* vol. I, éd. S. Moscati, Rome, 1991, p. 407408.

(57) E. Lipiński, "**Sacrifices d'enfants à Carthage et dans le monde punique**", *Studia Phoenicia VI (Karthago),* éd. E. Lipiński, Leuven. 1988, p. 161.

جمالية النحت فـــي «جوزانا» الآرامية

١٠ - ٩ ق.م

مملكة «بيت بخياني»

أ.م.د.النحات عبد الله السيد

كلية الفنون الجميلة

جامعة دمشق

١ - مدخل منهجي

١ــ١: إشكالية المنهج..

لا يمكن الحديث عن نحت آرامي، قبل تحديد خصائص هذا النحت، ومقارنتـــه مـــع الفنون الحضارية الأخرى، إلا أن تحديد الخصائص، يمكن أن يوقع في منطق سكوني ــ وهو شرك منهجي ــ باعتبار أن هذا النحـــت معطـــى فـــي الزمـــان والتـــاريخ المتحركين. والتساؤل المنهجي الأول:

هل يمكن لمنهج أن يمسك بصيرورة فن في لحظتيه: لحظة الثبات ولحظة التحول؟..

١ــ٢: الفكر النقدي..

لما كانت قرائن موضوع البحث، تضاء بتاريخ المجموعة البشرية التي أنتجته، وكـــان هذا التاريخ مرهوناً، بالتنقيب الأثري أولاً، وبالوثائق المدونة ثانياً، فإن الشـــرط الأول يفتح باب الاحتمال، لأنه لم يتم كلية، أما الشرط الثاني.. فقد دوّن وفق أيديولوجيـــات

محددة، من قبل أعداء هذه المجموعة البشرية المسماة بالآراميين، فـــهي أيديولوجيـــة الدعاية والتعاظم، كما في الوثائق الآشورية[١]، وهي ايديولوجيـــة الحقـــد والتشـــفي والتعويض كما في الأسفار التوراتية[٢]، وهذا ما يتطلـــب الحـــذر فـــي اســـتخلاص المعلومات من هذين المصدرين، إضافة إلى ضرورة الحذر من علم الآثار التوراتـــي المزعوم[٣]، وما انزلق منه من مصطلحات ومفاهيم ونتائج إلى الدراسات الحديثة.

وتبقى الوثائق الآرامية ــ وهي ضئيلة ــ أهم المصادر لتاريخ الآراميين.

١ــ٣: تحديد موضوع البحث..

إن طلائع المعرفة بالوجود الآرامي، تعود إلى القرن الرابع عشـــر قبـــل الميـــلاد[٤]. وربما إلى ما يزيد عن الألف عام قبل هذا التاريخ[٥]، ويمتد هذا الوجود، حتى تاريخنا المعاصر. أما الامتداد الجغرافي لهذا الوجود، فقد كاد يغطي بلاد الشام وبلاد الرافدين في الألف الأول قبل الميلاد[٦].

إن ضخامة هذه الكتلة التاريخية الحضارية، التي عرفت اختلاطاً واســـعاً بالشـــعوب الأخرى[٧]، كما تميزت بإنتاج حضارة مركبة ــ حسب سبتينوموســـكاتي ــ [٨] تدفـــع لتحديد موضوع البحث قدر الإمكان، ولذا.. حصرنـــاه بموقـــع واحـــد هـــو موقـــع «جوزانا»، المدينة التي تعود آثارها، إلى القرن ١٠ــ٩ ق.م، وبذا يكـــون موضـــوع بحثنا هو «النحت في مملكة جوزانا الآرامية» لاعتبارين: الأول.. تواجد الآراميـــــن وبوضوح في هذا الموقع، والثاني... التنقيبات الواسعة التي أجريت في هذا الموقع.

١ــ٤: وضع إشكالية الموضوع..

تتجلى الإشكالية الآرامية العامة، من خلال واقع، أن دراسة المواقـــع الآراميـــة، قـــد توزعت وفق اتجاهين اختصاصيين في الآثار: علم الآثار الآشوري، وعلـــم الآثـــار الحثي، وهو ما نراه بوضوح، حين ألحق «بارو» موقع «جوزانا» بالفترة الآشـــورية

الحديثة[٩]، أما «كارل بيتل» فألحق ملطية ومرعش وزنجرلي وكركميش بالفترة الحثية المتأخرة [١٠] (أو الحديثة)، في الحين الذي يصرح فيه «بارو» أن فن «جوزانا» فن محلي أو إقليمي[١١]، وفي الحين الذي يقول فيه «مورتغات»، أن أمارات تل حلف وملاطيه ومرعش وكركميش وساكتشاكوتسي وتل برسيب وزنجرلي وحماة، عرفت تأثيراً آرامياً قوياً[١٢]، وفي الحين الذي يرى «دوري» ثلاثة أساليب في الفترة النيو ــ حثية (الحثيّة الحديثة): أحدها تقليدي، والثاني آشوري، والثالث آرامي. (١٣)

١ــ٥: المنهج:

سوف نستخدم في دراسة مادة الموضوع، منهج علم الجمال التجريبي، حيث نلاحظ الظاهرة الفنية، من خلال تقسيم الأثر الفني إلى أربعة عوالم مميّزة: [١٤]

١ــ العالم الظاهراتي le monde phénoménal، الذي يتضمّن المواد والأبعاد والتقنات.

٢ــ العالم المُمثّل Le monde representé، الذي يتضمّن العناصر والأشكال الممثلة في الأثر الفني.

٣ــ العالم الفني المستقل بذاته le monde autonome، الذي يتضمّن النظم الجمالية.

٤ــ العالم المعنوي le monde nominal، الذي يتضمّن الرموز والمعاني والدلالات والمضامين.

ويعتبر العالم الفني المستقل بذاته، هو العالم الأكثر جذرية في العمل الفني، الذي لا يخضع إلا إلى قانونه الخاص[١٥]، هوعالم محكوم بمنطق الأشكال، الذي يعني -بمعنى عام - الضرورة التجريدية، كعلاقات الخطوط فيما بينها، والذي يعني -بمعنى أكثر دقة – بنى أو علاقات تنظيمية: تضمين استبعاد، هوية، تناقض، مشابهة؛ كما يعني مجموعات هندسية لجزئيات ذرية زخرفية، مشكّلة فيما بينها بنى قابلة للانعكاس، أو

مجموعات إتفاقية، على أساس عناصر غير هندسية؛ وقد يعني علاقة مجموعة إلى مجموعة على أساس من الهوية، أو المشابهة، أو التناقض. أما فيما يخص الألوان، فهو يعني العلاقات القائمة بين مساحات لونية، على أساس من التجاور أو المشابهة، حين تكون هذه المساحات محدودة.. الخ (١٦)، وبالنسبة إلى النحت فهو يعني العلاقات القائمة بين نسب الكتل، وبين نسب السطوح، وبين الملامس السطحية، ونسب التنوع فيها، ونسبة الكتلة إلى الفراغ، وتمركزات الفراغ، كما يعني تنوعات اللون النحتي من خلال الظل والنور، وآليات تحرك النور، ونوعية الحركة النحتية، خارجية أو داخلية، والأساس البنيوي لها شاقولي أم محوري أم أفقي (١٧).

وسوف نعمد إلى القياس والاحصاء، حين تتوافر لنا إمكانية ذلك.

٢ -النحت في «جوزانا»

٢ــ١: أوليات النحت والعمارة..

إن ما يجمع النحت والعمارة، هو أنهما يستخدمان الشكل، مثل بناء أو هيكل للمادة والفضاء، حيث يستظهر هذا الشكل بالتوازن الكتلي، وتنويع المضاء والمظلم، بالدرجة وباللمسة. (١٨)

وإذا كان ما يميّز العمارة عن النحت، هو أنها تتمثل بمعابد ومساكن ومنشآت يدخلها الناس، فتستظهر كتلتين داخلية وخارجية، وترسم فضائين داخلي وخارجي. فإن النحت الحديث ــ عند اتيين مارتان مثلاً ــ يستخدم هذا المفهوم المعماري، في حين أن العمارة قد استخدمت النحت ومنذ عهود بعيدة، في تنويع كثافة السطوح المعمارية، من خلال الأشكال التزيينية واللوحات الجدارية، بل واستخدمت النحت فيها، لفصاحته التصويرية والرمزية والتعبيرية، التي تعطي للعمارة النبرة التأويلية الواضحة.

٢ـ٢: العمارة الآرامية..

كان حظ العواصم الآرامية كبيراً، من جهود المنقبين، منذ فجر علم الآثار، إلا أن أكثر المكتشفات، كانت بوابات مدن وأجزاء من أسوار، وقصوراً مع بواباتها، في حين لم يعثر إلا على معبد واحد، هو معبد عين دارا، حسب ما يقوله د. علي أبو عساف. (١٩)

٢ـ٢ـ١: بيت هيلاني..

من العمارة الدنيوية. وهو نمط من العمارة مكتمل، ومرتفع، لا يسمح بإضافات عشوائية. يتألف من قاعتين بشكل مستطيلين متوازيين على الضلع الكبير، وبوابة ساكفها محمول على حامل، أو اثنين، أو ثلاثة، يوجد بوابة بين الصالتين، كما قد توجد غرف على الأبعاد الأخرى، وقد يوجد درج في القاعة الأولى (٢٠). وقد لاحظ «بيتل»: «إن هذه العمارة ليست مختلفة عن عمارة المعبد» (٢١). أما د.علي أبو عساف فيرى أن المعبد الآرامي، إنما نشأ من امتزاج تقليدين حضاريين عريقين، في بلاد الشام، أولهما المعبد الكنعاني الأموري، والثاني بيت هيلاني، أي البيت العالي.(٢٢)

وجد نمط بيت هيلاني في موقع «جوزانا»، كما وجد في كل من تل برسيب وفي شمأل، ويعود النموذج الأول لهذا النمط إلى مدينة ألالاخ (تل عطشانا)، ويؤرخ في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.(٢٣) ويشير د. توفيق سليمان، أن الهيلاني أصبح عنصراً متميزاً في المدن الحثية ــ السورية(٢٤)، حيث اقتبسه الآشوريون كما في «خداتو»(٢٥)، ويبدو أن د.علي أبو عساف، يميّز بين الأمارات الحثية وبين الآرامية، من خلال تواجد بيت هيلاني. (٢٦)

إن هذا النموذج الذي وجد في «جوزانا» هو الذي يقدّم لنا معظم القرائن النحتية، من تماثيل ولوحات جدارية، والتي ستكون موضوع بحثنا مع التماثيل الجنائزية، التي

وجدت في المدينة.

٢ـ٢ـ٢: اللوحات الجدارية..

إن اللوحات الجدارية في قصور الآراميين، كانت عبارة عن نعلة حجرية منحوتة ومنقوشة، وضعت في الأجزاء السفلى من الأبنية، لحماية جدران هذه الأبنية، من تأثيرات العوامل الطبيعية أو الإنسانية حيث كانت من مادة اللبن الطيني.

أما الميزة المشتركة بين القصر الآشوري والآرامي، فهي أن كل منهما، كان يستخدم اللوحات الجدارية الحجرية المنحوتة والمنقوشة، لتزيين الجدران، لكنهما اختلفا في موقعها، فالآشوري يزين داخل القصر، والآرامي يزين خارج القصر. (٢٧)

٢ـ٢ـ٣: المعبد..

لم تشر الدراسات إلى اكتشاف معبد في جوزانا، علماً أن المعبد الوحيد هو المكتشف في عين دارا، وأن قصر «جوزانا» الغربي أطلق عليه اسم المعبد ــ القصر.

٢ـ٢ـ٤: بوابات المدن..

كان للمدن الآرامية بوابات، تحرسها التماثيل، وتحميها من أسفلها الألواح الحجرية المنقوشة، وقد وجدت هذه البوابات في كل من «خداتو» (موقع أرسلان طاش) (٢٨) وفي «تل برسيب» (موقع تل أحمر)، (٢٩) حيث زينت البوابات بتماثيل الأسود. وقد وجدت مجموعة من المنحوتات التي كانت تزين بوابة حصن وباب المدينة الجنوبي في «شمأل» (موقع زنجرلي). (٣٠)

أما بالنسبة إلى «جوزانا»، فقد أشير إلى بوابات المدينة، لكن لم يشر إلى منحوتـــات تزين مداخلها.

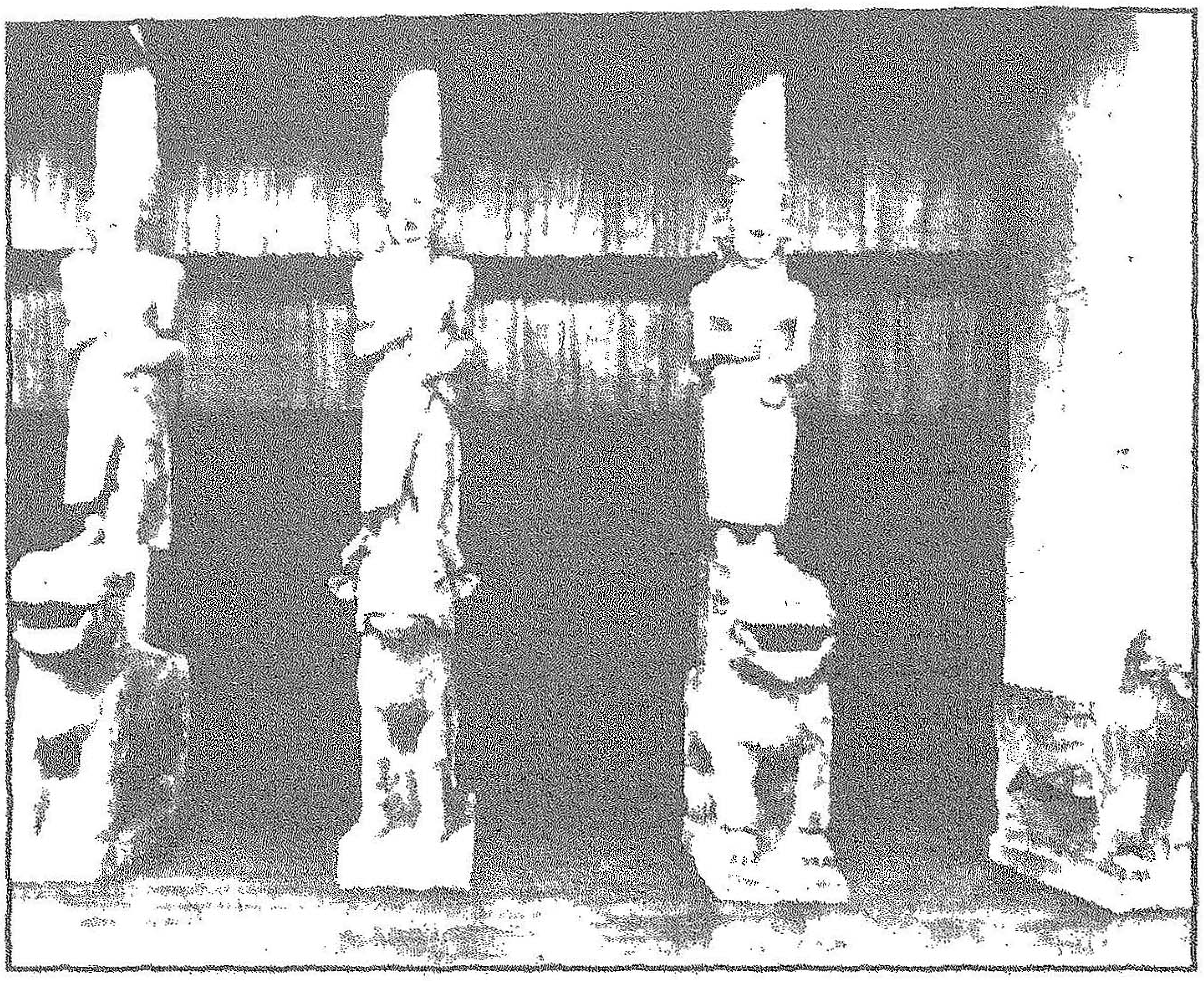

رقم (١)

رقم (٢)

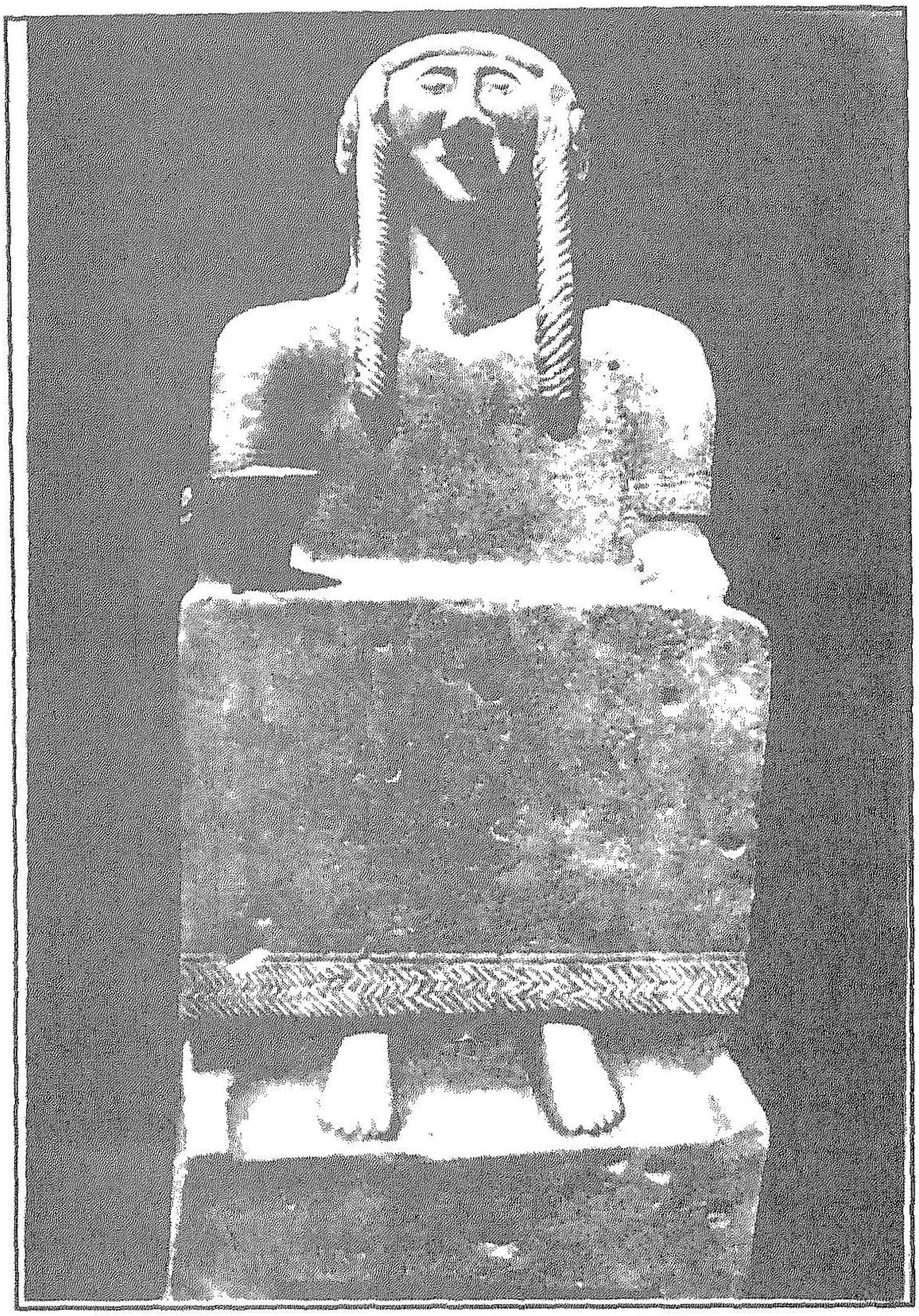

رقم (٣)

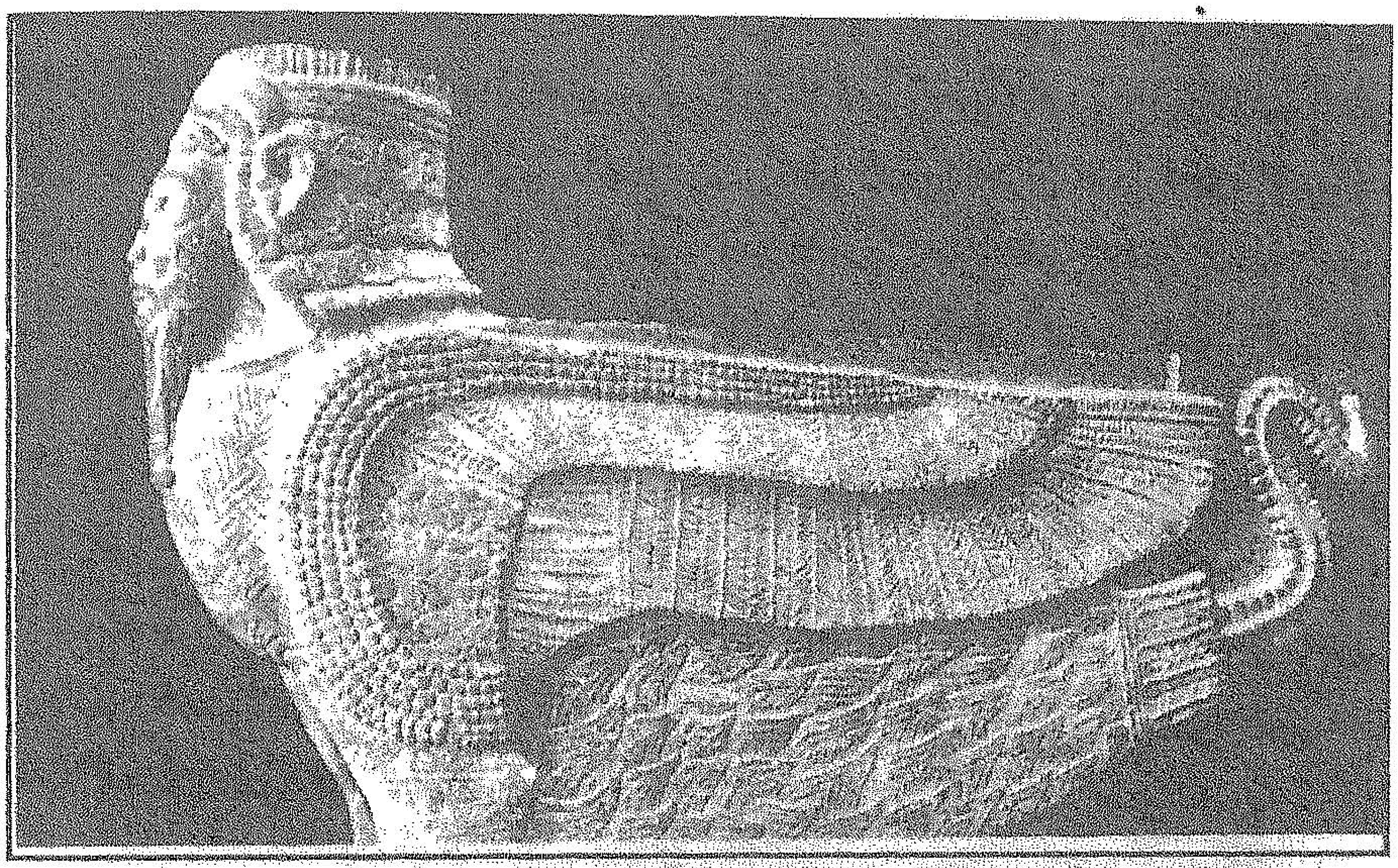

رقم (٤)

٣ - الدراسة التحليلية

٣ـ١: موقع تل حلف «جوزانا»..

موقع أجريت فيه تنقيبات أثرية في الأعوام: ١٨٩٩، ١٩١١ ـ ١٩١٣، ١٩٢٧ـ١٩٢٩، برئاسة الدبلوماسي الألماني البارون «ماكس فون أوبنهايم». يجاور الموقع بلدة رأس العين عند منابع الخابور في شمال سورية.

أبعاد مساحة المدينة المسورة بشكل مضلع ٦٠٠×٣٦٠م. ترتفع في الوسط قلعة مستطيلة الشكل، وفيها قصران: الأول سمي القصر الغربي، الذي يعود إلى القرن التاسع، أي فترة الحكم الآرامي، والثاني الشمال غربي، وهو مقر الحاكم الآشوري بعد عام ٨٠٨ ق.م. بنى القصر الغربي، وهم الأهم على نمط بيت هيلاني، من قبل

«كا بارا بن خاديانو»، الذي يبدو أنه من سلالة، بدأت حكم هذه المدينة الآرامية، من القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

أما الأعمال النحتية التي اكتشفت في هذا الموقع، فقد عمدنا إلى تصنيفها وفق التالي:

آ ـ النحت المعماري:

١ـ زوج الإنسان ـ العقرب

٢ـ أنصاب البوابة.

٣ـ زوج أبي الهول.

٤ـ اللوحات الجدارية (الواجهة الأمامية ـ الواجهة الخلفية)

ب ـ النحت المستقل:

١ـ نصب المصطبة.

٢ـ التماثيل الجنائزية.

٣ـ٢: النحت المعماري

٣ـ٢ـ١: زوج الإنسان ـ العقرب:

ارتفاع ١,٦١ ـ م القرن التاسع ق.م ـ متحف حلب ـ متحف الدولة ببرلين. من حجر البازلت. يتداخل كل منهما في الدعامة الجانبية للبوابة، التي تقود إلى الحي الملكي.

الأسلوب هندسي ـ عضوي. يتألف الشكل من: رأس إنسان + الجزء العلوي لجسم طائر كاسر وأقدامه + مؤخرة عقرب.

خلاصة التحليل تبدي العمل وهو يطرح الجدلية بين العضوي والهندسي، وجدلية

الأليف والغريب، وجدلية السطوح عبر كثافتها أو المليء والفارغ، وجدلية التشابه والاختلاف.

٣ـ٢ـ٢: أنصاب البوابة..

ثلاثة أنصاب ضخمة من حجر البازلت الأسود. الحوامل الثلاثة تتألف من قاعدة بشكل حيواني: لبوة، وثور وأسد، ومن تمثالين لرجلين، ومن تمثال لامرأة.

بالنسبة للقواعد، شُغل الصانع بتفاصيل المخالب والآذان والعيون وعضلات الوجه، ولم تلق كتلة الجسم ذات العناية، مما يستنتج منه أنْ الهندسية في الشكل التمثيلي، إنما هي الحل التوافقي بين المطالب التصويرية وبين المطالب المعمارية. المرأة بنسبة ١/٥، والرجلان بنسبة ١/٤، عولجت المرأة بشكل مبسط، والتفت الكتلة بشكل أسطواني، تبدو معمارية أجسام الذكور من خلال حصرها في شكل مستطيلي قائم. عولجت القواعد بشكل هندسي مستطيلي.

٣ـ٢ـ٣: زوج أبي الهول..

شكل تركيبي خيالي، يتألف من:

رأس إنسان + جسم أسد + أجنحة نسر. يتداخل كل منهما في عضادة البوابة، بحيث تبدو المقدمة مجسمة، وتبدو الواجهة الجانبية بشكل «روليف». الجسم بشكل هندسي منتظم. تغلب على الشكل القيم التشكيلية، وتتراجَع الرغبة التمثيلية إلى المستوى الثاني من الاهتمام.

٣ـ٢ـ٤: اللوحات الجدارية..

٣ـ٢ـ٤ـ١: لوحات الواجهة الأمامية:

عددها سبعة، وربما كانت ثمانية في الأصل. بعضها موجود في متحف حلب. كانت

هذه اللوحات تتوضع على جانبي البوابة، ثلاث لوحات من كل جانب من البوابة، ورابعة تستند إلى جدار البرج، حيث يتوقع أن يكون ترتيبها من جانب البوابة إلى البرج كالتالي:

١ـ مشهد الأسد وهو يمشي.

٢ـ مشهد الجن وهم يسندون قرص الشمس.

٣ـ مشهد نبّال مع ثور يعدو.

٤ـ وعلى جدار البرج مشهد الثور المجنح.

أما من الجانب الآخر فهي:

١ـ مشهد الأسد وهو يمشي.

٢ـ مشهد تيشوب.

٣ـ مشهد نبّال مع وعل يعدو.

٤ـ وعلى جدار البرج مشهد الثور المجنح.

الأشخاص بنسبة ١/٤، الاهتمام بالرأس، الإنسان بارتفاع الحيوان، دقة تنفيذ، أكثر من صانع، اهتمام بالتشكيل والتكوين على حساب التمثيل.

٣ـ٢ـ٤ـ٢: لوحات الواجهة الخلفية:

عددها /١٨٧/حسب د.علي أبو عساف[٣١]. / حسب مورتغارت[٣٢]/١٧٨/ تضم لوحات فيها شكل واحد كشجرة الحياة، والعنزة، أو النعامة الخ. ولوحات تضم أشكالاً مركبة مثل الإنسان ـ السمك، الأسد المجنح برأس إنسان الخ.. ولوحات بشكلين كرجل يمسك نعامة، أو رجلان يتصارعان الخ..

لم تشغل بال الصانع المماثلة أو المحاكاة، بل اهتم بالمفهوم وبالخصائص النمطية، أما من الناحية الأسلوبية فالأشكال هي كرقائق على خلفيـــة حيـث الاهتمـام بـالمحيط الخارجي.

٣ـ٢ـ٥: مقارنة بين مجموعتي اللوحات..

كل مجموعة تعود إلى فترة زمنية، مختلفة عن الأخرى اختلاف حجم لوحات كل مجموعـة عن المجموعة الأخرى. المجموعة الأولى لها برزة، خلفية الأشكال مستوية، هنـالك تـنزيل بمواد أخرى، الأشكال أكثر رشاقة، تنفيذ متقن.

أما المجموعة الثانية فتتسم بطابع حركي، بديناميكية تكوينية، محيط الأشـكال بشـكل خشن، الحفر العميق للخطوط الداخلية، البداوة التعبيرية.

وما يجمعهما: غلبة الحس التشكيلي، الاهتمام بتفصيلات الرأس، النسبة ٤/١ للإنسـان، تقصير الرقبة، القطع الحاد لمحيط الأشكال.

٣ـ٣: النحت المستقل..

٣ـ٣ـ١: نصب المصطبة:

كان في يوم ما في متحف تل حلف برلين. يتألف من تمثال نسر + تاج عمـود بـوردة ثمانية الأوراق + عمود + قاعدة. نفذ النسر بأسلوب تخطيطـي، وبمبالغـة تحويريـة، وبروح تزيينية.

٣ـ٣ـ٢: التماثيل الجنائزية..

٣ـ٣ـ٢ـ١: تمثال ذات التاج:

تمثال بازلتي في متحف حلب، امرأة قصيرة وسمينة، عريضة الأكتاف، الوجه منتفخ، الوجنات عالية، الفم كبير، الذقن عدة طيات، بوضع الجلوس تمسك كوباً بيد وتضـع

الأخرى على الركبة. تبدو الكتلة هندسية مع التفاف الزوايا بادغـام الذراعيـن فـي الكتلة، تسلسل في السطوح، لا فراغ إلا عند القدمين، ارتباط الرأس بالجسـم قـوي، بتضخيم الرقبة.

٣ــ٣ــ٢ــ٢: تمثال ذات الجديلتين:

كان في متحف تل حلف ببرلين؟ امرأة تجلس على كرسي بلا مسند، رأس مثلثي، فـم مزمومة، عيون لوزية، وجنات بارزة، جبهة ضيقة، أنف واسع المنخرين، جديلتـان تتدليان على الصدر، ذرات الشعر حلزونية، العنق طويل، حاشية الثـوب مزخرفـة، شريط زخرفي من فتحة العنق حتى نهاية الكم. الكتلة هندسية بزوايا حـادة. اسـتبعاد الفراغ، إلا ما بين الجدائل والعنق، تجويف حول القدمين، السطوح صريحة، تعبـير الذهول أو الشرود. (انظر الصورة رقم ٣)

٣ــ٣ــ٢ــ٣: الزوج الملكي أو الالهي الجالس:

بازلتي، في متحف حلب. تنزيل العيون، الفم المزموم، الأنف الصغير، كتلـة واحـدة بتجويف خفيف بين الشكلين، يجلسان على مقعد واحد.

تتحكم بالعمل روح تقشفية، بالابتعاد عن التفصيلات أوزينة السطوح، سطوح هندسـية نقية، تكوين أفقي ــ شاقولي.

٣ــ٣ــ٢ــ٤: الزوج الملكي الواقف :

الرجل في متحف أضنة بتركيا والمرأة في متحف حلب. الرجل يشبه رجال البوابـة، المرأة تتشابه مع امرأة البوابة، تضخيم حجم الأيدي.

٣ــ٣ــ٣: الخلاصة التحليلية:

يبدو النحت المعماري مالكاً لعلاقة جدلية بين العضوي والهندسي، فقد حل الصانع أسلوبياً ـــ التناقض بين هذين الحدين، لصالح العمارة، من خلال امتصاص الكتلة الهندسية المادية، للشكل العضوي، سواء كان تجريبياً أو خيالياً، وهو امتصاص جعل للرخاوة العضوية في الواجهة هيكلية بنائية، وهذا ما يذكر بملاحظة المعمار «أندريه لارسا» من أن التصويرية لا تستطيع أن تكون وسائل خالصة في العمارة، لأن التعبير عن المحتوى في العمارة، لا يمكن أن يكون إلا بوسائل مادية تجريدية وتشكيلية خالصة(٣٣).

كذلك لوحظ في هذا النحت جدلية خاصة بالسطوح، والتي تتعلق بمقدار الكثافة في العناصر التي تشغل السطوح تارة، وبالعلاقة بين المليء والفارغ تارة أخرى. وقد استبانت العلاقة الأولى في أشكال أبي الهول على جانبي البوابة، كما استبانت في قواعد الأنصاب المضورة كحيوانات، أما العلاقة الثانية، فاستبانت في علاقة هذه القواعد، مع الأشكال الإنسانية التي تعلوها مرة أولى، وفي علاقة هذه الأشكال التصويرية جميعها مع الجدران المتوقعة مرة ثانية.

يضاف إلى هذا أن هذا النحت قد استخدام علاقتين جدليتين أخريتين تبدت الأولى في جدلية التشابه والاختلاف، حيث تنشأ حدود بعض المساحات من نقاط متوازية أو متقاربة، ثم تتخذ تسارعيات (Tempo) مختلفة من حيث درجة الاستقامة والتقوس كما في الإنسان ــ العقرب.

أما العلاقة الجدلية الثانية: فهي بين الأليف والغريب، وهذا ما يتجلى بوضوح في الأشكال الخيالية، حيث يلاحظ أن الأجزاء المختلفة لمخلوقات مختلفة، وموجودة في الواقع، تخضع جميعها إلى تحولات، بحيث تتناسب مع بعضها، وتتناسب مع الشكل المتخيل.

وفيما يخص اللوحات الجدارية فقد بدت لنا هذه اللوحات بتصنيفها إلى أمامية (واجهة) وخلفية (زنار محيط بأسفل الجدران)، متباينة في التاريخ، وفي الحجم، وفي التقنية، وفي درجة الإتقان التنفيذي.

وتسيطر على مجموعة النحت المستقل عدة مبادئ جمالية، فهي تخطيطية بمعنى أنها تلقي تركيزاً على الكتلة العامة للمنحوتة، فيبدو الكلي والإدراكي سمتين عبر عنهما بالميل إلى الهندسية تارة أو بالقوام الهندسي تارة أخرى كما نلاحظ أن هذه الأعمال تنحو إلى التقشفية المتطرفة، فيما يتعلق بتشغيل السطح، أو تنويع ملامسه (باستثناء تمثال النسر).

إن استبعاد التفاصيل والاهتمام بالسطوح الصريحة يجعل الضوء ينتشر على الكتلة متماسكاً، تلونه بعض الظلال الخفيفة الناتجة عن تضاريس الجسم التشريحي، دون أن يتمزق هذا الحضور الضوئي في تجاويف مغلقة أو تجاويف عميقة.

إن كل هذا يدفعنا لنلاحظ أن نحات «جوزانا» كان لديه هاجس تشكيلي مسيطر، وأن الرغبة التمثيلية كانت في المقام الثاني، لذا.. كان على التمثيل، أن يخترق التشكيل، ليثبت وجوده، وهذا ما جعل أعمال النحت مالكة لتعبيرية قوية ونادرة، مطبوعة بطابع الترقب والانتظار، أو الذهول والشرود، أو التهيؤ لمواجهة الآتي، بتكوين سكوني لا يشوش النظر، واستقرار جليل يستثير التأمل والحوار الماورائي أو الميتافيزيقي.

٤ -العقيدة والمعنى

٤-١: إشكالية المعنى..

إن آثار تل حلف «جوزانا» غير معروفة المعنى، لعدم وجود مصادر خطية تشرحها، كما بالنسبة إلى مصر وبلاد الإغريق. وكما يقول «مورتغارت» :

«ولن يستطيع أحد الوصول إلى صلب العقيدة التي تقف وراء كل إنجاز فني، إلا إذا

استطاع فهم جوهر أسباب هذا الإنجاز» [٣٤].

٤ـ٢: الشبكة والسلسلة التصويريتان (الايقونوغرافيتان)..

بنى «مورتغارت» شبكة تصويرية، بعودته إلى الآثار السومرية، ثم متصاعداً إلى الأكادية والبابلية، وحتى نهاية الإمبراطورية الآشورية، متتبعاً هذه الشبكة عند الأخمينيين والآثار الفينيقية والفريجية واليونانية والرومانية وحتى التدمرية.

وتتألف هذه الشبكة من مجموعة من الموضوعات، أسماها الموضوعات الخالدة:

١ـ شجرة الحياة بين حيوانين.

٢ـ البطل قاهر الحيوان الكاسر وحامي الحيوان الأهلي.

٣ـ الصراع بين الثور والسبع.

٤ـ مجلس الشراب.

٥ـ جوقة الحيوانات.

٦ـ صيد العربات والشمس المجنحة والأشباح المجنحة والحيوانات الخرافية[٣٥].

وهذه الموضوعات تترابط بمشاهدها، مشكلة عقيدة تموز ـ أنين الأرضية، وهي عقيدة ظلت حية، منذ السومريين، وإن بشكل باطني، تستظهر في عيد الربيع أو عيد الفصح، أو السنة الجديدة. [٣٦]

ثم تابع «مورتغارت» السلسلة التصويرية لهذه الموضوعات، من خلال ظهور الديانة الكوكبية الشمسية، عند الأكاديين والبابليين والآشوريين، التي ابتلعت ديانة تموز ـ أنين الأرضية، بمذهب توفيقي بين اله النبات وبين اله الشمس السماوي. [٣٧]

٤ـ٣: جوزانا.. العقيدة والمعنى.

إن المجال الحوري ـ الميتاني، الذي أثرت عليه الحضارة البابلية، والذي نهضت على سطحه الحضارة الآرامية، يمكن أن يكون مجال الانتقال لعناصر الشبكة التصويرية في جوزانا. [٣٨]

٤ـ٤: معنى الأعمال النحتية في جوزانا..

٤ـ٤ـ١: معنى أعمال النحت المعماري..

أنصاب البوابة باعتبار رموزها الحيوانية، يمكن أن تكون آلهة، وباعتبار انعدام قرون الألوهية، يمكن أن تكون ممثلة لملوك. [٣٩]

أما «مورتغارت» فيرى أنها ثالوث رباني، وهي الآلهة الكوكبية لهذه المملكة[٤٠]. ومع ذلك.. فإننا نميل إلى اعتبارها من الملوك المؤلهين.

أما تمثال الإنسان ـ العقرب، فهو يمثل حارس بوابة العالم الآخر حسب ملحمة جلجامش[٤١] (انظر الصورة رقم ٤). وأما السفنكس فهو يمثل وحدة القوى السماوية والأرضية.

٤ـ٤ـ٢: لوحات الواجهة الأمامية..

تمثل شعارات عالم الأعماق الغامض[٤٢]، وإذا كان د. علي أبو عساف، لا يرى فيها إلا التزيين[٤٣]، فإن إعادة تنظيمها وفق مقترح «مورتغارت» سوف يكشف عن معناها. وإذا كانت هذه المشاهد قد وجدت على الأختام الحورية، حيث فكرة صراع اله شمسي ضد قوى العالم السفلي الشيطانية، فإنها كلها، تخدم فكرة اله يقاتل ويموت، ثم يحيا من جديد.

٤ـ٤ـ٣: معنى اللوحات الخلفية..

هذه اللوحات نزعت أيام «كابارا» من أبنية أقدم من عهده، ثم وضعت مجدداً في قصر «جوزانا» ولم يراع في توزيعها إلا اللون الأسود والأبيض المحمر بالتناوب، مما يتطلب إعادة ترتيبها وبالتالي.. فهي قد خضعت لأهداف مشابهة للأمامية.

٤ـ٤ـ٤: معنى النحت المستقل..

- إن نصب المصطبة، ما هو إلا شعار لمجموعة التكوين المعماري، فالطائر كنسر، يمكن أن يكون رمزاً شمسياً[٤٤]، أما التاج بوريقاته الثمانية، فهو رمز أرضي.
- التماثيل الجنائزية التي تحمل أكواباً، لها علاقة بمجالس الشراب. وربما كانت مدافن هذه التماثيل تزار، فتجري عندها طقوس ولائمية، كان الميت يشارك فيها رمزياً، من خلال تمثاله، بمناسبة عيد رأس السنة.
- أما المجموعة الثانية، فربما كانت اختزالاً لوضعية الشراب، أو تمثيلاً للقبض والبسط في الأيدي، كعلامة من علامات الدورة السنوية أو الحياتية.
- أما الزوج بوضعية الوقوف، فربما كان تماثيل ملوك مؤلهين، كانت تقدم لهم عبادة خاصة من قبل الأبناء، والأحفاد، إما لهم، باعتبار أنهم تألهوا، أو بالنيابة عنهم وأمام تمثالهم مكرسة للإله المعبود. ويعتقد «دوبون سومر» «إن الصلاة التي يمارسها الخلف، تقود روح الفقيد بيسر إلى العالم الآخر، وتحقق الوصول إلى السعادة الأبدية».[٤٥]

٤ـ٥: خلاصة البحث عن المعنى..

إن هذا النحت يدور في فلك ديانة شمسية، ابتلعت ديانة أرضية، تمضي في صيرورتها منذ السومريين عبر الاكاديين والبابليين، حتى الحوريين والميتانيين، لتصل إلى آراميي «جوزانا»، فعبروا عن هذه العقيدة باللغة المصورة النحتية لهذه المملكة.

لكن هناك مفاجآت، فالنحت الكبير النصبي، لم تعرف جذوره[٤٦]، والنحت الجنـائزي، لم يتجاوز الدائرة الآرامية[٤٧]، وظلت موضوعات اللوحات الجدارية وحدها، هي ذات العلاقة بالتراث الحضاري الرافدي.

ولقد يبدو النحت الجداري الآشوري متشابهاً في موضوعاته مع نحت «جوزانا» لكـن الفرق كبير، لأن النحت الآشوري أصبح سرداً مصوراً تاريخياً[٤٨]، في حين أن نحت «جوزانا» على علاقة كبيرة، بعقيدة الآخرة، وصراع الحياة والموت، والإلـه الـذي يموت ثم يبعث من جديد.

٤ـ٦: اقتراح رؤية..

إن اعتماد نتائج الدراسات الانتروبولوجية (علم الإناسة) عـن المجتمعـات البدائيـة والقديمة والتقليدية، تدفع بنا لوضع الأعمال النحتية في «جوزانـا» ضمـن إطارهـا العمراني والمعماري، وضمن مجالها الشبكي العلائقـي، وبمصطلـح آخـر ضمـن «كليتها» أي كوسموجونية «جوزانا» وكيفية تصور قاطني «جوزانا» للعالم.

ولئن كنا على المستوى اللغوي، نجد نوعاً من التماهي بين معنى كلمـة الآراميـين، وبين هيلاني (أو ايلاني) وبين الإله العالي[٤٩]، فإننا نلاحظ نوعاً من المماثلة أيضـاً بين بوابة المدينة وبوابة القصر، وفق الدراسات الأنتروبولوجيـة[٥٠]، ممـا يجعلنـا نتساءل: أين تماثيل بوابة المدينة؟..

أما وجود تمثال الإنسان ـــ العقرب في بوابة مدخل الحي الملكي، ومقارنتـه مـع مقطع من ملحمة «جلجامش»[٥١]، فإن ذلك سوف يقودنا إلى تصور قصر «جوزانـا» جبلاً ومحوراً كونياً، وبالتالي.. هو على علاقة بالعـالي، وبالألوهيـة، وإمكانيـة أن يتماهى الملك بالاله، أو يكون نائبه.

إن الرؤية الانتروبولوجية، تتيح لنا أن نرى في أجزاء القصر برنامجاً طقسياً، يخـدم

وظيفة نفسية، وبالتالي.. فإن الأعمال النحتية هي أجزاء عالية النبرة في فقرات هذا البرنامج. وهكذا يظل المعبد ـــ القصر كتاباً معمارياً مفتوحاً، كتاب حكمة وتأمل ودين، سُطِّرَ بلغة تصويرية، فإن كنا لا نقلب صفحاته، فإننا نقلّب أنظارنا في أرجائه، ونستمع إليه بكينونتنا وحواسنا وجسدنا، فنتلامس مع الجليل والمهيب.

٥ - استطيقا المقدس

٥ـ١: استطيقا المقدس وسعتها العالمية..

باعتبار أن نحت «جوزانا» قد خضع لتجربة دينية، أو لخبرة المقدس، فلابدّ من وضعه تحت بند الفن المقدس.

والفن المقدس باعتبار هدفه، الذي يتحدد بالكشف أو التواصل مع عالم الآلهة والأموات، وباعتبار وظيفته النفسية أو السحرية، التي تهيء للدخول إلى هذا العالم، وباعتبار مرجعيته إلى الخيالي والأبدي(٥٢)، فإنه يتمايز عن كل فن يجعل مرجعيته الواقع، أو المثل الأعلى الانتقائي، كما يتمايز عن كل فن يوجهه مفهوم المحاكاة ومفهوم الجمال، وبالتالي.. فهو يتمايز عن النحت اليوناني، وعن جزء كبير من تاريخ الفن الأوروبي، الذي يبدأ من عصر النهضة.

لكن الفن المقدس يشمل فنوناً حضارية كثيرة، فقد وجد في سومر ومصر، والمكسيك والهند، في الأسلبة البيزنطية المصرية، وفي الفن المسيحي الرومي(٥٣)، وهذا ما يدفعنا لملاحظة أن التقاء هذه الفنون ببعض النقاط، لا يمنع من ان تختلف بنقاط أخرى.

٥ـ٢: استطيقا المقدس الرافدي ـــ السوري.

لما كنا اعتمدنا في اكتشاف المعنى في «جوزانا» على شبكة، وسلسلة تصويريتين رافديتين، فليس هناك ما يمنع من الاستضاءة بمفاهيم الفن المقدس في سومر واكاد

وماري، مستندين إلى دراسة «اندريه مالرو» [٥٤] في هذا المجال وهي:

١ـ التعبير بالشكل الإنساني عما هو غير إنساني .

٢ـ إن مرجعية المقدس هي الخيالي .

٣ـ موضوع هذا الفن اكتشاف الشكل الذي يحقق اتحاد الناس بالآلهة .

٤ـ تأبيد عملية الصلاة .

٥ـ تمييز الاختزال عن التحويل الشكلي .

٦ـ يتم التحويل الشكلي باستخدام التخطيطية .

٧ـ الفن الرافدي يرفض الإيهام عبر تخطيطيته وعفويته وحريته .

٥ـ٣: المبادئ الاستطيقية في نحت «جوزانا»..

١ـ الهندسية وهي حلّ توفيقي بين العنصر التصويري من جهة، وبين العمارة من جهة أخرى، فبدا جلياً في النحت المعماري بشكل عام، كما بدا في أجزاء من الكتل النحتية المستقلة حيناً، أو هيكلاً داخلياً في أجزاء منها حيناً آخر، وكل هذه العمليات توضع تحت بند جدلية العضوي والهندسي.

٢ـ التحويل الشكلي وهو عملية تخضع الشكل لتحولات تجعله يتناسب مع طبيعة المادة من جهة، ويتطور عن الشكل النموذج من جهة ثانية، وذلك عبر عمليتين إجرائيتين، الأولى هي اختزال العناصر الثانوية والاهتمام بالأساسي والكلي، والثانية هي المبالغة بنسب العناصر الأخرى، وفق علاقات غير مألوفة.

٣ـ الميل لسيطرة الكتلة أو الحجم على حساب الفراغ، باعتبار الثنائية الأولية والعنصرية بينهما في لغة النحت، ويتجلى هذا في إحاطة الفراغ بالكتلة، وعدم تداخله فيها إلا بمقدار ضئيل، يضاف إلى ذلك المحافظة على هيكلية شاقولية

ـــ أفقية، دون استطالات في الفراغ المحيط.

٤ــ الوضع السكوني في الأشكال النتحية على مستوى الحركة الخارجية، أما في اللوحات الجدارية فتظهر الحركة الخارجية.

٥ــ خضوع نحت «جوزانا» للسطوح المتسلسلة في التماثيل الجنائزية وأنصاب البوابة، والقطع الحاد في اللوحات الجدارية.

٦ــ تسلسل الضوء في النحت المستقل، مما يجعله يحقق حركة داخلية على مستوى السطوح والكتل، والضوء المتقطع في اللوحات الجدارية مما يبرز الشكل.

٧ــ الاهتمام بالرأس وجزئياته العامة، إنساناً أو حيواناً أو شكلاً خيالياً مع إظهار الطابع التحديقي الممزوج بالغضب والعدوانية في الحيوان، والتفرس والترقب والتجهم في الإنسان.

٨ــ التقشف في تشغيل السطوح في التماثيل الجنائزية وأشخاص البوابة، وتشغيل السطوح وبكثافة في الإنسان ـــ العقرب، والنسر النصبي، مما يطرح جدليات الكثافة بين السطوح، وفي بعض الأحيان جدلية التشابه والاختلاف (الإنسان ـــ العقرب).

٩ــ ابتداع أشكال أو أوضاع خيالية (الإنسان ـــ العقرب، السفنكس، جوقة الحيوانات) وهو ما يعبّر عن جدلية الأليف والغريب.

١٠ــ الحفاظ على هيكلية الخامة الحجرية وشكلها الأساسي.

١١ــ استخدام الذرة الحلزونية أو المربعة في تمثيل الشعر وغلبة الذرة الحلزونية في الاستخدام.

١٢ــ الميل إلى الخشن والغريب والمتنافر (غروتسك) وفيما يخص الإنسان قصر نسبته ١/٣,٥ ــ ١/٥، والميل لاختصار الرقبة، والميل لتعريض الأكتاف.

١٣ـ العفوية التنفيذية، والبداوة التعبيرية، وخاصة في اللوحات الجدارية الصغيرة.

٥ـ٤: مقارنة بين النحت الرافدي، ونحت جوزانا..

	الرافدي	جوزانا
١ـ الخيالي	دمى صلصالية + أختام اسطوانية + لوحات نذرية (٥٥)	اللوحات الصغيرة + السفنكس + الإنسان ـ العقرب
٢ـ عدم تحرير الجسم من كتلة المادة	أسلوب عصر الانتقال الثاني وعصر اور ٢٥٥٠ـ٢٣٥٠ ق.م (٥٦)	جملة الأعمال النحتية
٣ـ دعم التمثال من خلف	٢٧٠٠ـ٢٥٥٠ ق.م + عصر ميزيليم (٥٧)	انصاب البوابة +التماثيل الجنائزية
٤ـ تحويل الطبيعي إلى هندسي	عصر ميزيليم (مع تحرير أعضاء الجسم) (٥٨)	كل النحت وخاصة التماثيل في وضعية الجلوس (مع عدم التحرير)
٥ـ غلاظة تقاسيم الوجه - رأس بلا رقبة قصر الأجسام	عصر اور الأول(٥٩)	كل النحت

كما يتمايز فن النحت في «جوزانا» عن النحت الرافدي، في أوضاع التماثيل فهي شاقولية أفقية، في حين نلاحظ أن النحت الرافدي وعبر فتراته المتعاقبة يستخدم تشابك الأيدي أمام الصدر، أو تصالب الأقدام.

أما من حيث التعبير، فإن تعبير النحت الرافدي ينوس بين الخشوع والرضى، بين الهدوء والسكينة، بين التضرع واللهفة، مفعم بالروحانية، في حين نلاحظ في نحت «جوزانا» التكوينات النحتية الطاغية بصلابتها وثقلها وأرضيتها، وقوة حضورها، تعبيرها ينوس بين التحديق والدهشة، أو الترقب والانتظار، أو التجهم والذهول.

ويبدو لنا أن النحت في «جوزانا»، يحاول أن يستنطق الحجر التعبير غير المألوف، والتعبير الذي يهمش مفهومنا عن الجمال والقبح، حيث يستثير فينا الإحساس بالقبح المهيب

أو مهابة القبح تارة وينقب من خلال العيون المحدقة في ظلمات أعماقنا لإثارة شعور المهول والمخيف تارة أخرى، أو يتركنا نغرق في التأمل المشوب بالقلق والرهبة، ونحن نطرق أبواب ألغازه، وأسراره المغلقة.

٦ – محاولة تفسيرية

٦ــ٠: استهلال منهجي..

إن عدم وجود وثائق تفسيرية، يقود إلى الظن والتخمين، وكي يكون التخمين أكثر مقاربة من الاحتمال، فقد أخذنا منهج المقاربات والمقارنات مع بعض الفنون الأخرى، وفي مجالات حضارية أخرى، معتمدين نتائج بعض الدراسات.

٦ــ١: الوظيفة النفسية..

لما كانت الفنون المقدسة فنوناً وظيفية للنفس[٦٠]، كما يقول «مالرو» فإن هذا يعني ان الوظيفة الجمالية ليست نقية، بل متضامنة مع الوظيفة النفسية، إن لم تكن الثانية مسيطرة.

إن الوظيفة النفسية تؤسس لعالم آخر، مختلف عن العالم الطبيعي المعاش، هو عالم الآلهة والأموات، الذي يعتمد الإنسان في تأسيسه على الخيال، ليبتدع المغاير والمختلف، ويبدو ان ما من وسيلة لاستحضار هذا العالم، أو العيش فيه، أو الانتقال إليه، أو التواصل معه، إلا من خلال الممارسات التي نسميها فناً، ولكن هذا الفن ليس إلا طرفاً في علاقة ثنائية مع الطبيعة من جهة اولى، اما العلاقة الثانية فهي علاقة الطبيعة مع المقدس من جهة ثانية.

٦ــ٢: علاقة الطبيعة بالمقدس وبالفن..

تتبدى العلاقة الأولى من خلال تجليات المقدس وهو ما يشكل تاريخ الأديان، ويحدث

التجلي في الحجر أو الشجر أو الماء، في الحيوان أو الإنسان، أو في الطبيعة كلـــها. (٦١)

أما العلاقة الثانية، فهي ناتجة من أن مواد وعناصر هذه الطبيعة وباعتبارهـــا مالكـــة لقوى خاصة وخفية(٦٢)، سوف تنتقل إلى الفن من خلال استخدامها في ممارساته.

٦ـ٣: قطبية الحجر والشجر..

الحجر رمز الحياة الساكنة، والشجر رمز الحياة الديناميكية، الأول يملك قوى الثبـــات والديمومة والقساوة، والثاني يخضع لدورة الولادة والنمو والموت، ولكنه يملـــك قـــوة التجدد(٦٣). وتتجلى هذه القطبية باستخدام جذع الشجرة كرمز لعشتار إلى جانب المذبح من الحجر الخام لدى الآموريين.(٦٤)

إن صيرورة الحياة النباتية، يقابلها نمط آخر من الوجود يمثله الحجر، يقول مارســـيا إلياد «إن تجلي المقدس في الحجر أن هو إلا تجل وجودي بامتياز، فالحجر قبل كـــل شيء كائن يبقى دائماً هو نفسه، لا يتغير، يستوقف الإنسان بما فيه من عـــدم قابليـــة للنقص ومن مطلق، يكشف للإنسان ما هو الوجود المطلق خارج الزمان المعصوم عن الصيرورة».(٦٥)

٦ـ٤: علاقة الإنسان بالحجر..

من خلال استخدامات الإنسان للحجارة كأحجار قبور ونصب لرجال مشـــــهورين، أو للدلالة على اله، أو بوضعها على قبور القديسين، يلاحظ «يونغ»: «إن الكائن البشري يختلف كل الاختلاف عن الحجر، إلا ان اللب الصميمي للإنســـان يشـــابهه بأســـلوب غريب وخاص للغاية... يرمز الحجر لما يمكن ان يعد التجربة الأبســـط والأعمـــق، تجربة ذلك الشيء الأبدي الخالد».(٦٦)

٦ـ٥: ثلاث لحظات بين الإنسان والحجر..

ويحلل الباحث الياباني «اوتو اوكاموتو» علاقة الإنسان بالحجر فيراها ثلاث لحظات: الأولى مرحلة المواجهة والمقارنة ٢ـ مرحلة الفعل بتجميع الحجارة وفق نظام ٣ـ مرحلة انتهاء الفعل، الذي ينتج صدى صاخب وعنيف، يرمز لتمزق الإنسان. (٦٧)

٦ـ٦: التمييز بين الحجر الخام وبين الحجر المشغول..

إن تجربة الإنسان مع الحجر الخام قد تعود إلى العصر الميغاليثي، حيث ظهرت الدولمن، والمانهير، والكروملخ في أوروبا(٦٨)، والتي يمكن أن تتقارب مع ما يسمى باللانجا عند الهنود، والبيتيل عند أسلاف العرب(٦٩)، والحدائق الصخرية الزونية للبوذية(٧٠)، وأنصاب الاينوك شوك في كندا(٧١).

إن هذه الأحجار كانت مسكناً للآلهة، وللأسلاف، وللأبطال الحامية، ولقوى الإخصاب، وهي جاذبات ومثبتات للقوى الروحية غير المنظورة، لذا كانت هي بالذات موضع العبادة(٧٢). يقول «اوكاموتو» أن أبا الهول لم يكن مقدساً إلا لأن صخرته كانت بالأساس مقدسة. (٧٣)

إن استخدام الحجارة الخام من قبل المجتمعات البدائية كحجارة قبور، أو حجارة حدود، أو مقرات سكن الهي، هي شكل أولى من أشكال النحت ـــ حسب يونغ ـــ بحيث تكون له قدرة تعبيرية اكثر مما تمنحه المصادفة أو الطبيعة. (٧٤)

لكن.. ربما كان أميز استخدام لتكثيف القدرة التعبيرية للحجر، ولتمييزه عن الطبيعة هي نصبه شاقولياً (قصة يعقوب التوراتية) (٧٥). فهو يتجه إلى السماء، وفق بعض الاعتقادات أنه نزل من السماء. كذلك فإن هذا الاستخدام للحجر، ربما كان مسبوقاً بعملية استشعار لنفس الحجر أو روح الحجر، من خلال تقاربه من شكل الإنسان أو الحيوان كلياً أو جزئياً(٧٦). إن الاختيار فعل إنساني، ولكن الشاقولية هي بداية تدخل

الإنسان في قدسية الطبيعة، وقد نهت عبادات الشعوب أسلاف العرب عن انتهاكها(٧٧)، ذلك أن تدخل الإنسان يفقد الحجر سعة الإمكان والحرية، ويدخلـــه عـــالم العبوديـــة والظلمات.

٦ـ٧: العبور إلى المقدس..

إن شي الطين، وصهر المعادن، ونحت الحجارة، يشكل كل منـــها عمليـــة تحويليـــة، وعملية مشاركة في سر الخلق. لذا.. فإن التدخل الإنساني وقيامه بها، كـــان يـــترافق بالخوف والتوجس، مما جعله يلجأ إلى طلب الأذن والقبول من قبل قوى المادة، تمثـــل ذلك بالشعائر والطقوس والتعازيم والسلوك الخاص. إن بناء فرن لصب المعـــادن أو عملية الصب عند الآشوريين، كانت تتطلب السرية والطهارة والصـــلاة والتضحيـــة وإشعال البخور(٧٨). والانتهاء من صنع تمثال، كان يتطلب طقس غسيل الفـــم، الـــذي يتشابه مع طقس مصري لمنح الحياة لتمثال. (٧٩)

٦ـ٨: قوى الحجارة..

وتملك الحجارة خصائص عديدة، نظر إليها القدامى، على أنها تمثـــل قـــوى المـــادة، وتتعلق هذه القوى بالصلابة والقساوة، باللون وبالشكل، بالندرة، بـــالتركيب الـــذري، بقابلية الصقل، بكيفية استقبالها للضوء (اختيار جوديا لحجر الديوريت، حجر ســـبيل الأسود المخروطي، حجر اللات المكعب الأبيض).

٦ـ٩: السلم التعبيري للمواد..

إن مجموعة الخصائص الفيزيائية لكل مواد النحت، يمكن ان تشكل ســـلماً تعبيريـــاً: الصلصال ينتج فناً أكثر حرية، تأثير البرونز على نسب الإنسان في عصر مـــيزيليم، والمقارنة بين تماثيل جوديا وتماثيل ماري من الديوريت مـــع تمـــاثيل جوزانـــا مـــن البازلت، تشير إلى تعبيرين متميزين: الأول على علاقة بالرهافة والنعومة واللطـــف،

والثاني على علاقة بالبداوة والخشونة والصراحة الفجّة.

٦ـ١٠: المرجعية الهندسية..

ما هو دور الهندسية في النحت المقدس؟..

يقول «مالرو» أنها «القاضي السري الذي يجبر النحاتين على حصر الرسم أو الحجم فيه، حتى تستطيع الأشكال المبتدعة أن تشارك في قوته الخفية».[٨٠]

ويلاحظ «هربرت ريد» و«رودلف ارنهايم» وجود اتجاهين في تاريخ الفن: هندسي وعضوي،[٨١] والأول يتناسب مع مفهوم قوى الظواهر الفيزيائية، الذي يرى هذه القوى كجوهر غير منظور في الأشياء وهو الغالب في الحضارات غير الأوروبية، والثاني يتناسب مع المفهوم الأوروبي بعد عصر النهضة الذي يرى هذه القوى بمظاهر وسلوك الأشياء المادية.[٨٢]

أما علم نفس الأعماق فيرى في الهندسة أداة بيولوجية أساسية[٨٣]، لكن علم النفس اليونغي، يراها صوراً أولية تنتج عما يسميه الأنماط الأولية التي هي عضو نفسي.[٨٤]

٦ـ١١: الكلي ــ الألهي..

إذا كان الشكل الهندسي يقوم بوظيفة نفسية ــ إدراكية، فإن استبعاد التفاصيل، له علاقة بمفهوم قوى الأشياء أيضاً.

إن البحث عن الجوهر، وعن المطلق، يتطلب استبعاد الوقتي والعرضي والتمثيل المفصل للأشياء. إن خصائص الحجر البازلتي الفيزيائية تتضامن، وبنجاح كبير مع الميل إلى الهندسي، والى الكلي، وهو ما ينسجم مع فكرة الإلهي والمقدس والتعبير عنهما.

يقول «تارو أوكاموتو» واصفاً علاقة المقدس بنصب الأينوك شوك:

«يبدو أن هذه الكتلة لم تتخذ الشكل الإنساني، إلا لتلقي الإنسان في العدم، وهـذا هـو المقدس المصعّد للإنسان، الوجود الخفي الذي وبـذات الحركـة يرمـي بعنـف مـا يجذبه»(٨٥)

ثم يماهي «أوكاموتو» هذا المقدس بالإلهي قائلاً:

«الشيء الذي يرمي، في ذات الوقت الذي يجذب، ها هو الإلهي بدقة»(٨٦). وهو مـا يقوله «أرنهايم»، وبتعبير أكثر وضوحاً، من أن الإلهي «الذي يفلت مـن احتمـالات الأزمنة، يتطلب العمومية للتمثيل التجريدي الفائق، وهذا صحيح، خاصة لأجل الحقب الثقافية، حيث عالم الإدراك الحسي، ليس مقبولاً، إلا كوسيلة تقدم للحواس توضيحـاً للأفكار»(٨٧).

المصادر والحواشي

(١) فراس السواح ــ آرام دمشق وإسرائيل ــ دار علاء الدين ــ دمشق ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٩٥. ص ٢٧.

د. علي أبو عساف ــ الآراميون ــ فنون الممالك القديمة في سورية. دار شمال ــ دمشق ــ ١٩٩٣. ص ٦٤.

(٢) ارنولد توينبي ــ تاريخ البشرية. ترجمة الدكتور نقولا زيادة ــ الأهلية للنشر والتوزيع ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٥. الجزء الأول ــ ص ١٦٥ــ١٦٧.

فراس السواح ــ آرام دمشق وإسرائيل ــ ص ٢١٦ــ٢١٧.

د. علي أبو عساف ــ الآراميون ــ دار أماني ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٨٨. ص ٥٩.

(٣) آرنست بابلون ــ الآثار الشرقية ــ ترجمة مارون عيسى الخوري ــ دار جروس، ودار حكمت شريف ــ طرابلس ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٨٧. ص (ف) من مقدمة المترجم.

(٤) الشيخ نسيب وهبة الخازن ــ من الساميين إلى العرب ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ ١٩٦٢ ــ ص ٩٤.

د. علي أبو عساف ــ الآراميون ــ ص ١٢ــ١٨.

(٥) د. علي ابو عساف ــ الآراميون ــ ص ١١ــ١٢

عبد الهادي نصري ــ شمس آرام شمس العرب ــ اللجنة السريانية المشتركة بحلب ــ ١٩٨٦. ص ١٧.

سبتينوموسكاتي ــ الحضارات السامية القديمة ــ ترجمة د. السيد يعقوب بكر ــ دار الرقي ــ بيروت ١٩٨٦. ص ١٧٦.

(٦) الشيخ نسيب وهبة الخازن ــ من الساميين إلى العرب ــ ص ١٠٠ــ١٠١

(٧) موسكاتي ــ الحضارات السامية القديمة ص ١٧٨

(٨) المصدر السابق ــ ص ١٩٥

(9) PARROT. A- ASSUR : Col. **L'univers des Formes** - Gallimard. 1961. P. 83

(10) BITTEL. K: Les Hitittes. Traduit Fran□ois PONCET. Col. **L'univers des formes.** Gallimard. 1976. P. 238.

(11) PARROT. A - ASSUR - P. 19. P. 124

(١٢) انطون مورتغارت ـــ **فنون سومر وأكاد** ـــ ترجمة محمد وحيد خياطة ـــ العربي للطباعة والنشر ـــ دمشق ـــ الطبعة الأولى ـــ ١٩٨٨ تموز ـــ ترجمة د. توفيق سليمان ـــ ص ٢٢٦.

(13) DURY. C. J.: **Les peuples de l'Ancien Orient.** Traduit SONIA de la Brélie - Ed. Rencontre - Lausanne 1970. . P. 186

(14) PAPADOPOULO. A.: L'Islam et L'art musulman. Paris. mazenod - 1976. P.103

Esthétique de l'Art Musulman. ANNALES no. 3 . mai - juin 1973. P. 692-696.

(15) PAPADOPOULO : L'Islam. P. 103 .

(16) PAPADOPOULO : **ESTHÉTIQUE** ..

(17) FOCILLON. H. H.: **Vie des formes** - 6^{em} Ed. P.U.F. 1970. P. 35.39.

(١٨) **المصدر السابق**، ص ٣

(١٩) د. علي أبو عساف ـــ **الآراميون** ـــ ص ١٨٤.

(٢٠) **المصدر السابق** ـــ ص ١٩١

(21) BITTEL : **LES HITTITES** - P. 240

(٢٢) د. علي أبو عساف ـــ **الآراميون** ـــ ص ١٨٦

(23) BITTEL : **LES HITTITES**. P. 240

(٢٤) أنطون مورتغارت: انطون: تموز ـــ **عقيدة الخلود والتقمص في فن الشرق القديم**. تعريب وتحقيق د. توفيق سليمان. دار المجد للنشر ـــ طبعة أولى ـــ ١٩٨٥. حاشية المترجم ـــ رقم ٢٥٨ ـــ ص ٢٢٩.

(25) PARROT : **ASSUR** . P . 223

(٢٦) د. علي أبو عساف : **الآراميون** ـــ ص ١٩٥ ـــ ١٩٦ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ١٩٥

(٢٨) الآثار السورية ــ مجموعة أبحاث أشرف عليها الدكتور عفيف بهنسي ض ١٦٨ ــ ١٦٩.

(٢٩) المصدر السابق ص ١٦٧.

أبوعساف الآراميون ص ٢١٠

(٣٠) د. علي أبو عساف ــ الآراميون ص ٢١٣ ــ ٢١٤

BITTEL : **LES HITTITES** . P . 240 - 241

(٣١) انطون مورتغارت ــ تموز ــ ص ٢٣٣

(٣٢) د. علي أبو عساف ــ فنون الممالك القديمة ــ ص ١٥٨

(33) LURCAT L. A.: **Formes, compositions et lois d'harmonie, éléments d'une seience de l'esthétique architecturale** Ed. Vincent. Freal et Cie - Paris - MCMLIII P 73.

(٣٤) انطون مورتغارت ــ تموز ــ ص ٥٩ ــ ٦٠.

(٣٥) المصدر السابق ص ٩٤ ــ وص ١١٣، وص ١٣٣، وص ١٧٧ ــ ١٧٩.

(٣٦) المصدر السابق ص ١١٩ ــ ١٢٠.

(٣٧) المصدر السابق ــ ٩٤ ــ ٩٨، ص ١٩٧، ص ٢٠٣، ص ٢٦١.

(٣٨) المصدر السابق ص ٢٣٠.

(٣٩) د. علي ابو عساف ــ الآراميون ــ ص ٢٠٧.

(٤٠) مورتغارت ــ تموز ــ ص ٢٣١، وص ٢٣٣.

(٤١) المصدر السابق ــ ص ٢٦٣.

فراس السواح: كنوز الأعماق ــ قراءة في ملحمة جلقامش، سومر للدراسات والنشر ــ قبرص ــ الطبعة الأولى ١٩٨٧. ص ١٧٨ ــ ١٧٩.

(٤٢) مورتغارت ــ تموز ــ ص ٢٣٣.

(٤٣) د. علي ابو عساف ــ فنون الممالك القديمة ــ ص ١٥٨ وص ١٦١

الآراميون ص ٢٠٧ ، وص ٢٠٩

(44) PARROT - **ASSUR** - P. 96

(٤٥) أ. دوبون سومر ــ **الآراميون** ترجمة ناظم الجندي ــ دار الأمــــاني ــ طرطــوس ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٨٨. ص١٩٢.

(٤٦) أنطون مورتغارت ــ **تموز** ــ ص ٢٢٥

(٤٧) د. علي ابو عساف ــ **فنون الممالك القديمة** ــ ص ١٦٣

(٤٨) مورتغارت ــ **تموز** ــ ص ٢٨٠

(٤٩) جورجي كنعان ــ **مفهوم الألوهة في الذهن العربي القديم**. بيسان للنشر والتوزيــع ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٩٦. ص ١٧٧.

مارسيا الياد : **أسطورة العود الأبدي** ــ ترجمة نهاد خياطة، دار طــلاس ــ الطبعــة الأولى ــ ١٩٨٧. ص١٣٤.

(٥٠) مارسيا الياد ــ **العود الأبدي** ص ٢٢ - ٣١ ، وص ٤٢ ، وص ١٦٨.

المقدس والدنيوي: ترجمة نهاد خياطة ــ العربي للطباعة والنشر ــ دمشــق ١٩٨٧. ص ٤٢، وص ١٦٨.

(٥١) فراس السواح ــ **كنوز الأعماق** ــــ ص ١٧٨ ــ ١٧٩.

(52) PARROT. A : SUMER - **PRÉFACE D'ANDRÉ MALRAUX** P. 30 , 47, 17.

(53) PARROT : SUMER PRÉF.P. 17 - 20

(٥٤) **المصدر السابق**، ص ١١ــ٤١.

(٥٥) انطون مورتغارت ــ **فنون سومر وأكاد** ص ٤٠، ٤٦ ــ ٤٧، ٩٤، ٩٨

(٥٦) **المصدر السابق** ــ ص ١٢٨

(٥٧) **المصدر السابق** ــ ص ١٠٧

(٥٨) **المصدر السابق** ــ ص ١٢٤

(٥٩) **المصدر السابق** ــ ص ١٢٨

(60) PAPROT . A : SUMER - **PRÉFA. MALRAUX** - P. 47

(٦١) مارسيا الياد ــــ **المقدس والدنيوي** ــ ص ١٣

(62) ECO, U. **Le Signe** - Adapté de l'italien Par JEAN MARIE KLINKENBERG - ed. Labor - Bruxelle 1988. P. 189 - 192

التيفاشي: احمد بن يوسف، هذبه محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور) ـ حققه الدكتور احسان عباس ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٨٠. **سرور النفس بمدارك الحواس الخمس**، ص ١٧٤ ـ ١٩٠.

(٦٣) **DICT. DES SYMBOLES** - 4e V. P. 11-12.

(٦٤) فيليب حتي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** ـ ترجمة د. جورج حداد ـ عبد الكريم رافق. دار الثقافة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٢. ص ٨٣ ـ ٨٤، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

فراس السواح : **لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**. سومر للدراسات والنشر، نيقوسيا، الطبعة الأولى ١٩٨٥. ص ٣٠٢.

(٦٥) مارسيا الياد: **المقدس والدنيوي** ـ ص ١٤٧.

(٦٦) يونغ: **الإنسان ورموزه ، سيكولوجيا العقل الباطن**. ترجمة عبد الكريم ناصيف ـ دار منارات ـ ١٩٨٧. ص٢٠٦.

(67) OKAMOTO : **L'esthétique et le sacré** - Seghers. Paris 1976. P. 36.

(٦٨) يونغ: **الإنسان ورموزه**، ص ٢٠٦.

عفيف بهنسي: **تاريخ الفن في العالم** ـ مديرية الكتب الجامعية ـ مطبعة الشركة العربية ـ دمشق ١٩٦٦. ص ٢٥.

(69) Dictionnaire des symboles Jean Chevalier Alain gerbant - réalisation Marian Berlewi
Seghers et Jupiter 9' éd . 4v. p Paris 1974. 3e V. P. 14.

(٧٠) يونغ: **الإنسان ورموزه**، ص ٢٠٦.

(71) OKAMOTO: **L'ESTHÉTIQUE** ... P. 19-29.

(72) **Dict . Des symboles** 4e v. P. 13:9.

(73) OKAMOTO: L'ESTHÉ. P.43.

(٧٤) يونغ: **الإنسان ورموزه**، ص ٢٠٥.

(٧٥) **الكتاب المقدس**: دار المشرق ـ ش.م.م ـ بيروت ١٩٨٦. تكوين : ٢٨ : ١٠-٢٠.

(٧٦) يونغ: **الإنسان ورموزه**، ص ٢٠٥.

(٧٧) فيليب حتي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** ص ٨٣ـ٨٤ ، ص ١٢٩ـ١٣٠.

(78) Hauser, c.: **La fonte d'art - col. Les métiers d'art** - Jonvent, Genéve 1972. P. 12.

(٧٩) هوك: **ديانة بابل وآشور**. ترجمة نهاد خياطة ـ العربي للطباعة والنشر ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٧. ص ١٩٠ - ١٩٤.

(80) PARROT: SUMER - PRÉF. **MALRAUX**, P. 42

(81) Arnheim, R. : **Vers une psychologie de l'art**. Traduit de l'anglais par Nina Godneff. Sghero - Paris. 1973 p. 256

هربرت ريد: معنى الفن، ترجمة سامي خشبة ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٨. ص٩٠ ـ ٩١.

(82) Arnheim. R: **Vers une psycho**. P. 51-52

(٨٣) **المصدر السابق** ـ ص ٤٧

(٨٤) يولاند جاكوب ـ **علم النفس اليونغي** ، ترجمة: ندرة اليازجي ـ الأهالي ـ دمشق ـ ١٩٩٣. ص ٥٦ ـ ٦٨.

(85) Okamoto: **L'esthétique**... P. 27

(٨٦) **المصدر السابق** ، ص ٣٥.

(87) Arnheim: **Vers** ..... P. 52.

الجيش في الأندلس
زمن الإمارة والخلافة الأموية الثانية

الدكتور صالح فياض أبو دياك

جامعة اليرموك

ملخص:

تعرّض البحث إلى نوعية الحروب، وقسّمها -حسب رأي ابن خلدون- إلى أربعة أصناف، الصنفان الأخيران هما مدار البحث، وأشار البحث إلى جغرافية الأندلس وما بها من تعقيدات، وإلى العناصر والخطط المكوّنة للجيش، وتناول بالذكر أسماء العناصر وأسلحتها، وخططهم، مبيّناً شدّة ولائهم لسادتهم من الأمراء والخلفاء.

ونوّه البحث بالمنافسة بين الفرق وما نتج عنها من آثار سلبية، الأمر الذي دعا الحاجب المنصور أن يستعرض عنها بالعناصر.

ويتعرّض البحث إلى الاستعراض مبيّناً أهميته قبل القتال، وإلى العطاء وما يحدثه في النفوس ومن حوافز في الميدان. وأشار البحث إلى الاستعداد التام لتجهيز الحملات وما يعقبها من أعمال على إنجاحها، وإلى العادات التي استُخْدِمَتْ في الجيش باصطحاب النساء إلى المعركة، ودحض آراء المستشرقين التي لا تتم إلا عن تفكيرهم الذاتي الخاص بهم.

بالرجوع إلى المقدمة[١] نجد ابن خلدون يصنّف الحروب فيها إلى أربعة أصناف، اثنان منها عدوان وانتقام والاثنان الآخران: أحدهما غضب الله والآخر صيانة الدولة من الفتن والاضطرابات.

وهذان الأخيران هما مدار البحث الذي تناول طرق القتال وأنواعه، وما يتّصل به من إعداد الجيوش وتدريبها، ورفع الروح المعنوية لها، ونظراً لأهمية هذا الموضوع، وقلة الباحثين فيه نسبياً، إذا قيسوا بالباحثين في هذا المضمار بالمشرق، يتبيّن لنا الدافع للبحث فيه، لمعرفة ما طرأ عليه من تعديلات، وما أضيف إليه من عناصر أثّرت في بنيته العسكرية، والتي سميت بأسماء مختلفة حسب إبدائها العسكري. وطالما أن البحث مقصور على الأندلس، فلا بدّ قبل الخوض فيه من التعريف بها، وبيان حدودها، والمسميات التي تسمت بها، مثل:

إيبرية ـ إسبانية، الأندلس وهو الاسم المسماة به عند قدوم العرب إليها فأبقوا عليه[٢].

والناظر إلى جغرافية الأندلس، يجدها مقسمة إلى حدود إدارية وعسكرية وثغور متميّزة بأهميتها منها: مملكة أراجون وقطلونية في الشمال الشرقي، والثغر الأوسط الواقع في أعالي وأواسط نهر دويرة الذي يصبّ في المحيط الأطلسي غربا وقاعدته مدينة سالم، والثغر الأدنى الذي يقع إلى الجنوب من نهر دويرة ويمتدّ إلى نهر التاجه الذي يصبّ هو الآخر في المحيط الأطلسي غرباً وقاعدته مدينة طليطلة ويواجه مملكة ليون والجلالقة الواقعة في الشمال الغربي من إسبانية.

أما الوادي الكبير الواقع في الجنوب الإسباني والذي يصبّ في المحيط الأطلسي، فتقع عليها مدينة قرطبة وإشبيلة، وكان يسمّى قديماً ببطي، والخطوط الممتدّة من البحر الأبيض شرقاً، والمحيط الأطلسي غرباً تشكّل قوساً دائرياً يقوم بالدفاع عن هاتين المدينتين وعن غيرها من المدن.

ولما جاء العرب المسلمون إلى هذه الديار أبقوا على التسميات والتقسيمات السائدة آنذاك، وتمتعت المدن والكور -كما كانت- باستقلالها الإداري والعسكري، الأمر الذي جعل النظام اللامركزي هو السائد في البلاد نظراً لطبيعتها القاسية، وهذا الوضع يناقض سقوطها دفعة واحدة، لكن ارتباط ثغورها بقواعدها الرئيسية ساعد على سقوطها جميعاً، فسقوط مدينة طليطلة قاعدة الثغر الأدنى سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م، مما أدّى إلى انهيار خط التاجه كله، وأصبحت المدينة مع أراضيه تشكّل ولاية قشتالة الجديدة.

نستنتج من هذا، أن الوضع الجغرافي العسكري المعقد أجّج نار الصراع بين المسلمين والمسيحيين وجعل الأندلس في نظر المسلمين أرض رباط، راحت بأوصاف تستدر العطف وتهيج المشاعر، مثل الأيتام واليتيمة، والغريبة، الغربة والغرباء[٣]، واستمّرت هذه الأسماء بظهور البعض منها، واختفاء البعض الآخر حسب الظروف التي تلّم بها، والتي تدفع النفوس عنها بشكل دائم حتى أصلح جزءاً من حياتهم اليومية، فتراهم يمارسون القتال ويأجّجون النفوس بسماع قصص البطولة، وما المشادة التي حصلت بين أمية بن عيسى وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن، ومؤدّب الصبيان بتحفيظه للصبيان شعر عنترة ونهيه إياه عن ذلك، وطلبه منه أن يعلّمهم شعر عمر بن أبي ربيعة لخير دليل على ذلك[٤]، لأنه كان يخاف أن تشبّ نفسه وهي توّاقة للجهاد والقتال معاً في الخارج أو عند حدوث الفتن في الداخل، وهذا ما يدخل بما سمي -الآن- بالإعلام ودوره في تأجيج النفوس وحماستها.

والملاحظ أن الجيش في الأندلس تميّز بتعدّد فرقه، وما صاحب هذه الفرق من منافسة في الأداء العسكري؛ فطالعة موسى التي سمّيت بالبلديّين[٥] فيما بعد، اندمجت مع الجماعات الشامية التي قدمت مع بلج إلى المغرب سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م، ودخلت بعدها إلى الأندلس في عصر الولاة، والتي سمّيت فيما بعد بطالعة[٦] بلج، وعُرِفت الطالعتان بعد ذلك بالجنديين[٧].

ولما عُيّنَ حسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك، قام بتوزيع الشاميين الذين شكّلوا ثقلاً اجتماعياً وعسكرياً على الحاضرة قرطبة - على كور الأندلس، وأفرد لهم ثلث أموال أهل الذمة(٨).

الرايات والأعلام والبنود:

احتلّ البلديون والشاميون في عصر الإمارة الصدارة، وكان لكل منهما لواء يقوم بعقده الأمير عبد الرحمن الداخل الذي تولّى الحكم في الأندلس سنة ١٣٨-١٧٢هـ/ ٧٥٥-٧٨٨م، وكانت مدة الغزو تختلف بين اللوائين المقيم والغازي، فلواء أهل الشام مدة غزوه ثلاثة أشهر، ومثلها للإقامة، ولواء أهل البلد مدة غزوه ستة أشهر ومثلها للإقامة، وإلى جانب هذين اللوائين وُجدَت فرقة عسكرية مكوّنة من الشاميين والبلديين تُسمّى بـ (النظراء) ومهمتها القضاء على الفتن وهي في مهدها، فهي جاهزة عند الطلب(٩).

وفي العادة يُعقَد اللواء على الرماح أو القنوات التي يحملها قادة الجند الذين يحرصون عليها حرصهم على أنفسهم، وهم من المخلصين للدولة، ولهم منزلة كبيرة عند الأمير أو الخليفة بسبب هذا الإخلاص، وممن عقد لهم الأمير عبد الرحمن الداخل لواءه عند دخوله الأندلس، مولاه بدر، وتمّام بن علقمة، وقد بلغ الحد بمن يحمل اللواء التفاني والثبوت في الميدان أمثال: أحمد بن محمد بن أبي عبده الذي استشهد في ربيع الأول سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م، في أثناء قيامه بقيادة إحدى حملات الصوائف(١٠).

وجرت العادة أن يتمّ عقد اللواء بعد تأدية الصلاة في المسجد الجامع في قرطبة- الذي بناه الأمير عبد الرحمن- بعد صلاة الجمعة، وبعد إتمام الصلاة يصحب عقده مراسيم خاصة به، ولكن ليس بالضرورة أن يُعقَد دائماً في المسجد، بل يقضي الأمر أن يُعقَد في أي مكان، مثلما فعل الأمير عبد الرحمن الداخل، الذي عقده تحت الشجرة(١١).

واستحدثت زمن الخلافة أولية جديدة في الجيش، عليها صور الأسود والنمور والثعابين والعقبان وغيرها من الصور، وهي على أنواع منها ألوية العقد، العلم، والشطرنج الشامي، وكالعادة كان يتمّ عقدها في حفل خاص بها بعد إخراجها من مخازن العدة بقصر الزهراء، ويحضر في حفل العقد القاضي وكبار الأئمة، كما كان أيام الخليفة الناصر، ويقرأ الجميع سورة الفتح من أولها إلى آخرها، ثم يرفعون أكفهم بالدعاء بالنصر يصحبه التكبير والتهليل والتحميد، ثم يذهبون جميعاً كالعادة إلى القائد أو المسؤول الذي عيّن لعقد الألوية التي ستخرج بعد عقدها كالعادة من المسجد، وعند عودة الجند من المعركة تعلق الرايات على جدران المسجد ليراها الناس، لأنها تمثّل رموز النصر والسيادة. ففي زمن الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله من سنة ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م، عُقِدَت الرايات على القنوات للقائد دري المعروف بابن عقبة(١٢)، والملاحظ أن الرايات التي تنطلق بها الجيوش إلى ساحات القتال لها دلالة خاصة في تقسيم الجيش إلى فرق، فكان الجيش الأندلسي ينقسم إلى خمس فرق، تتألف كل فرقة من خمسة آلاف جندي رأسها أمير يحمل الراية، وكل فرقة تنقسم بدورها إلى خمس كتائب، وكل كتيبة تتألف من ألف جندي يرأسها قائد يحمل علماً، وكل كتيبة تنقسم إلى خمسة أقسام، كل قسم يتكوّن من ثمانية جنود يرأسها عريف يحمل بنداً، وينقسم الأربعون إلى خمسة أقسام، كل قسم مكوّن من ثمانية جنود يرأسها شخص يسمّى ناظراً يحمل عقدة(١٣).

وتعدّدت الرايات وتنوّعت الألوية، وأصبح لها أشكال وأحجام كل منها يدل على درجة حاملها، واستمّر هذا التغير إلى انتهاء عصر الخلافة وما بعدها، فكان للرايات والأعلام والألوية مكانة خاصة عند الخليفة عبد الرحمن الناصر خاصة عند الاستعراض، فيرى ابن خلدون أن كثرتها في الحرب تحث على الإقدام والشجاعة(١٤) في النفس عند القتال، وتُحدِث الإعجاب والزهو عند الاستعراض، ومما زاد في أهميتها وعلوّ منزلتها في النفس ما قدّمه الخليفة عبد الرحمن الناصر لحليفه موسى بن

العافية زعيم قبيلة مغراوة الزنانية في المغرب من هدايا كان من بينها هدية من الأعلام[١٥]، وسار على هذا المنوال بالإكثار منها لجيشه، الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله واعتاد الجيش في المعارك على التكبير والتهليل، وقراءة السور القرآنية كسورة الأنفال التي تحضّ على الجهاد، إلى جانب الأحاديث الشريفة، والأشعار الحماسية، وعبارات التشجيع. ففي المعارك التي خاضها الحاجب منصور العامري ضد الفرنجة، كانوا يصيحون واهشام المنصور، يا منصور، يا محمد، وهذا يدلنا على ما كان يتمّتع به المنصور من مكانة في نفوس الجند، وما يعولون عليه في الانتصار، حتى إن الخليفة هشام هو نفسه يعيش في كنفه وحمايته، ومثل هذه النداءات لن تقتصر على جند المسلمين وحدهم، بل تعدّتها إلى ما يشبهها عند جند الأسبان، فأخذوا يقولون ياستناجوا، وهو أحد الحواريين الذي كان يعدّ من أخلص الناس للسيد المسيح، لدرجة أن البعض ظنّ أنه أخوه التوأم من كثرة التقديس له والإعجاب به[١٦].

وكان جند المسلمين وقادتهم في مختلف فترات جهادهم يهلّلون ويكبّرون دون ضجة[١٧]، وإلى جانب قرع الطبول والنفخ بالبوق، وما يتركه هذا النغم وهذه الأصوات من أثر في النفوس، فتصاب بالنشوة والشعور بالبطولة والفخر، فتستسهل الصعاب وتستميّت في القتال، وهذا ما فعله الأندلسيون. كان الزنانيون المغاربة يتقدم صفوفهم شاعرهم فيحرك بغنائه النفوس، وكانوا يسمون هذا الغناء بـ (تاصوكايت)[١٨]، وكان النفخ في البوق نقطة تجمع واستعداد للحرب عند أهل الأندلس[١٩].

عناصر الجيش الأندلسي:

من الواضح أن المفاهيم الإقليمية والجهوية السائدة الآن لم تكن بالمجتمع الإسلامي من قبل، بل كانت كل فئة تتعاطف مع بعضها من واقع التماثل في العمل دون النظر إلى الإقليم أو الجنس، ومن ضمن ذلك فئة الجند التي كانت قائمة على التعدّدية في الجيش

والمكان في المشرق والأندلس، حيث كان الجيش في بداية الأمر قائماً على القبيلة. فالقبائل العربية التي دخلت الأندلس عند الفتح ومعها القبائل المغربية سميت بـ (البلديين)[٢٠]. وإن كان البعض يسميها بطالعة موسى[٢١]، وتبعها فيما بعد الشاميون الذين قدموا إلى المغرب بقيادة كلثوم بن عياض القشيري ومعه ابن أخيه بلج زمن الخليفة هشام بن عبد الملك[٢٢]، والتي سُمِّيت عند المؤرخين بطالعة بلج، وهاتان الطالعتان تُعْرَفان عند الأندلسيين بالجنديين[٢٣].

والملاحظ أن العرب والبربر اشتركوا بعضهم مع بعض اشتراكاً فعلياً في فتح الأندلس، وكانوا معاً يكوّنون وحدة عسكرية متماسكة، ونظراً لتشابه الجنسين في الأنماط الاجتماعية والأعمال الحربية. فقد استقرّوا عند الفتح في الأماكن التي تتوافق مع أمزجتهم وطباعهم؛ فاستقرّ البربر عند الفتح في الأماكن الجبلية وخاصة في ما يسمّى بالجرف والمقصود به عند أهل الأندلس الشمال، واستقرّ قسم منهم في المرتفعات الجنوبية من إسبانية كبني الأفطس في بطليوس. وبني رزين في شنتمرية، وبنو يفرن في رندة[٢٤] وغيرهم في أماكن أخرى، واستقرّ العرب في المناطق السهلية والساحلية.

ولما تولّى حسام بن ضرار الكلبي ولاية الأندلس، قام بتوزيع القبائل العربية على الكور الأندلسية التي عُرِفَت فيما بعد بالكور المجندة[٢٥].

وعندما قام الأمير عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، أسّس دولة بني أمية الثانية فيها، كان اليمنيون يشكّلون القوة الضاربة في الجيش، وفي هذا يقول صاحب أخبار مجموعة:

(فاصطفت اليمن كلها على الحرب.....وبعث على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبي، وعلى رجاله اليمن بلوهة اللخمي)[٢٦].

لكنه لاحظ حسد اليمنيين بعد تمرّد جند باجه عليه، فلجأ إلى إضعاف العنصر العربي عامة واليمني خاصة، فمال إلى أخواله من البربر، واستقدم عدداً كبيراً منهم ليضعف فيهم العرب ويقضي على شوكتهم(٢٧)، ويستعين بهم على حفظ عرشه، فجعلهم في فرق منفصلة، فكان على الخيالة منهم؛ إبراهيم بن شجرة(٢٨) الأدوي، وعلى الرجالة عاصم بن مسلم الثقفي، واستعان بهم على انضمام إخوانهم من البربر الثائرين ضده إلى جانبه، وتجلّى هذا الأمر يوم حصل قتال فيما بينه وبين الثائرين منهم، في مكان يقال له الركونين ويسميه البعض الرّكالة في موقع منها يقال له بنش(٢٩)، فطلب من مواليه ومناصريه من البربر، بأن يكلّموا إخوانهم ويعملوا على انضمامهم إليهم، وتخويفهم من العرب الذين يقاتلونهم، بمعنى آخر استخدموا معهم الترغيب والترهيب، وتمّ له ما أراد ونجحت الخطة.

وباستقدامه البربر فتح الباب لاستقدام عناصر أخرى، ولعله أراد أن يكون جيشه مكوّناً من عدة عناصر، مثلما كان الجيش العباسي، خاصة عندما اكتشف تآمر القبائل العربية ضده، الأمر الذي أدّى إلى فقدان الثقة بها، وخسرت القبائل العربية مكانتها في الجيش. فقد أشار عليه في هذا الخصوص ثعلبة الجذامي حيث قال: (احترس وضم إليك مواليك، وضم مواليه وجعلهم حرسه)(٣٠). وأصبحوا ساهرين على سلامته لارتباط منفعتهم به.

واستقدم إلى جانبهم مماليك من أفريقية السوداء، الذين بلغوا من الكثرة ما أدّى إلى تنظيمهم في فرق عسكرية خاصة بهم سميت بـ (عرافة السود)(٣١)، وتعني الدائرة أو الديرة أو المحلة التي يقيم فيها الجيش، وهذه الفئة من المماليك كان يُعتمد عليها في فض المنازعات، ويحسب حسابها عند الطوارئ، فهي في حالة استنفار دائم تلبي النداء وتقضي على أي فتنة تقوم، وكان من رؤسائها زمن الأمير عبد الرحمن الداخل الحارث بن بزيع، لما عرف عنه من إخلاص وتفان لأميره، وفي هذا يقول صاحب أخبار مجموعة: (اشترى الأمير عبد الرحمن الداخل بزيع بن الحارث بن بزيع عندما

قاتل وأبلى، وظهرت منه نجده، فقال له الأمير عبد الرحمن: - عبد أنت أم حرّ؟ فقال له: بل عبد، فأمر بشرائه وعرّفه في عرّافة السود)[٣٢].

وورد ذكر الطنجيّين عند ابن حيان[٣٣]، وهم أخلاط من الجند المرتزقة من أرذال العبيد والبربر، أطلق عليهم هذا الاسم في وقت مبكر أوائل العصر الأموي، ويبدو أنهم اكتسبوه من المدينة التي كانت مقرّاً لهم في استقبالهم ثم ترحيلهم إلى الأندلس بعد تسجيل أسمائهم. ويبدو أنهم لم يكن لهم وضع ثابت، ولا ولاء معروف، يعملون بأقل الرواتب، وفي أشق الأشغال[٣٤].

وهذه الفئة لم تكن محبوبة بسبب خشونتها وصلفها وعدم انضباطها وتذبذبها في الولاء لسادتها، فكانت هذه الصفات سبباً في مقتها عند أهل الحضر، خاصة أهل مدينة قرطبة الذين نقموا على أفرادها وكانوا مستعدين لمهاجمتها[٣٥]، ومع هذا ضم الأمير الحكم المستنصر قسماً كبيراً منهم إلى جيشه؛ حينما قدموا مع سيدهم القائد الفاطمي السابق جعفر بن علي بن حمدون بعد خروجه عن طاعة الفاطميين وانتصاره على زيري وانضمامه إلى الخليفة الحكم، متنازلاً عن هؤلاء العبيد الذي رأى فيهم المهارة في القتال والخفة في الحركة والرفق بالخيل، فكان يشرف عليهم من قصبة دار الرخام بقصره، فيعجب بهم ويقول فيهم قول الشاعر:

فكأنما ولدت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

ويقول:

(ما أعجب انقيادها لهم - الخيول - كأنها تفهم كلامهم)[٣٦].

واستقدم الحاجب منصور العامري عدداً من السودانيين سمّوا بالرقاصة[٣٧]، بلغ عددهم ألفي راجل قدموا إلى الأندلس مع مجموعات الفرسان من البربر، فقد عملوا في نقل المراسلات بسبب سرعة جريهم، وعملوا خداماً في البيوت، واستُخدِموا في

تنفيذ المؤامرات والاغتيالات، فقد قاموا بقتل الكاتب ابن جزيري أيام عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر الحاجب؛ إذ قاموا بخنقه في سجنه وتمّ دفنه في شوال سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م[٣٨]، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٧٢-١٨٠هـ/ ٧٨٨-٧٩٦م، قد سار على منهج أبيه من قبل فاختار من في أربونة[٣٩]، فرقة خاصة تقوم على حراسته؛ ضمَّت فيما بعد على حرس ابنه الحكم الأول الذي تولّى الحكم بعد أبيه من سنة ١٨٠-٢٠٦هـ م٧٩٦-٨٢١م، والذي استكثر من المماليك الصقالبة، وهي تعريب لكلمة (Esclave) ، ومعناها العبد أو الرقيق، وهذا الاسم أُطلِق على العناصر التي جُلِبَت من بلاد البلغار -شرق أوروبة- عن طريق التجار اليهود[٤٠]، واختار الحكم أفراداً منهم عُرِفُوا بالبسالة والشجاعة ومهارة في التصويب، وسموا بمماليك الرماة[٤١]، جعلهم حراساً لقصره، وما تبقى منهم فرقاً عسكرية جاهزة للرد على كل فتنة أو القيام بالحرب، ونظراً لمكانتهم وتعدّد مهماتهم، فقد سموا بتسميات متعدّدة منها، الصقالبة، الفتيان، الحرس[٤٢]، وشكّلوا قطاعاً كبيراً من القطاعات العسكرية الدائمة، وكان مقرها في العاصمة قرطبة، واستحدث الخليفة الحكم بعد ثورة أهل الربض، إلى جانب ما كان سائداً من نظام الأجناد القائم على الإقطاع العسكري القبلي منذ عصر الولاة في الكور والأقاليم الأندلسية، نظام الجيش الدائم في العاصمة، فأوجد لهم عرافة -دائرة تضم مساكنهم وجميع منشآتهم بما فيها مصانع الألبسة والأسلحة-، بلغ عددهم فيها خمسة آلاف منهم ثلاثة آلاف من الفرسان[٤٣].

وعن وجودهم في الحاضرة قرطبة يقول ابن عذاري: -(كان للحكم ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة من العرفاء، تحت كل عريف مائة فرس، فإذا بلغه عن ثائر ثار في أطرافه عاجله قبل استحكام أمره، فلا يشعر حتى يحاط به)[٤٤].

وبالجملة فقد نالوا ثقة الحكام، واستمّر وجودهم في مختلف فترات الحكم الأموي رغم اشتراكهم في بعض الفتن، ففي زمن الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥-٣٠٠هـ /٨٨٨-٩١٢م، قام فهر بن أسد الأخرس بفتنة ضد الأمير لكنها باءت بالفشل(٤٥)، ورغم فشلها لم تنقص من قدر بعضهم عند الأمير، ولم تترك ريباً في ولائهم له، وكان من أبرز من نال الثقة عنده الفتى (دري) صاحب الشرطة العليا، والفتى أفلح الخيل(٤٦)، وهما اللذان كانا فوق الشبهات، ولم يتدخل الأمير ولا من سبقه من الأمراء في شؤونهم، وكان ما يهمّهم منهم ولاؤهم، لهذا بقي قسم كبير منهم على لغته دون أن يتعرب، إلا من كان سبباً في الاتصال بينهم وبين الحاكم، لذا سموا بالخرس أو العجم، وعاشوا في عزلة عن المجتمّع متمّسكين بعاداتهم وتقاليدهم المميّزة لهم وعن غيرهم.

واستكثر منهم الأمير في مناطق من دولته، فكان منهم مائة وخمسون رجلاً مسلحاً في إقليم ناربونه جنوب فرنسة Narbonna قائمين على شؤونه، وكانوا مصدر خوف وهلع لأهل قرطبة بشدة بطشهم فلا يحرّكون ساكناً. وكان يرأسهم الكونت ويسمّى ربيع بن ثيودولفو(٤٧)، وعملت هذه الفئة في مجالات عدة، فإلى جانب حراستهم للقصر، وقتالهم في المعارك، استخدموا الجواسيس لنقل أخبار الناس للحكام مباشرة، ونظراً لأهميتهم، فقد استكثر الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦٢م، منهم وأصبح لهم تميّز ملحوظ في المجتمّع حتى في ملبسهم ومآربهم(٤٨)، وبالغ الخليفة الناصر في إكرامهم على حساب الأجناس الأخرى، ووصل البعض منهم إلى مصاف القيادة والوزارة، وسموا بالخلفاء الأكابر(٤٩).

ونال في زمنه مملوكه نجدة الصقلبي مكانة لن ينلها أحد، فقد عيّن على رأس حملة لقتال ملك ليون راميرو الثاني، وانهزم الجيش وانهزم معه الخليفة نفسه أمام الفرنجة في معركة شمنقة سنة ٣٢٧هـ/٩٣٧م، وقتل نجدة في المعركة، وكان من أسباب الانهزام تقاعس العرب عن القتال حقداً على نجدة وجماعته، وانتقاماً من الخليفة الذي كان يفضلهم عليهم، وعند عودته إلى قرطبة بعد الانتهاء من المعركة، قتل الخليفة

عدداً منهم، لاتهامهم بالتخاذل، ولكن رغم ذلك بقيت مكانتهم محفوظة، إلى أن جاء الحاجب منصور العامري واستبد بالخليفة هشام المؤيد، فتآمروا عليه وأرادوا استبداله، فقام بتشتيتهم واستبدالهم بمماليك غيرهم سموا فيما بعد بالفتيان العامرية، وكان من أبرزهم مملوكه مجاهد العامري الذي استقل فيما بعد بجزر البليار وسردينية وبعض السواحل الإيطالية الواقعة غربي البحر المتوسط(٥٠).

وقام الحاجب منصور في عهد هشام المؤيد بعملية إصلاحات عسكرية، قضى فيها على القبيلة القائمة على الإقطاع العسكري، مما أثّر على الأرستقراطية العربية، المعتمّدة على نظام الجند والكور المجندة، وبسط سيطرته على الجيش، وجعله وحدة نظامية متماسكة في عصره، بعد أن كان مكوّناً من فرق متعدّدة، كل فرقة تتكّون من عناصر مختلفة من العرب والبربر والمماليك، وأصبح لكل جندي راتب شهري وعيّن على الأراضي جباة يجبون الخراج، وبهذا خفّف من حدة الفتن والتشاحن بين عناصر الجيش، وزاد الأمر هدوءاً عندما استقدم البربر بدلاً من العرب، فقدموا إليه على شكل جماعات متفرقة منهم، بنو يفرن الزنانية بقيادة أبي موسى بن دوناس وبنو زيري الصنهاجيون بقيادة زاوي بن زكري وابن أخيه حبوسبن ماكسين(٥١)، وقد بلغ عددهم في ديوان جيشه ثلاثة آلاف فارس، إلى جانب عدد من السودانيين وغيرهم من الأتباع الذي بلغ عددهم ما يزيد على ألفي رجل؛ فأدّى الأمر إلى كثرة المصلين الذين ضاق بهم المسجد، فأمر الخليفة الحكم المستنصر بالله سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م(٥٢)، بتوسيعه من جهة المحراب، وأمر الحاجب المنصور سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م، بتوسيعه من الجهة الشرقية.

وعُرِفَ عن البربر الإقدام والبراعة في القتال، فاستخدمهم المنصور لمحاربة المماليك النصرانية، الأمر الذي أكسبه انتصارات باهرة، نال بها رضى الأمة مما كرّس شرعيته في الحكم، لكن هذا العنصر بمقدار ما كان نافعاً في الخارج، كان سبباً في إثارة الفتن في الداخل؛ فساهم مساهمة كبيرة في سقوط الخلافة سنة

٤٢٢هـ/١٠٣٠م[٥٣]، ومن عناصر الجيش الحشم[٥٤]، التي لم تشر إلى أصولهم، وقد كانوا خليطاً من أجناسٍ متعدّدة، يُستَعان بهم في إطفاء نار الفتن أو الجهاد ضد العدو، وقد تسمّى بعض قادتهم بأسماء عربية مثل: فهر بن أسد الذي اشترك في إخماد الفتن التي قامت ضد الأمير عبد الله بن محمد سنة ٢٧٦-٣٠٠هـ / ٨٩٩-٩١٢م، ولعلّ هذه الأسماء أطلقها أسيادهم عليهم، أو أطلقوها على أنفسهم قصد التزلف، أو إثبات نسب لهم بأنهم من أصول عربية لإثبات شرعيتهم في تولّي المناصب[٥٥]، ومهما يكن من أمر فقد استمّروا في تأدية خدماتهم للدولة في عصر الإمارة والخلافة.

وُوجِدَ في الحاضرة قرطبة وفي غيرها من الحواضر عدد كبير منهم، فكان المسؤول عنهم أيام الأمير عبد الله في مدينة رية (محمد بن ونين)[٥٦]، الذي يُعَدّ من أشهر كماة الفرسان ويسمّى بصاحب الحشم[٥٧]، أو ناظر الحشم[٥٨]، والقاسم بن طلمس الذي كان مسؤولاً عن ترتيب الجند في أيام السلم والحرب، وهو قائد الحملة التي كانت تحارب ضد الفرنجة بأندوجر الواقعة قرب طليطلة، والتي فشلت في مهمتها بسبب كثرة الكمائن التي نُصبت من قبل العدو، وفي هذه الحملة يقول صفوان بن عباس عن قائدها:

ضرط منها يوماً ضرطه في القرميد

مات منها كل حوت كان في البحر المحيط[٥٩]

واُختير من بينهم قادة عُينوا على فرق عسكرية اختصّت باقتحام الحصون قبل وصول الجيش إليها، حيث يقومون بخض شوكة أهلها ليتمكّن الجيش من الإجهاز عليها، وبعد أخذها يقومون بحراستها وضبط أمورها ليمنعوا العدو من استرجاعها.

وعند تعبئة الجيوش توضع هذه الفرق في المقدمة لحسن بلائها وصبرها على القتال، وفي هذا يشير ابن القوطية على سُرعة إنجازها في القضاء على الفتن[٦٠]؛ فقد تمكّنوا

من إنهاء الفتن التي ظهرت أيام الخليفة الحكم المستنصر بالله خاصة عند حدوث فتنة أهل الربض قرطبة، وفي هذا يقول ابن عذاري:

(فلمّا مكّنته الفرصة منها جد السير إليها، يطوي المراحل فوصل إليها ليلاً، وسبق القطيع من الحشم ، فدخل طليطلة ليلاً)[٦١].

واستعان بهم الأمير عبد الرحمن الثاني بإرسال قوة منهم إلى قلعة رباح لمواجهة الشغب في مدينة طليطلة، فتمكّنوا من تخفيف مهمتهم، ولكن بمقدار ما كانوا مخلصين، بمقدار ما كانوا ميالين إلى الشغب عند المسّ بمصالحهم؛ فقد قام عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي بفتنة ضد الأمير محمد بن عبد الرحمن عندما أحسّ بمسّ مصالحه ومصالح جماعته[٦٢].

وأوكل الحكام لهم مهمة القيام بالأمور الصعبة -وهي أشبه بالقوات الخاصة- ففي إحدى غزوات الثغور، رفض الناس أن يكونوا في المعركة دون الحشم. ويبدو أن الحشم سبقوا الجند إلى المنطقة المزمع فيها القتال وتمكّنوا من خض شوكة العدو قبل اشتباك الجيوش.

ووُجدت فرقة منهم كانت مكلّفة بخدمة الحاكم ورعاية شؤونه سُمّيت بالحفد[٦٣]، يقوم الحاكم بإرضائها مثلما فعل الخليفة الناصر، فوهبها ما كسبته من المعركة، وإلى جانب هذه الفرقة؛ هناك فرق أخرى سُمّيت بمسميات مختلفة منها: كيف من الحشم، وجملة من الحشم، وضروب من الحشم[٦٤]، وإلى جانب ما ذكر هناك فرقة أخرى فرقة المجاهدين المتطوعين من المغاربة، الذين اعتادوا الدخول إلى الثغور قصد الجهاد والمرابطة، تاركين ديارهم وأهلهم في المغرب، وكانوا يفضلون شهر رمضان عن غيره من الشهور في الذهاب إلى هذه الثغور، فقد رابط عدد منهم في وادي الحجارة لهذه الغاية، وهم بطبيعتهم ميّالين إلى الحرية وعدم التقيد خاصة أهل الريف منهم. ففي

زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م، سكنوا في القلاع التي استكثر منها هذا الأمير، واتخذوا من البطاح ورؤوس الجبال أماكن استقرار لهم.

والواقع أن فكرة الجهاد عند المغاربة تُعَدّ من صلب كيانهم، وقد أبدوا جهوداً مشكورة في فتح الأندلس واستمرار وجود الإسلام فيه، بإيجاد قواعد ومدن كانت حكراً عليهم مثل: مدينة شنتمريّة إحدى المدن المحصنة في الأندلس، وأكبر مركز لاستقبال المجاهدين منهم(٦٥). ويليهم الصقالبة أو الخرس، وهم من الفرق المتمرّسة في القتال البري والبحري معاً.

وفي العادة يتمّ اختيار القادة منهم لحكم الولايات، وقد ينال البعض منهم حظوة عند الأمير أو الخليفة؛ فيكلّف بأخذ البيعة له من العامة والخاصة(٦٦)، وربما قام بتوزيع الهبات ومال الصدقة على الفقراء والمساكين بأمر من الخليفة؛ فقد أمر الخليفة المستنصر فتيانه من الصقالبة بتوزيع أموال الصدقة على الفقراء والمساكين.

وفي هذا يقول ابن حيان: (فجعل الفتيان الصقالبة يجولون بينهم، وأكياس المال مفتوحة ومفرجة بأيديهم يحفنون لهم، كل بحسب ما قدر له، فعمّ جميعهم معروفه، وعلت أصواتهم بالدعاء)(٦٧).

ومن ضمن هذه العناصر الأخماس، وهم العبيد السبي يرجعون بأرومتهم إلى سبي موسى بن نصير عند فتحه الأندلس(٦٨)، وإلى جانب عدد من المرتزقة العلوج ومجابيب الخلفاء.

كل هذه العناصر يحويها الجيش المعدّ للجهاد في الهجوم أو الدفاع، إلى جانب اشتراكه في الاستعراضات والاحتفالات الرسمية وفي استقبال السفراء والحكام الأجانب(٦٩)، تشاركه في هذه الاحتفالات الشرطة المسماة اليوم بالاستخبارات العسكرية، والتي تقوم على تتبع أخبار العدو وجمع المعلومات عنه ووضعها تحت تصرف الجيش؛ والقيام

بالتفتيش على الثغور وتعزيز القوات والعمل معاً لتكاتف الجهود خدمة للبلاد والرعية(٧٠).

ونظراً لأهمية بعض الأماكن، فقد تسمت بها بعض القطاعات العسكرية، مثل: جيش الحضرة، أو الحاضرة ذاك الجيش المقيم في العاصمة قرطبة، وجيش الثغور المقيم على الحذود(٧١).

أما فرقة المتطوعة أو الجيوش غير النظامية، فكانت تلبّي نداء الجهاد عن طواعية واختيار، رغم أنها غير مسجلة في الديوان. فقد شاركت في حرب ضد الفرنجة سنة ٣١٩هـ /٩٣١م، وسنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م، وفي عهد الخليفة الناصر ٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦٢م، هبّت هذه الفرق للمشاركة في الجهاد بأعداد غفيرة في غزوة الخندق سنة ٣٢٨هـ/٩٣٨م، حيث قُتِل منها أعداد كثيرة فأعرض الخليفة الناصر عن مشاركتها(٧٢)، ثم عاد لإشراكها عندما لبّت نداء الجهاد، وفي هذا يقول ابن حيان: (وتسارع مطوعة أهل قرطبة بالخروج إلى الثغر الأعلى ممدّين لأهله، فانجفلوا راغبين في الجهاد بأموالهم وأنفسهم يوماً إثر يوم)(٧٣).

والملاحظ أن التطوّع لم يكن إجبارياً، بل كان اختيارياً، ففي زمن الحاجب المنصور بن أبي عامر، أعلن للناس سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٠م، قائلاً: (بأن من تطوّع خيراً فهو خير، ومن خفّ إليه، فمبرور ومأجور، ومن تثاقل فمعذور، فتمّت على الناس النعمة)(٧٤).

وفي العادة حالما تنتهي المعركة، يعود المتطوعة المجاهدون إلى أعمالهم ومنازلهم، وقد بلغوا من الكثرة أن كان عددهم في إحدى الغزوات ما يزيد على ستة عشر ألف متطوع)(٧٥).

التنظيمات العسكرية:

المناصب والخطط:

- القيادة

وتُعَدّ من أولويات الوظائف والخطط، ونظراً إلى أهميتها فقد تولاها الأمير والخليفة؛ عبد الرحمن الناصر كان يقود الجيوش بنفسه إلى أن تعرّض إلى هزيمة منكرة في غزوة الخندق سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٧م[٧٦]، وكاد أن يُقْتَلَ فيها؛ فامتنع عن الخروج وأوكل قيادتها إلى من يثق به من أعوانه، وربما أوكلها إلى الأمير أو الخليفة إلى أحد أولاده أو من يثق به من قواده، ممّن اتصفوا بالشجاعة والإقدام وسداد الرأي[٧٧].

ففي زمن الخليفة هشام المؤيّد بالله المتوفى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، تولّى قيادة الجيوش الحاجب منصور العامري التي بلغت غزواته خمسين غزوة على الأراضي الإفرنجية في الشمال، ثم قام بها من بعده ابنه المظفر عبد الملك ونال صاحب هذا المنصب التقدير والاحترام من الأمير أو الخليفة، ففي عهد الحكم الثاني المستنصر بالله ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٦٩١-٩٧٦م، استحدث سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م، منصباً جديداً سُمّي صاحبه بالقائد الأعلى للجيش الأندلسي، وأسنده إلى القائد غالب بن عبد الرحمن بكتاب تقليد بعث به إليه، ومما جاء فيه:

(...ورأينا أن نوقع اسم القيادة العليا على غالب مولانا وجميل صنعه؛ فلا يخاطب من الآن إلا به تشريفاً له إن شاء الله)[٧٨].

خطة الخيل:

سُمّي المسؤول بصاحب الخيل[٧٩]، الذي كان يرد تعيينه من دار الإمارة أو الخلافة، يعاونه عدة معاونين أو وكلاء يقومون: بالإشراف على دور الخيل التي تضم أنواعاً عدة من الخيول، كخيول العتاق، والشهباء، وأنواعاً أخرى من البغال الظهيرة

والزوامل[٨٠]، التي كانت تُجلَبُ من جزيرة ميورقة، وتميّزت كما يقول ابن حوقل: (بحسن السير وسرعة المشي، والشعور المشرقة مع الصبر على النكد والعسف)[٨١].

وأوكلت إليهم -الوكلاء- الأشراف على المخازن الخاصة بالخيل التي تحوي معداتها ومعدات البغال من سروج ولجم وعلف سواء أكانت تابعة للجيش أو لقصر الخلافة[٨٢]، وإلى جانب تدريبها على ميادين القتال بعد التعرف على سلالاتها، وحسب قول ابن سعيد[٨٣]: إن لخيول الأندلس سمات خاصة كضخامة الأجسام لحمل العتاد، وإن كان البعض منها مهيأ للعدو في أماكن يقال لها المصارة التي تنتشر في معظم أنحاء الأندلس. وحرص الأندلسيون على توفير المراعي لها في مختلف بقاع الأندلس، مثلما حرصوا على تدريبها للقتال، شأنها شأن البغال والجمال. فقد زوّدت المغرب الأندلس بعدد ضخم منها، ومن ضمن التزويد ما أهداه الأمير الزناتي محمد بن خزر إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر عدداً منها، كما أهدى زيري بن عطية المغراوي إلى الحاجب المنصور عدداً آخر إلى جانب الخيول المغربية التي جلبها المنصور من المغرب، لاستخدامها في القتال في المناطق الجبلية، حيث بلغ عددها في قرطبة وحدها ألف فرس عدوية. وعمل الفرسان على تدريب خيولهم على سماع الطبول والأبواق وقعقعة السلاح في الميدان[٨٤]، وأوكل إلى صاحب الخيل القيام بنقل البريد، إلى جانب الأمتعة والأدوات الحربية والسجلات الجمركية، وقد يقوم بما كانت تقوم به الشرطة من فض النزاعات بين الجند[٨٥]، وفي حمل الأموال والمنح المرسلة من الخلفاء إلى القادة في الثغور[٨٦]، وأطراف البلاد. وأسند الخليفة المستنصر بالله إلى زيادة بن أفلح خطة الخيل إلى جانب ما كان يتولاه من النظر في أمور الحشم، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدّل على أهميتها وضخامة مسؤوليتها[٨٧].

خزانة السلاح[٨٨]:

وهي المختصة بحفظ السلاح وخزنه وتزويده للجيش عند الحاجة إليه سواء كان في التدريب أو في القتال. ففي عهد الحاجب المظفر عبد الملك عُهِدَ إلى خزّان السلاح بتوزيع خمسة آلاف درع، وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف مغفر على الجند لحاجتهم إليها[٨٩]، وكانت مدينة الزهراء تحوي الكثير من معامل الإنتاج وخزن السلاح للحاجة ، ففي سنة ٣٥١هـ:٩٦٢م، أنفذ الحكم الكتب إلى جميع الولاة والقوّاد والعمال في مختلف أنحاء الأندلس، يأمرهم فيها باقتناء الخيل وإعداد العدة من السلاح والأدوات الحربية بغرض الجهاد[٩٠]، ولم تحوِ خزائن السلاح فقط، بل أدوات البناء والخيام والقباب والثياب والبنود والطبول[٩١].

وشهدت هذه الخطة تطوراً في الإجراءات الإدارية زمن الخليفة الناصر، فقد عيّن عليها اثنان لإدارة شؤونها وهما: أحمد بن ابان، وحفص بن سعيد سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م[٩٢]، ولكنه لم يلبث أن قصرها على شخص واحد هو عبد الأعلى بن هاشم سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٤م[٩٣]، وفي سنة ٣٣٠هـ عيّن عليها محمد بن مليح بدلاً من خلف بن أيوب[٩٤]، ولكن هذا لا يغني عن وجود معاونين له، مثله في ذلك مثل صاحب خطة الخيل الذي يستند إلى معاونيه في إنجاز أعماله.

خطة العرض أو ديوان التميّز:

ويسمّى صاحبها بالعارض[٩٥]، أو صاحب ديوان التمّييز فيما بعد، ومن هؤلاء، أحمد بن حدير[٩٦]، الذي تولّى هذه الخطة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، ثم خلفه من بعده بقليل في نفس السنة عمر بن محمد بن غانم، وعبد الرحمن بن بن عبد الله الزجالي، ومحمد بن سليمان بن وانسوس الذي تولّى خطة العرض مع العقل[٩٧]، وبعدها في سنة ٣٠١هـ/٩١٣م، تولاّها أربعة أشخاص هم،

محمد بن عبد الله الخروبي، ومحمد بن أحمد بن حدير، وقند الكبير، ودري مولى الخليفة الناصر(٩٨).

وتقوم -العارض- مهمته على عرض الجند بين يدي الخليفة، حيث يتوجهون في العادة بأعداد كبيرة قادمين من الكور والأقاليم نحو الحاضرة قرطبة وبالضبط في الجزء الشمالي الشرقي منها؛ حيث يقام في سهل فسيح خباؤه أو سرداقه المسمى عندهم -لليوم- بالقيطون- وبعد إقامة الصلاة وتأديتها في المسجد الجامع بقرطبة، يذهب إلى سرداقه وبعد استراحة قليلة، يخرج منه متقلداً سيفه راكباً فرسه وحوله أتباعه وسط هتاف وتكبير من جنده ومن العامة المصطفين لمشاهدته؛ يستعرض جنده وهو ممتشقون أسلحتهم في جو رهيب(٩٩)، ومنضبط. ففي زمن الحاجب المنصور، سلّ أحد الجند سيفه، فلمع بريقه وهو يستعرض الجند، فاستدعاه ولما سأله عن سبب سلّه، ذكر له أنه أشار به إلى صاحبه فزلق من غمده، فأمر على الفور بقتله وطيف برأسه بين الجند وهم يذكرون ذنبه(١٠٠)، وقد يجلس الخليفة عليته وهو في لباسه العسكري ومعه كبار قواده وحراسه، والعامة والخاصة مصطفة لمشاهدة هذا الاستعراض(١٠١)، مثلما فعل الخليفة الناصر الذي كان يستعرض الجيوش من عليته عند توزيع العطاء، أو عند تدريبهم على فنون القتال(١٠٢).

وقد يكلف أحد قواده الكبار ممن عيّنوا لهذه الغاية يُقال له العارض(١٠٣)، فيقوم هم وأعوانه على أعداد الجيوش، والتفتيش الدقيق على المخازن ومصانع السلاح والملابس، وعلى أهراء -مخازن- الغلال، والأقوات والعلوفات، وعلى الدواب التي تقدر بالآلاف والمستخدمة لنقل الأمتعة والسلاح(١٠٤)، وعلى استبعاد كبار السن أو ممن كانت فيه علّة خاصة في الجيش النظامي(١٠٥)، ويصحب معه الأموال الخاصة بالإنفاق وأرزاق الجند بعد إعدادها في صناديق مقفلة(١٠٦)، وبعد إتمّام العرض والتأكد من وفرة السلاح والمواد التموينية، يقرأ أسماء الجند المسجلين في الديوان للتأكد من حضورهم والتعرف على قدراتهم القتالية(١٠٧)، هذا في أيام الحرب، وفي أيام السلم

يستخدم الجيش للاستعراض والمواكب العسكرية التي يشاهدها العامة، ومن ضمن فرقة الصيديين، وهم جند الحكام المختصون بالانضباط يرفعون رؤوسهم كبراً يمنة أو يسرة[١٠٨].

ديوان العطاء:

عندما عيّن حسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس زمن هشام بن عبد الملك، قام بتوزيع الجند الشامي على الكور وقطعها عدة إقطاعات مقابل اشتراكها في إطفاء الفتن بالداخل والجهاد في الخارج[١٠٩]. وفي زمن الدولة الأموية الثانية، كان الجيش في حالة استنفار دائم، وكان من أهم مكوّناته، لواءان لواء يغزو ولواء يبقى في حالة استعداد عسكري تام، وكان لكل لواء أمير يأخذ مائتي دينار من ديوان العطاء لقاء كل حملة يقوم بها[١١٠]، أما الجند من أصحاب وأقارب أمير اللواء، فيأخذ كل واحد منهم عشرة دنانير، ويعفى من ضريبة العشر، أما البلديون، فكانوا ينخرطون في ألوية خاصة بهم، ويأخذون أجورهم عن كل حملة يقومون بها تحت إمرة رؤسائهم ومقدارها مائة دينار[١١١]. واستمّر هذا النظام معمولاً به؛ فأقطعت أراضي للبربر والعرب على حدّ سواء، لكن الجيش النظامي كان الأمير يعطي عطاءهم للمسؤولين عنهم ويسمّى بخازن السفر[١١٢]، منهم أحمد بن محمد الكلبي الذي كان في زمن الحكم المستنصر والمكلف بتوزيع المال على الجند، وقد يضاعف هذا العطاء عند توليه أمير جديد مثلما فعل الأمير المنذر بن محمد ٢٧٣-٣٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م، الذي زاد العطاء عند التولية، وأسقط عدداً من الضرائب كانت مفروضة على الرعية[١١٣].

وكان العطاء يقل أو يزيد بزيادة الجباية وضبطها أو بقلتها، فكانت مرتبطة بالظروف الأمنية والسياسية. ففي ثورة ابن حفصون سنة ٣٦٧هـ/ ٨٨٨م، استنفذت جميع مدخرات الدولة[١١٤]، وقلّ العطاء لقلّة الجباية وانعدام الأمن والسلطة خاصة على الكور والأقاليم، بينما زاد العطاء في زمن الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله ٣٥٠-

٣٦٢هـ/ ٩٦١-٩٧٦م. وفي زمن الحاجب منصور العامري ومن أتى من بعده من الحكّام أصبح العطاء بنداً من بنود الميزانية ينفق منه على الجيش وعلى تجهيزه(١١٥).
وتوسّع المنصور العامري في الجباية لزيادة الإنفاق على المتطوعة، فأصدر أمراً بإعفاء كل من لم يشترك في القتال من المتطوعة؛ مقابل أن يعمل في استصلاح الأرض وزراعتها للزيادة في الإنتاج(١١٦)، وبالتالي الزيادة في الضرائب لدفعها للجنود المتطوعة القادمة من المغرب، وبهذا الخصوص أشار البكري بقوله: (...وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جبلية، وكانت جباية هذه الأقاليم في أيام الحكم بن هشام الربضي...الحشد، وناض الطبل، وناض البيرزة للعام (١٤٢) ألف دينار، ومن وظيفة القمح (٥٣) ألف مُدّ من القمح، ومن الشعير (٧٣) ألف مُدّ (١١٧).

والناض لغة معناها الدراهم، ويفهم من النص أن هناك موارد مالية مختصة بالتجنيد، وأن هناك جباية مخصصة للمتطوعين، ولناض الطبل -الأمير الإقطاعي آنذاك-، وناض البيرزة وهي الأموال المخصصة للبزاة، والصقور إلى جانب أعلافها(١١٨).

وإذا أراد الأمير التقرب من الرعية خفض نسبة من هذه الضرائب، كضريبة الحشد التي قام الأمير المنذر بإسقاط نسبة مئوية منها، وتبعه الأمراء من بعده بتخفيض نسبة أكبر مع الإحسان للرعية(١١٩).

العرفاء:

تميّز البعض منهم بفتح الطرق، وقد أشار إليهم ابن عذاري عند حديثه عن الحاجب المنصور بقوله: (وقطع المنصور عدة أنهار كبار.....ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى جبل شامخ شديد الوعر، لا مسلك فيه ولا طريق، لم تهتدِ الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه، وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر إلى أن بلغ البحر المحيط)(١٢٠).

نستدل من ذلك قدرتهم على تسهيل مرور الجيش، أو تعويق مرور العدو بهدم القناطر والجسور مثلما حصل أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م، عندما وجّه حملة نحو طليطلة، لقتال المتمرّدين فيها، وتمكن من حصرهم في قنطرة المدينة، عندها أوعز للبنائين والمهندسين بهدمها، فتمّ ذلك، دون أن يشعروا ممّا أدّى إلى إغراقهم جميعاً[١٢١].

ويبدو أنهم كانوا يقاتلون كفرق مستقلة، فكان لكل فرقة اختصاصها، ففي عهد الحكم الربضي ١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م، استُحْدِث ما يسمّى اليوم -بالقوات الخاصة- المستعدة للمفاجآت، فكان يرابط على قصره مائة فارس من ذوي التخصصات المختلفة من البنائين والمهندسين وغيرهم[١٢٢].

وفي زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الثالث، عيّن على مباردة عبد الملك بن العاص سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م، فوصل إليها في ألف من العرفاء[١٢٣]، وكل فئة من هؤلاء لهم عريف وله وكلاء دونه مرتبة يسمون **بالعرفاء الموكلين**، وهم مختصون بتقديم الخدمات للجيش أو القيام بمهمات قتالية، وقد يتولّون إرشاد قوات المدد، وأحياناً توصيلها إلى مراكز القوات النظامية[١٢٤]، وبسبب ذلك انقسموا إلى فرق سُمّيت بأسماء مهنهم، فهناك عرفاء أصحاب الرسائل الخصيان[١٢٥]، الذين هم غالباً ما يكونون من السودانيين، والعرفاء المدرعون وعرفاء الخياطين المكلّفون بتجهيز الألوية عند عقدها للقائد، قصد الاستعراض أو التوجه للثغور؛ ومنهم الدري المعروف بابن عقبة[١٢٦]، وهؤلاء في الغالب يدرجون مع عرفاء البنائين والمهندسين[١٢٧]، ومنهم عرفاء الطبالين وأصحاب الأبواق -وقد ذكرهم- وهؤلاء أكثر منهم الحاجب المنصور. ففي إحدى غزواته للشمال الإسباني كان معه ستة وثلاثون طبالاً[١٢٨]،

وهؤلاء -الطبالون- نالوا حظوة كبيرة عند الخليفة الناصر لم ينالوها من قبل، فقد عيّن والياً منهم على مدينة أبذة سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م، يعرف بابن يزنت(١٢٩).

العيون والجواسيس:

وجدت هذه الخطة منذ أمد بعيد في الجيوش الإسلامية وفي غيرها من الجيوش لضرورتها وأهميتها، من هنا حرص الخلفاء على تنميتها وتطويرها، فكانت تتبع أحياناً للشرطة، وأحياناً أخرى تستقل بنفسها. وكان أصحابها يعتمّد عليهم اعتمّاداً كلياً في معرفة نقاط القوة من الضعف في جيش العدو، خاصة في مناطق الثغور التي تعدّ مرتعاً خصباً لأعمال التجسس للحصول على المعلومات من كلا الجانبين(١٣٠). فكان عدد منهم يتقن اللغة اللاتينية وهم من أصل إسباني ويسمون بـ-(Ladines) أو (Morslatinades)، وهناك أسبان يتقنون اللغة العربية ويسمون (Risitianes)، وهناك من يتقن اللغة العربية إلى جانب اللغة الإسبانية ويسمون (Algraviados)، وهؤلاء يقومون بالتجسس بمن يدفع أكثر(١٣١). وقد أرسل الخليفة الحكم المستنصر بالله عيونه إلى الشمال الإسباني لجمع المعلومات عن النورمان ووضعها تحت تصرف القيادة العسكرية الأندلسية(١٣٢). وكان من ضمن وصاياه لقائده غالب عبد الرحمن أثناء ذهابه لقتال الحسن بن قنون في المغرب سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م، أن يبث عيونه بين صفوف جيش عدوّه، ليتعرف على مقدار قوته، ومن جملة ما قال: (إن أفضل ما أحتمّل عليه وعمل به استشعار الحزم وادراع التحفظ واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس والإكثار منهم، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن -أهلكه الله- حركة، ولا يتوارى له مذهب)(١٣٣).

خطة الرجالة:

وكان المسؤول عنها يسمّى بصاحب الرجالة، وله الحق في الإشراف على جميع الأمور العسكرية، وممن تولّى هذه الخطة زمن الأمير عبد الرحمن الداخل عبد الحميد

بن غانم[١٣٤]، وكان من أبرز أسلحة رجالها القسي والسهام التي يحملونها وهي في جعابها، وهم على فرق عدة يتسمون بأسماء أسلحتهم التي يحملونها، فمنهم أصحاب الدماغات، والأخوذة والطيرزينات[١٣٥]، ومنهم أصحاب الفؤوس والمناجل المكلفون بقطع الأشجار وإضرام النيران على جوانب الطرق أثناء العمليات العسكرية[١٣٦]، ومنهم من نسب إلى مكان سكناه مثل رجالة الأرباض -سكان أحياء قرطبة[١٣٧]، ومن كان تابعاً لسيده فتسمّى باسمه؛ كالعبيد الجعفريين أتباع جعفر بن عثمان المصحفي، والعبيد العامرية أتباع الحاجب المنصور العامري وأبنائه[١٣٨] من بعده وغيرهم، وأوجد منهم في جيشه مؤسس دولتهم الأمير عبد الرحمن الداخل سموا بالمماليك، استعان بهم على قهر أعدائه[١٣٩].

التعبئة وأساليب القتال:

المقصود بالتعبئة ما يقوم به الجيش من حشد وأعمال عسكرية تجهّزه للقتال[١٤٠]، ليكون تجهيزه مساعداً على كسب نصره، وإلا سيؤدي به الأمر إلى الخسران، وهذا ما حدث مع القائد هشام بن عبد العزيز في حربه ضد المتمرّد مروان الجليقي سنة ٢٦٢هـ/٧٥٠م، فخسر المعركة بسبب تهاونه وعدم اهتمّامه بتوفير المياه والمحافظة عليها، مما أدّى إلى موت كثير من الحيوانات التي معه عطشاً[١٤١].

وتهاون أحمد بن أبي عبده عند قيامه بالهجوم على تدمير دون التجهيز لها سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م، فأدّى الأمر إلى انكساره، ونظراً لأهمية التجهيز فقد كان صاحب خطته المسمى بصاحب العساكر يقوم بإعلان النفير العام في جميع أنحاء البلاد عند القيام بحملات كبرى، فتتقاطر الحشود متجهة صوب قرطبة[١٤٢]. أما في الحملات الصغرى والحرب المحدودة، فيقوم بها الجيش النظامي وحده.

والملاحظ أن التطوّع لم يكن إجبارياً منذ تأسيس الإمارة حتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي سمح به ولم يستثن أحداً حتى أهل الحاضرة، ثم عاد وألغاه، ثم

سمح به[١٤٣]، لكن الحاجب المنصور استغلى عن المستنفرين واعتمد على المرتزقة من فتيانه ورجاله من المشاة والفرسان إلى جانب البربر، خاصة من زناته التي امتازت بكثرة فرسانها[١٤٤]، فقد بلغ عدد فرسانه اثني عشر ألفاً، وعدد المرابطين في الثغور عشرين ألفاً، لكنه لم يستغن لا هو ولا غيره من الحكام عن المتطوعة؛ الرافدة للجيش دائماً والذي يزيد عدده بها. ففي إحدى السنين بلغ عدده ستة وأربعين ألفاً من الفرسان، ومائة ألف من المشاة[١٤٥]، ولدينا جدول يمدنا بإسهام الكور المشاركة في حروب الجيش النظامي منها البيرة (٩٠٠٠) فارس، جيان (٢٢٠٠) فارس، قبره (١٨٠٠) فارس، باغة (٩٠٠) فارس، تاكرنا (٢٦٩) فارساً، الجزيرة (٢٩٠) فارساً، تدمير (٢٥٦) فارساً، بينه (١٠٦) فرسان، قلعة رباح (٣١٧) فارساً، حصن شندله (١١٣) فارساً، قرمونه (١٨٥) فارساً، شذونه (٦٧٩٠) فارساً، والملاحظ أن إشبيلية ونبلة لم يرد ذكرهما، رغم أنهما في عداد الكور المجندة ويظهر مما ذكر أن النسبة الكبرى من الفرسان من البيرة وجيان وشذونة ورية؛ وقد بلغ ما قدمته هذه الكور من الفرسان (١٤٤٩٧) فارساً، من مجموع (٢٢١٤٨) فارساً، أما بقية الكور غير المسجلة في الكور المجندة فقد قدمت (٧٦٥١) فارساً، وربما كان تقديمها بدلاً من الضرائب المفروضة عليها[١٤٦]. وهذه الأرقام تخضع للزيادة أو النقصان اعتماداً على عدد السكان وعلى رخائهم -وقد سبق أن أشير إلى ذلك عند ذكر الضرائب-، وجرت العادة أن يشترك في البعوث كل من يقدر على حمل السلاح من أهل قرطبة، إلى أن جاء الأمير محمد بن عبد الرحمن، وأسقط ضريبة الحشود والبعوث عن أهل قرطبة وجعل الاشتراك في القتال عن طواعية واختيار، بينما لم يسقطها عن الكور الأخرى، وفي ظني أن هذا الإجراء كان المقصود منه التقرب إلى أهل الحاضرة وكسب ولائهم[١٤٧]، وهذا القرار بقي مستمراً إلى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي ألغاه وعادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل.

ومن الأساليب التي استخدمت في القتال، الاصطفاف، لقوله تعالى: (إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)[١٤٨]، الالتحام المباشر، ويحدث انضمام قطاعات الجيش بعضها إلى بعض، حيث تسير على مسافات متفاوتة فيما بينها[١٤٩]، وقبل لقائها تتجمّع بعد انضمام قوات الثغور لها القريبة منها، وقد يسبقها المبارزة الفردية مثل الذي حصل مع جيش الحاجب المنصور، حيث تقدّم علج لمبارزة عدد من أبطال جيشه فصرعهم، وجيء إليه برجل من الثغور فما هي إلا جولة حتى صرعه، وتقدم برأسه إلى المنصور الذي كافأه على بطولته[١٥٠]. والأندلسيون يعتدون بالمبارزة الفردية لما تثيره من جماسة وإقدام في النفوس خاصة عند أهل الثغور الذين يرون في براعة الفارس الذي يبرع الفرسان، وفي الجواد الذي يبرع الجياد ما يثير إعجابهم والحماسة في نفوسهم، وهذا ما يراه الطرطوشي[١٥١]، وابن سعيد المغربي اللذان يريان أن قوة الجيش بقوة ما فيه من أبطال، بينما يرى ابن خلدون أن قوته بقوة قبيلته، ولعل هذا الأمر راجع للفارق الزمني والاختلاف البيئي بين الطرطوشي وابن خلدون[١٥٢].

واستخدم الجيش أسلوب الكمائن والمفاجآت، ففي سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م، قام الأمير محمد بن عبد الرحمن بمحاربة ملك جليقة ومعه أهل مدينة طليطلة الثائرة، فعمل لهم كميناً بأن أظهر قوة عسكرية قليلة من جيشه، فلما رأوها أخبروا (أردون) بها فأمرهم بقتالها فما إن شتبكا معها حتى خرجت الكمائن من مخابئها وانتصرت على أهل طليطلة ومن معها من قوات (أردون)[١٥٣].

واستخدم الأندلسيون أساليب الحصار للمدن المتمرّدة، فقاموا بنقب الأسوار وهدمها بواسطة المهندسين والبنائين، مثلما حصل في أثناء حصاره لمدينة طليطلة، وفي نفس العام قام وبنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عسكرية وهي قلعة رباح وأوجد فيها الأسواق وشحنها بالمقاتلة من الفرسان والحشم[١٥٤]، الذين يرسلون أحياناً لمحاربة أهل الحصون، وقد يشركون معهم أهل الثغور ممن يسمون بجيش[١٥٥] الثغر في محاربتهم

وخض شوكتهم قبل وصول الجيش إليهم. وكان بناء مدن جديدة بالقرب من المدن المحاصرة من أنجح الأساليب في القضاء على التمرّد، أو ردّ العدوان الخارجي.

وبرع الجيش في الحروب الجبلية وخاصة أن الأندلس تمتاز بوعورة جبالها لاسيما في الشمال والشمال الغربي، فعمل العرفاء على فتح الطرق -وقد سبق الحديث عنهم- وعلى كشف المواقع الأمامية، وحماية الساقة -المؤخرة- من الكمائن[١٥٦]. وكانت لهم طرق حربية يسلكونها، حيث تخرج الجيوش من فحص شقندة بالقرب من قرطبة نحو الشمال مارة بطليطلة ومنها إلى وادي الحجارة، ثم مدينة سالم ثم سرقسطة ومنها إلى أطراف مملكة ليون. لكن قد تقتضي الظروف تغيير هذا الخط، مثلما حصل مع الأمير محمد بن عبد الرحمن، فقد سلكت الصائفة التي أعدّها بقيادة البراء بن مالك طريقاً يبدأ من قرطبة متجهاً نحو قلنبرية في البرتغال، وجرت العادة بعد عقد الألوية وتأدية الصلاة في المسجد أن تقرأ سورة الفتح وتنطلق الجيوش إلى غايتها[١٥٧].

ومهر الجيش في الصناعات الحربية، وعمل على تطورها حيث كان لها مراكز عدة مثل: إشبيلية، والمرية، ومرسية، وغرناطة، ونالت صناعاتهم الحربية شهرة فائقة، كانت تضاهي صناعة الصينيين بالإتقان، والترك في أساليب الاستخدام، ومع ذلك لم يترددوا في شراء الأسلحة بمختلف أنواعها، فالأسلحة الهجومية كان من أبرزها، قوس اليد وقوس الرجل والسيوف خاصة بوردو الفرنسية نسبة إلى المدينة الواقعة جنوب فرنسة، وهذه السيوف أثبتت جدواها في القتال عند أصحاب السواعد القوية والخبرة الجيدة بها، إلى جانب سيوف البرذليات نسبة إلى مدينة برذيل أو بوردويل الواقعة إلى الغرب من فرنسة، وسيوف فاس وسكاكينها، وسهام سبتة ورماحها، والمزاريق المستخدمة لحمل الأعلام[١٥٨].

أما الأسلحة الدفاعية، فكانت تتمثّل بالبيضة والخوذة والمعافر المسبلة وغيرها من الأسلحة، وكان من أسلحة الحصار الدبابة، وسلالم الحصار، والزيارة المستخدمة في

قذف السهام دُفعة واحدة، والمنجنيق الذي استخدمه الأمير عبد الرحمن الداخل، فقد اصطحب معه في حملته على مدينة سرقطة ٣٦٩ منجنيقاً؛ واستخدمه الأمراء والخلفاء من بعده في حربهم مع الممالك النصرانية في الشمال وفي صدّ هجومات النورمان، ورموا المدن المحاصرة بالقذائف الحارقة، واستخدموا ما يسمّى الآن بالأرض المحروقة، فيقوم العرفاء مع فرق مختصة بحرق المحاصيل وقطع الأشجار، وفي نقل المعركة إلى أرض العدو وفرضها عليه في المكان والزمان اللذين يريدانها، وهذا ما حصل مع الخليفة الناصر عند غزوه للشمال النصراني، فقد أهلك موارد عدوه الاقتصادية وأجبر قواته أن تنزل فرأدّى من عليائها وهي في مواقعها الحربية على رؤوس الجبال بشكل غير منظم يصحبها الفوضى والاضطراب والرعب، بينما قواته متماسكة رابطة الجأش متعاونة فيما بينها، فأدّى الأمر إلى انتصاره عليها. ويشير الطرطوشي إلى كيفية قتالهم مع عدوهم، حيث يصطفون ضمن ترتيب معين، يتقدمهم الرجالة -المشاة- بدروعهم ورماحهم، فيرصّون صفوفهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وصدورهم مشرعة إلى عدوهم، وهم جاثمون على الأرض، وكل رجل منهم ألقم الأرض ركبته اليسرى، ورأسه قائم بين يديه، وخلف الرجالة الرماة وخلف الرماة الفرسان، فإذا حمل العدو عليهم بالرماح، ابتعدوا عن بعضهم قليلاً يمنة ويسرة لتترك فتحات تخرج منها الخيول التي تشق الصفوف وتحسم المعارك.

وكان تجهيز الحملات العسكرية يتمّ باستمرار طوال العام، وقد سُمّيت بالصوافي والشواتي نسبة للفصول التي يتمّ إعدادها بها، ويسمي صاحبها بصاحب الصوائف. منهم عبيد الله البلنسي الذي تولّى الصائفة التي انطلقت من قرطبة إلى الشمال الإسباني سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م، وعادة ما تبدأ الصوائف منذ فصل الربيع في شهر أيار، وأحياناً تتقدم عن موعدها لحصول ظروف طارئة. فقد جهز الخليفة الناصر حملة صائفة في شهر نيسان سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م، لمقاتلة أهل بنبلونة الذين اعتدوا على أحد حصون مملكته، وبالجملة قد تصبح الصائفة شاتية وقد تصبح الشاتية صائفة بسبب

طول بقائها في الميدان دون أن تحقق أهدافها فيمضي الصيف ويدخل الشتاء وهي ما زالت في الميدان، وقد تتحكم في أعدادها الموارد الغذائية، كما حصل في زمن الحاجب منصور، حيث قام بأعدادها ولكن البلاد أصيبت بالقحط، فأراد أن يستعين بالمغرب الشهير بإنتاجه للحبوب، ولكن الله منّ عليه بالأمطار فأخصبت الأرض بعد جفافها، وفي حالة عدم توفر الإمكانيات، يلجأ الحاكم إلى تحصين الثغور وضبط الأطراف فيتحوّل من هجوم إلى دفاع، وجرت العادة أن يصطحب الجند معهم إلى الميدان نساءهم لتشجيعهم على القتال وتذكيرهم بمصائرهن عند الفرار، وبقيت هذه العادة حتى أيام بني مرين في المغرب الأقصى الذين كانوا يصطحبون نساءهم معهم في الهودج للغرض نفسه، وقد أخطأ دوزي عندما وصف هؤلاء النساء، بنساء للجند منطلقاً من مفاهيمه الخاصة به ومن التأثر ببيئته.

الخاتمة:

نوّه البحث بجغرافية الأندلس وما بها من تضاريس جعلتها متعدّدة في مناخها متنوّعة في تضاريسها، الأمر الذي جعل النظام نظاماً لا مركزياً. هذا الوضع الجغرافي المعقّد هو الذي أجّج النار بين المسيحية والإسلام؛ وانعكس على الوسائل التربوية في تدريس الصبيان.

ونطرّق البحث إلى قدوم البلديين مع الشاميين واندماجهم بعضهم ببعض وسموا فيما بعد بالجنديين، وأشار البحث إلى الرايات والبنود والأعلام وإلى كثرتها التي تزيد من الهياج أو النشوة في ميدان القتال أو عند الاستعراض، ونظراً لأهميتها فقد اختصت بتقسيم الجيش إلى فرق، وبلغ من مكانتها في نفوس الأمراء والخلفاء، أن قدم الخليفة عبد الرحمن الناصر لحليفه موسى بن أبي العافية زعيم قبيلة مغراوة الزناتية في المغرب عدداً منها.

والواضح أن الجيش لم يعتمّد كما هو الآن على الإقليمية، بل اعتمّد على التمّاثل في العمل، يحدو جميع أفراده خدمة الإسلام والمسلمين. ورغم ذلك فقد استقدم الأمير عبد الرحمن الداخل عدداً من البربر، كان القصد من استقدامهم خض شوكة العرب التي باتت تقضّ مضجعه، كما استقدم عدداً من المماليك السود من أفريقية السوداء وضمّها إلى ما يسمّى بعرافة السود كان الغرض منها الاستعانة بها في فض المنازعات.

وعمل مثله الحاجب المنصور العامري الذي استقدم منهم الكثير وسمّوا بالرقاصة، إلى جانب مجموعات كبيرة من فرسان البربر.

واستكثر الأمراء والخلفاء من الصقالبة الذي يأتون بهم من بلاد البلغار، واستحدث الخليفة الحكم الثاني بعد ثورة الربض ما سمي بنظام الجيش الدائم، واستكثر الأمراء والخلفاء من الخرس الذين سموا بذلك لعجميتهم، وهؤلاء امتازوا بالشدة مع قمع الفتن، فكانوا مصدر هلع وخوف لأهل البلاد وخاصة أهل الحاضرة قرطبة.

وفي زمن الخليفة هشام المؤيد؛ قام الحاجب المنصور بإصلاحات عسكرية، فجعل الجيش مكوّناً من عدة عناصر بدلاً من عدة فرق، وأجرى لكل جندي راتباً شهرياً يتقاضاه عند نهاية كل شهر.

وتميّز المتطوعون المغاربة باستقلاليتهم ، فكانوا يأتون إلى الأندلس في شهر رمضان يمارسون الجهاد احتساباً لله.

وأما القيادة فكان الأمراء والخلفاء يتولونها في بعض الأحيان، ثم صاروا يوكلونها لأحد أبنائهم أو لأحد قادتهم ممن يثقون به بعد هزيمة الخليفة عبد الرحمن الناصر في معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ/٩٣٧م، وابتكر الخليفة الحكم الثاني سنة ٣٦١هـ/٩٧١م، منصباً جديداً في الجيش؛ سمي صاحبه بالقائد الأعلى للجيش الأندلسي، وأسند قيادته لغالب بن عبد الرحمن.

واستخدمت الخيول في القتال خاصة في المناطق الجبلية، وقد استقدم منها الحاجب المنصور ألف فرس عدوية مغربية.

واختصّت خزانة السلاح بتزويد الجند بالسلاح عند التدريب أو القتال، وأما خطّة العرض ويسمّى صاحبها بالعارض، فيقوم بتفقد الجند عند عرضهم على الخليفة الذي يستعرضهم كل متقلّد لسلاحه راكب لفرسه وهم في غاية الضبط، وبعد الاستعراض، يأمر الأمير أو الخليفة بتفقد مخازن السلاح والإهراءات من القمح والأقوات. وعلوفات الدواب، وبعدها يوزع العطاء إما قبل القتال أو بعده، وبقي الأمر هكذا إلى أن جاء الحاجب المنصور وجعله بنداً من بنود الميزانية.

وأما العرفاء فقد تعدّدت تخصّصاتهم بحسب مهنهم التي يمارسونها، ووجدت خطة العيون والجواسيس الذين انقسموا فيما بعد إلى ثلاثة أصناف، صنف يتقن اللغة اللاتينية وهذا يعمل لصالح العرب المسلمين، وصنف يتقن اللغة العربية وهذا يعمل لصالح الفرنجة، وصنف يتقن اللغتين معاً وهذا يعمل لمن يدفع أكثر.

ومن الفرق الرجالة أو المشاة الذين يتقدّمون الصفوف الأمامية ويسمون بأسلحتهم أو بالأماكن التي يتواجدون فيها وهم يشكّلون الدرع الواقي للجيش، وقد يتّخذ القادة التدابير قبل بداية القتال، ومن تهاون بها وقع في الخسران.

وقد تضمن البحث جدولاً بالكور التي اشتركت في القتال، وأوضح البحث أهمية المبارزة الفردية وما لها من أثر في تأجيج النفوس، وأشار إلى الكمائن وما بها من عناصر المفاجأة وإلى أساليب القتال وخاصة في الجبال، وفي ذكر الأسلحة بأنواعها المختلفة، ونوّه البحث بما أشار إليه المؤرخ الطرطوشي عن طرق القتال عند الأندلسيين، وأشاد البحث في الصوائف والشواتي، وما يقوم به جند الثغور بملء المخازن بالحبوب تحسباً للهجوم والحصار. وعن العادة المستخدمة في الجيش، باصطحاب النساء إلى المعركة، حيث بقيت هذه العادة في المغرب إلى قبيل العصور

الحديثة، وبعد فهذه لمحة موجزة عمّا تضمنه البحث، وعمّا ورد فيه من عناصر تشابكت مع بعضها فرسمت صورة واضحة له.

نتائج البحث:

١-توصّل البحث إلى أن الوضع الجغرافي في الأندلس كان له أثره في سقوطها بيد المسلمين، وله تأثيره في تأجيج نار الصراع بين المسيحية والإسلام، ولذا عمل المربّون على تربية الأجيال تربية عسكرية للدفاع عن حياض الإسلام.

٢-توصّل البحث إلى وجود **نظام الإقطاع العسكري** على غرار ما كان عند البيزنطيين، الأمر الذي أدّى إلى انقسام الجيش عدّة فرق تسمّت بأسماء متعدّدة.

٣-بيّن البحث أهمية الرايات والأعلام عند الأمراء والخلفاء، وأشار إلى ما لها من دلالات في تنوّع الفرق وعددها.

٤-أشار البحث إلى ما يتّخذه المجاهدون من تهليل وتكبير وقراءة القرآن في أثناء المعركة.

٥-بيّن أن المفاهيم الجهوية السائدة الآن، لم يكن لها وجود؛ فكانت العقيدة هي الحافز لجميع الفرق على اختلاف أجناسها وأماكنها.

٦-بيّن الأهمية الإيجابية لتعدّد العناصر في الجيش، وإلى السلبية فيه إن لم يحسن الحاكم التصرف.

٧-اهتمّ الحاكم بوجود فئة في الجيش ترتبط مصالحها بالحاكم، ولذا فهي حريصة على المحافظة عليه لتحقيق مصالحها.

٨-أدخل الحاجب المنصور ما يسمّى بالإصلاحات العسكرية، وجعل الجيش وحدة نظامية متماسكة، مما سهّل السيطرة عليه.

٩-أُلْغِيَ نظام التطوع في زمن الخليفة الناصر، ثم عاد وأدرجه من جديد لما له من أهمية في زيادة عدد القوات العسكرية خاصة في الحملات الكبرى.

١٠- أشار البحث إلى المجاهدين خاصة من المغاربة الذين كانوا ينظّمون أنفسهم دون الرجوع للسلطة الحاكمة، والذين سمّوا فيما بعد بفرق الغزاة.

١١- تضمّن البحث عدداً من المسميات والخطط، كل لها عملها واتساقها مع غيرها ويظهر هذا واضحاً في الاستعراض العسكري

١٢- تضمّن البحث جدولاً بالكور والمقاطعات التي كانت تزود الجيش بما يحتاجه من مجاهدين عند إعلان النفير.

١٣- أورد البحث مسمّيات لأنواع من الضرائب لم تكن موجودة من قبل.

١٤- نوّه البحث بوجود جواسيس مبيّناً أهميتهم في القتال للمعلومات التي يقدّمونها للجيش.

١٥- أشار البحث إلى أساليب وطرق القتال للجند عند ملاقاتهم للعدو، وإلى اصطحاب المقاتلين نساءهم معهم إلى المعركة قصد التشجيع والاستبسال في الميدان.

الحواشي

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمته**، ت- علي عبد الواحد وافي، ط٣، دار النهضة، القاهرة، د-ت، ج٢، ص١١٥.

(٢) العبادي، أحمد مختار، **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، ط-منشأة المعارف-، الاسكندرية، ص ١١ وما بعدها. حتاملة، محمد عبده، موسوعة الديار الأندلسية، ط -عمان- الأردن، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج١، ص ١١ وما بعدها.

(٣) ابن عذاري، المراكشي، **البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب**، القسم الثالث، الخاص بتاريخ الموحدين، نشر أويثي ميراندا، ط -تطوان، د-ت، ص ٢٠٨، العبادي، أحمد مختار، **صور من حياة الحرب**، ص ١٦-١٧.

(٤) ابن السماك العاملي، **الزهرات المنثورة**، ت- محمود مكي، مدريد، ١٩٨٤م، ص ١٢٢-١٢٣، العبادي، **صور من حياة الحرب...**، ص ١٨.

(٥) ابن الخطيب، أبو عبد الله لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ت- محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣، ج١، ص ١٠٢.

(٦) نفسه، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، ط -دار الآفاق-، بيروت، ١٩٧٨، ص ٢٦، حول ثورة البربر ودخول بلج الأندلس، انظر: أبو دياك، صالح، الوجيزفي **تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة الكناني، إربد، ١٩٨٨، ص ١٩٧-٢٠٣.

(٧) ابن الآبار، أبو عبيد الله محمد بن عبد الله القضاعي، **الحلة السيراء**، ت- حسين مؤنس، المؤسسة العربية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٣ـ ص ٦٤.

(٨) ابن عذاري، **البيان المغرب**......، ت- كولان وبروفسال، ط -دار الثقافة-، بيروت، ١٩٨٣، ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ت- محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣، ج١، ص ١٠٣.

(٩) ابن الخطيب، **الإحاطة**......، ص ١٠٤-١٥٠.

(١٠) ابن عذاري، **البيان**....، ج٢، ص ٦٣، ٥٣، ٥٤.

(١١) يبدو أن اللواء الذي عقده الأمير عبد الرحمن عند دخوله الأندلس، أصبح رمز القتال عند الخلفاء والأمراء، والقادة والجند من بعده، فكانوا يحافظون على قطعة القماش التي عقدها اللواء، وتدولها الحكام من بعده حتى عهد الحكم بن هشام، فقد استبدلها القائد عبد الرحمن بن غانم، ولما علم أحد القادة واسمه جهور أنكر عليه عمله، وأخذ يبحث عنها فلم يجدها، وإن دلّ هذا على شيء بإنما يدل عما كان لعبد الرحمن من مكانة في نفوس الجند والأمراء والذين جاءوا من بعده، عنه، انظر: مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة في ذكر الأندلس وذكر أمرائها**...، ط -مجريط- إسبانية ١٨٦٨م، ابن القوطية، أبو بكر بن محمد بن عمر القرطبي، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ت- ابراهيم الأبياري، دار الكتاب، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٤٨-٤٩، عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٩٤م، ص ٨٨.

(١٢) العبادي، أحمد مختار، **صور من حياة الحرب والجهاد**......، ص ٧٣، ولمزيد من الاطلاع على الرايات، انظر: عبد الحي الكناني، **التراتيب الإدارية في المدينة المنورة العليا**، الرباط، ١٣٤٩هـ، ج١، ص ٣٢٢.

(١٣) ابن هذيل، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن، **تحفة الأندلس وشعار سكان الأندلس**، نشره وترجمه إلى الفرنسية، لويس مارسيه، باريس، ١٩٦٤، ص ٥٦.

(١٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص ٦٩٧.

(١٥) ابن حيّان، أبو مروان خلف بن حيان القرطبي، **المقتبس**، نشـــر، شـالميتا وكورنيطي ومحمود صبح، مدريد، ١٩٧٩، ج٥، ص ٣٥٣.

(١٦) العبادي، **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلـس**، Amercio Castro: .Buenosaires. 1948, OP: cit:P 31,30

(١٧) الطرطوشي، أبو بكر سراج الملوك، دار صادر، بـيروت، ط١، ص ٤١٦ وما بعدها.

(١٨) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن الحسين الحضرمي التونسي، **المقدمة**، ت- علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٧٣، ج١، ص ١٠٢.

(١٩) المقّري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، **نفـخ الطيـب فـي غصـن الأندلس الرطيب...**، ت- محمد محي الدين عبد الحميد، ط -القاهرة، ١٠٣٢هـ، ج٤، ص ٢١٨.

(٢٠) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ت-محمد عبـد الله عنـان، ط- القاهرة، ١٩٧٣م، ج١، ص١٠٢.

(٢١) ابن الآبار، **الحلة السيراء**، ج١، ص ٦٤.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل، انظر: أبو دياك، صالح، **الوجيز في تـاريخ المغـرب والأندلس**، إربد، ١٩٨٨، ص ١٩٧-٢٠٠.

(٢٣) ابن الآبار، **الحلة السيراء**، ج١، ص ٦٤.

(٢٤) العبادي، **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، ص ٥٦.

(٢٥) ابن عذاري، **البيان المغرب......**، وبروفنسال، ط -دار الثقافة-، بـيروت، ١٩٨٣،ج٢، ص ٣٣، ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار**، ج١، ص ٦٤، العبادي،

صور من حياة الحرب والجهاد...، ص ٥٠ ومابعدها، أبو ديـــاك، الوجـــيز، ص ٢٠٨.

(٢٦) مؤلف مجهول **أخبار مجموعة**، ص ٨٧.

(٢٧) **نفسه**، ص ٨٩-٩١.

(٢٨) مؤلف مجهول **أخبار مجموعة**، ص ٨٧.

(٢٩) ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص ٥٣.

(٣٠) مؤلف مجهول **أخبار مجموعة**، ص ٩١.

(٣١) **نفسه أخبار مجموعة**، ص ١٠٩.

(٣٢) مؤلف مجهول **أخبار مجموعة**، ص ١٠٩.

(٣٣) ابن حيان، **المقتبس**، ت-الحجي، ص ٧٨.

(٣٤) **نفسه**، ص ١٩٠-١٩.

(٣٥) **نفسه**، ص ٧٨، ابن العذاري، **البيان**، ج٢، ص ٢٢٢.

(٣٦) ابن حيان، **المقتبس**، ت-الحجي، ص٥٩-٩٠، ١٦٣..

(٣٧) امتاز هذا النوع من الرجال بطول القامة ونحافة الجسم وسرعة الحركة، وقد استخدموا بالمراسلات،ــ ولليوم المغاربة يسمون ساعي البريد بالرقـــاص نســـبة إليهم، عنهم وعن عرفانهم أصحاب الرسائل، انظر: ابن حيان، **المقتبـــس**، ت-الحجي، ص ٩١، العبادي، **صور من حياة الحرب والجـــهاد**....، ص ٩٣، أبـــو دياك- صالح، **دراسات في التاريخ الإسلامي** ، ز.، ط-عمان، ١٩٨٥، ص ٩٦، وعن قدومهم، انظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام مـــن ملوك الإسلام**، ت- ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦م، ص ١٠٢.

(٣٨) ابن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن الجزيرة**، القسم الأول، ت- إحسان عباس، ط-دار الكتاب، بيروت، ١٩٧٨م، ج٤، ص ٥٢.

(٣٩) عنان محمد، **دولة الإسلام في الأندلس**، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٤٩، ص٢٥٠.

(٤٠) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، **صورة الأرض**، ط- دار الحياة، بيروت، ص١٠٦، العبادي، أحمد مختار، **الصقالبة في إسبانية، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية**، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٣،ص ١٠، عنان عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس، من الفتح على بداية عهد الناصر**، ط٣، القاهرة، ١٩٨٨، ج١، ص٢٧٧.

(٤١) ابن حيان، **المقتبس**، نشر-لمشوار انطوانيه، باريس، ١٩٣٧م، ص٩٤.

(٤٢) المقري، أحمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب**...، ط= دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج١، ص ٣٨٧، ط- دار صادر، بيروت، ١٩٨٦، ج٢، ص ٤٧، ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلي المغرب**، ت- شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٣٤٩، ص ٢٥٠.

(٤٣) العبادي، **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، ص ٦٣، ص ٦٦.

(٤٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ٧٩.

(٤٥) ذنون، عبد الواحد، **دراسات في التاريخ الأندلسي**، ط١، الموصل، ١٩٨٧، ص ٤٥.

(٤٦) **نفس المرجع ونفس الصفحة.**

(٤٧) العبادي أحمد ، مختار، **صور من حياة الحرب والجهاد**...، ص ٦٣، ص ٦٦.

(٤٨) ابن عذاري، **البيان**، ص ٢٢٢.

(٤٩) المقري، **نفح الطيب**، ج١، ص ٣٨٧.

(٥٠) العبادي أحمد ، مختار، **صور من حياة الحرب والجهاد...**، ص ٦٣.

(٥١) ابن زيري، عبد الله الصنهاجي، **كتاب البيان عن الحادثة بدولة بني زيري في غرناطة**، ت- بروفنسال، تحت عنوان: **مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة**، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥م، ص ١٦، ابن عذاري، البيان، ج١، ص ٢٣١-٢٦٢ وما بعدها، العبادي أحمد مختار، **صور من حياة الحرب والجهاد...**، ص ٥٤.

(٥٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ٢٢٦.

(٥٣) العبادي أحمد ، مختار، **صور من حياة الحرب والجهاد...**، ص ٦٢، أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس ...، ص ٣٨٧ وما بعدها.

(٥٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ٩٤؛ ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ج١، ص ٣٩.

(٥٥) ذنون، عبد الواحد، **دراسات في التاريخ الأندلسي**، ص ٤٩.

(٥٦) ابن حيان، **المقتبس**، نشر-لمشوار انطوانيه، باريس، ١٩٣٧م، ص٥٣-٥٤، ذنون، **دراسات**، ص ٤٩.

(٥٧) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ١٣٠.

(٥٨) **نفسه**، ص ٢٤٤.

(٥٩) **نفسه**، ص ٩٤.

(٦٠) ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص ١٩٠.

(٦١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ١٠٠.

(٦٢) ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص ١٠٠.

(٦٣) ورد ذكر الحفد في عهد الحكم الربضي، وتشير المصادر إلى أنها من الفئات العسكرية في الجيش، استكثر منها الحكم بن هشام، ويبدو أنها جماعة من الرقيق تقوم على خدمة الحكام، بدليل ما أشار إليه ابن منظور لأنهم الأعوان والخدمة ومفردها حافد، انظر: ابن سعيد المغربي في **حلي المغرب**، ج١، ص ٣٩، ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د-ت، **مادة حفد**.

(٦٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ١٣٠-٢٤٤.

(٦٥) العبادي، **صور من حياة الجهاد**، ص ٦٠-٦١.

(٦٦) المقري، **نفح الطيب**...، ت- إحسان عباس، ط-دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٨٦.

(٦٧) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٢٣٤.

(٦٨) مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة**، ت- الأبياري، ط- دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٠، ت- الحجي، ١٩٥، ذنون، عبد الواحد، **دراسات في التاريخ الأندلسي**، ص ٥١.

(٦٩) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٩٣، ص ١٠٦.

(٧٠) العسلي، بسام، **عبد الرحمن الناصر**، ط١، دار النفائس، بيروت، ص ٨٤-٨٥.

(٧١) لقد كانت تعرقل حركة الجيش وسرعة مناورته مما يؤدي إلى صعوبة التوغل في أراضي العدو، إلى جانب ما تحتاجه من كثرة المؤن، راجع، ابن

عذاري، **البيان المغرب**، ت، بروفنسال، ط٣، بيروت، لبنـــان، ١٩٨٣، ج٢، ص ١٠٩.

(٧٢) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٢٢٦.

(٧٣) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، ت- بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٦٨.

(٧٤) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٤٨.

(٧٥) ابن حيان، **المقتبس**، نشر- شاميتا، ص ٤٣٦، ص ٤٣٧، أبو عبد الله بـــن عبد الله بن عبد المنعم، **الروض في خبر الأقطار**، ت- إحسان عباس، بـــيروت، ١٩٨٤، ص ٨٩.

(٧٦) ابن حيان، **المقتبس**، نشر- شاميتا، ص ٤٣٦، ص ٤٣٧، ابـــن عـــذاري، **البيان**، ت- كولان، ط٣، بيروت، ١٩٨٣، ج٣، ص ٤، أبو دياك، **الوجـيز**، ص ٣٨٣.

(٧٧) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٦٩.

(٧٨) **ابن حيان**، ص ٧٨.

(٧٩) **نفسه**، ١٧٧، ١٥١، ٥٠، ٣٠.

(٨٠) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، **صورة الأرض**، بـــيروت، د-ت، ص ١١٠.

(٨١) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ١٥، ص ١٩.

(٨٢) ابن سعيد المغربي الغرناطي، أبو الحسن علي، **كتاب رايات المبرزين وغايات المميزين**، نشر -حاربتا، ونعمان عبد المنعال القاضي، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٠.

(٨٣) العذري، احمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي، **ترصيع الأخبار، وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والممالك إلى الممالك**، نشرت عبد العزيز الأهواني، مدريد، ١٩٦٥، ص ٢، العبادي، **صور من حياة الحرب...**، ص ٣٦.

(٨٤) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٨٧.

(٨٥) **نفسه**، ص ١٥١.

(٨٦) **نفسه**، ص ٧٨.

(٨٧) وقد يفرن معها العقل فتسمّى بخزانة السلاح والعقل وهذه الكلمة مأخوذة من المعاقل التي لا تقل أهمية عن خزانة السلاح في تأدية هذا الغرض، انظر: ذنون، **دراسات التاريخ الأندلسي**، ص ٥٩.

(٨٨) ابن عذاري، **البيان**، ت -بروفنسال وكولان، ص ٣، ص ٤-١٦.

(٨٩) ابن عذاري، **البيان**، بروفنسال، ج٢، ص ٢٣٥.

(٩٠) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص٤٠-٦٣-٩٢.

(٩١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ٢٠٣.

(٩٢) **نفسه**، ص ٢١٣.

(٩٣) ابن حيان، **المقتبس**، ت- شاميتا، ص٤٨٨.

(٩٤) ابن عذاري، **البيان**، بروفنسال، ج٢، ص ٢٣٥.

(٩٥) ابن عذاري، **البيان**، بروفنسال، ج٢، ص ٢٠٢.

(٩٦) **نفس المصدر**، ونفس الصفحة.

(٩٧) **نفسه**، ص ١٥٩.

(٩٨) **نفسه**، ص ١٤٦.

(٩٩) العبادي أحمد ، **مختار، صور من حياة الحرب والجهاد**...، ص ٧٢.

(١٠٠) المقري، **نفح الطيب**، ط- صادر بيروت، ١٩٦٨ج١، ص ٤١٩.

(١٠١) ابن عذاري، **البيان**، ط٣، بيروت ١٩٨٣، ج٢، ص ٢٢٢.

(١٠٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٢، ص ٢٢٢، ابن حيـــان، **المقتبـــس**، ت- الحجي، ص ١٩٣ــ ص ٢٢٣، العسلي، **عبد الرحمن الناصر**، ص ٨٢.

(١٠٣) ذنون دراسات **في التاريخ الأندلسي**، ص ٥٦، ما بعدها، العبادي، **صور من حياة الحرب**، ص ٦٩، للمقتبس، ت- الحجي، ص ١١٦-١١٧.

(١٠٤) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملـــوك الإســـلام**، ت- بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٩٩، مختار، **صور من حياة الحـــرب**، ص ٦٩، ص ٧٠.

(١٠٥) المجالي، سحر عبد الحميد، **تطور الجيش العربي في الأندلس**، ط١، عمـــان، الأردن، ١٩٩٥، ص ١٧١.

(١٠٦) العبادي، **صور من حياة الحرب**، ص ٧٠.

(١٠٧) **نفس المرجع**، نفس الصفحة.

(١٠٨) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ١٧٩، ذنون، **دراسات في التاريخ الأندلسي**، ص ٥١.

(١٠٩) أبو دياك، **الوجيز**...، ص ٢٠٧، ص ٢٠٨، ذنون **دراسات**، ص ٤٠.

(١١٠) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ت- عنان، ج٢، ص ٩١.

(١١١) ذنون، **دراسات**، ص ٧٨.

(١١٢) ابن حيان، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ١١٨.

(١١٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ١١٤.

(١١٤) مؤلف مجهول، **أخبار المجموعة**، ص ١٥٩، ص ١٥١.

(١١٥) خصص عبد الرحمن الناصر ثلث جباية البلاد للإنفاق على الجيش، عنه، انظر: **نفح الطيب**، ج٣، ص ٣٧٩، ج١، ص١٤٦، وعن منصور العامري، انظر: ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ط- بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٣١.

(١١٦) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، ت- بروفنسال، ط٢، بيروت، ١٩٥٦، ص ٩٨.

(١١٧) الحميري، أبو عبد الله محمد بن عند المنعم السبتي، **صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار**، ت - بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ٢٥٠، ص ٢٥١، الملحق، العبادي، **صور من حياة الحرب**...، ص ٥٣.

(١١٨) **نفس المرجع**، نفس الصفحة.

(١١٩) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، دار الثقافة، بيروت، ص ١١٤.

(١٢٠) **نفسه**، ص ٧٥، ص ٢٩٥.

(١٢١) **نفسه**، ص ٩٦، وعن هدم الجسور زمن الحاجب المظفر عبد الملك، راجع **البيان**، ج٣، بيروت، ص ٢١، ص ٢٢.

(١٢٢) مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة**، ص ١٢٩، ص ١٣٠.

(١٢٣) ابن حيان، **المقتبس**، ت- محمود مكي، نشرت شاميتا، الرباط، ص٢١٤، الحجي، ص ١١٨.

(١٢٤) **نفسه**، ت- الحجي، ص ٤٥، ص ١٦٩.

(١٢٥) **نفسه**، ص ٩٠، ص ٩١، **المقتبس**، ت- مكي، ص ٢١٤.

(١٢٦) **نفسه**، ت- الحجي، ص ٢٥.

(١٢٧) نفسه، ت- مكي ، ص ٨٧.

(١٢٨) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٩٩.

(١٢٩) ابن حيان ، **المقتبس**، ت- مكي، ص ١٣١.

(١٣٠) العبادي، **صور من حياة الحرب**، ص ٧٥.

(١٣١) **نفس المرجع والصفحة**.

(١٣٢) ابن حيان ، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٩٣.

(١٣٣) ابن حيان ، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٩٧.

(١٣٤) مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة**، ص ١١٠.

(١٣٥) ابن سيده، أبو الحسن، **المخصص**، المكتبة التجارية، ط- بيروت، ١٩٦٧، السفر ٦، ص٤٣، ابن حيان ، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ٤٥.

(١٣٦) **نفسه**، شاميتا، ص ٣٣٨.

(١٣٧) ابن عذاري، **البيان**، ط٣، بيروت، ١٩٨٣، ابـن حيـان ، **المقتبـس**، ت- الحجي، ص ٤٥.

(١٣٨) ابن حيان ، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ١٩٦، ابن عـذاري، **البيـان**، ت- بروفنسال، ...، ص ٥١، ٧٩.

(١٣٩) مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة**، ص ٩١-١٠٩.

(١٤٠) ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد التلمسـانـي، تـاريخ إسـبانية، المسمى بـ (**أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام مـن ملـك الإسـلام**)، ت- بروفنسال، ط٢، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٠٢.

(١٤١) **ابن عذاري**، بروفنسال...، ج٢، ص ١٣٨.

(١٤٢) **ابن عذاري**، ج٣، ص ٤، ص٥.

(١٤٣) **ابن عذاري**، **البيان**، ط٣، بيروت، ١٩٨٣، ج٢، ص ١٠٩.

(١٤٤) ابن حيان ، **المقتبس**، ت- الحجي، ص ١٩٣.

(١٤٥) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ١٠٢.

(١٤٦) ابن عذاري، **البيان**، ط٣، بيروت، ١٩٨٣، ج٢، ص ١٠٩.

(١٤٧) ذنون، **دراسات**، ص ٥٤، ص ٥٥.

(١٤٨) سورة الصّف، أية ٦١.

(١٤٩) العبادي، **صور من حياة الحرب**، ...، ص ٧٥.

(١٥٠) الطرطوشي، أبو بكرمحمد، **سراج الملـوك**، دار صـادر، بـيروت، ط١، ١٩٩٥، ص ٤١٣، ص ٤١٤.

(١٥١) **نفسه**، ص ٤٢٣.

(١٥٢) العبادي، **صور من حياة الحرب...**، ص ٨٧.

(١٥٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ٩٤، ص ٩٥، ص ٢١٦، ٢١٧، العسلي، **عبد الرحمن الناصر**، ص ٢٣.

(١٥٤) حصل هذا في زمن الخليفة الناصر عبد الرحمن الذي بنى مدينة بالقرب من طليطلة أثناء حصاره لها سميت بمدينة الفتح سنة ٣١٨-٩٣٠هـ، وبنى حصناً بالقرب من بيشتر معقل ابن حفصون، عنه، انظر: ابن حيان، **المقتبس**، نشر- شاميتا، ص ٣٨٣، ص ٢١١، وخص الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور دينارين كل شهر تدفع من الديون مع قطعة ارض لزراعتها لكل من يرغب بالاستقرار بالقرب من إحدى الحصون المفتوحة في برشلونة، انظر: **ابن عذاري**، البيان، ط ١٩٨٣، ج٣، ص ٧، ذنون، **دراسات**، ...، ص ٦٩.

(١٥٥) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ٢٥٦.

(١٥٦) ابن عذاري، ص ٩٥، ص ٧٥.

(١٥٧) المقري، **نفح الطيب**، ط- دار الكتب العملية، بيروت، ط١، ص ٣٤٣، ابن الآبار، الحلة السيراء، ت- مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ط١، ص ١٣٥، هامش ٢.

(١٥٨) ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي، **كتاب فرحة الأندلس في تاريخ الأندلس**، ت- لطفي عبد البديع، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٠، العبادي، **صور من حياة الحرب...**، ص ٤٢-٤٣.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، سورة الصف

ابن الآبار، أبو عبيد الله بن عبد الله القضاعي.

- الحلة السيراء، ت-حسين مؤنس، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.

ابن بسام الشنتريني.

- الذخيرة السنية في محاسن الجزيرة، القسم الأول، ت-إحسان عباس، ط-دار الكتاب- بيروت، ١٩٧٨م.

الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم.

- – الروض المعطار في خبر الأقطار، ت-إحسان عباس، ط-دار الكتاب- بيروت، ١٩٧٨م.
- صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، ث- بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧م.

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي.

- صورة الأرض، ط-دار الحياة- بيروت، د-ت.

ابن حيان، أبو مروان بن خلف القرطبي.

- المقتبس في أخبار الأندلس، نشر-لمشوار أنطوانية، باريس، ١٩٣٧م، ت-علي عبد الرحمن حجي، ط-دار الثقافة- بيروت، ١٩٦٥م، نشر شالميتا وكورنطي ومحمود صبح، ط-مدريد- ١٩٧٩م.

حتاملة محمد عبده.

- موسوعة الديار الأندلسية، ط -عمان- الأردن، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن الحسين الحضرمي التونسي.
- المقدمة، ت-علي عبد الواحد وافي، ط -القاهرة، د-ت، القاهرة، ط- ١٩٧٣م.

ابن الخطيب، أبو عبد الله لسان الدين.

- الإحاطة في أخبار غرناطة، ت-محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط- القاهرة، ١٩٧٣مز
- اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ط -دار الآفاق-، بيروت، ١٩٧٨.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ت-ليفي بروفنسال، ط -بيروت، ١٩٥٦م.

أبو ديّاك صالح

- الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الكتاني، إربد، ١٩٨٨م.
- دراسات في التاريخ الإسلامي، الحضارة الإسلامية ومؤسساتها، ط -عمان، ١٩٨٥م.
- نظم الحكم والإدارة في دولة بني مرين (بني عبد الحق)، في المغرب الإسلامي، رسالة ماجستير.

ذنون، عبد الواحد

- دراسات في التاريخ الأندلسي، ط- الموصل، ١٩٨٧م.

ابن زيري عبد الله الصنهاجي

- كتاب البيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطـــة، ت- بروفنســال تحت عنوان مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيـــري بغرناطـــة، ط-دار المعرف- القاهرة، ١٩٥٥م.

ابن السماك العاملي

- الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المنثورة، ت- محمود مكـــي، ط -مدريـد، ١٩٨٤م.

ابن سعيد المغربي

- المغرب في حلي المغرب، ت- شوقي ضيف، ط- القاهرة، د-ت-ط- القـــاهرة، ١٩٦٩م.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن الحسن

- المخصص، المكتبة التجارية، ط- بيروت، ١٩٦٧م.، الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري.

- سراج الملوك، ط- دار بيروت، ١٩٦٥م، ١٩٩٥م.

ابن عذاري، المراكشي

- البيان المغرب في اختصار المغرب، ت- ميراندا، ط- تطوان، د-ت، ت-كولان وبروفنسال، ط- بيروت، د-ت، ط- بيروت، ١٩٨٣م.

عبد الحي الكتاني

- التراتيب الإدارية في المدينة المنورة العلبة، ط- الرباط، ١٣٤٩هـ.

مؤلف مجهول

- أخبار مجموعة في ذكر الأندلس، وذكر أمرائها، ط- مجريط، إسبانية، ١٨٦٨م.

المقري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني

- نفح الطيب من غض الأندلس الرطيب...،ت- محمد محي الدين عبد الحميد، ط- القاهرة، ١٣٠٢هـ، إحسان عباس، ط- دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ط- دار الكتب العلمية، د-ت.

ابن منظور

- لسان العرب، ط- دار صادر، بيروت، د-ت.

المجالي، سحر عبد الحميد

- تطور الجيش العربي في الأندلس، ط- عمان، ١٩٩٥م.

المجلات

- العبادي، احمد مختار

- الصقالبة في إسبانية، لمحة عن أصلهم، وعلاقتهم بحركة الشعوبية، العهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٣م.

معطيات عن دمشق وضواحيها في السنوات الأولى للحكم العثماني

(وقفية السلطان سليم الأول)

د. محمد م. الأرناؤوط

جامعة آل البيت - الأردن

مقدمة:

تمثل وقفية السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) مصدراً مهماً بالنسبة لدمشق وضواحيها في السنوات الأولى للحكم العثماني. فصاحب الوقفية هو السلطان سليم الأول نفسه الذي فتح بلاد الشام، وأقام فترة لا بأس بها في دمشق، كما أن الوقفية تخص اثنتين من أولى وأهم المنشآت التي بنيت في دمشق خلال الحكم العثماني (١٥١٦-١٩١٨) ألا وهما الجامع السليمي والعمارة/ التكية السليمية في الصالحية. وبالاستناد إلى ذلك تمدنا الوقفية بمعطيات عن القرى المحيطة بدمشق، حيث إن بعضها قد اندثر لاحقاً، ومعطيات عن دمشق ومنشآتها (الخانات والأسواق) التي تلاشى بعضها، كما تمدنا بمعطيات عن بعض المهن والمستوى المعيشي لأصحابها في ذلك الوقت.

وكان السلطان سليم الأول قد دخل دمشق في أواخر شعبان ٩٢٢هـ /أيلول ١٥١٦م، حيث صلى يوم الجمعة في ٧ رمضان ٩٢٢هـ /٤ تشرين الأول ١٥١٦م في الجامع الأموي، ومكث في دمشق حوالي شهرين أنذاك، كما عاد بعد فتح مصر وأقام في

دمشق في الفترة بين ١١ رمضان ٩٢٣ و ١٠ صفر ٩٢٤هـ / ٢٧أيلول ١٥١٧ و ٢١ شباط ١٥١٨م، حيث أمر وتابع بنفسه بناء المنشأتين المذكورتين[١].

وبالاستناد إلى المؤرخ المعاصر شمس الدين محمد بن طولون (توفي ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، فقد توجه السلطان سليم الأول خلال إقامته الأولى في دمشق إلى الصالحية لزيارة ضريح الشيخ محي الدين بن عربي في يوم الخميس ١٦ ذي القعدة ٩٢٢هـ/ ١١ كانون الأول ١٥١٦م، وفرّق هناك الكثير من الدراهم على أهل الصالحية[٢]. وبعد عودته من مصر في ١١ رمضان ٩٢٣هـ/ ٢٧ أيلول ١٥١٧م، أمر ببناء مسجد جامع إلى جوار الضريح، وحضر ذلك القاضي الحنفي ولي الدين بن الفرفور إلى الموقع المذكور في يوم السبت ١٤ رمضان ٩٢٣هـ/ ٣٠ أيلول ١٥١٧م، حيث تم شراء الدار المجاورة للضريح (بيت خير الله دوا دار منشئ المدرسة الحاجبية) وبدأ العمل يوم الاثنين ١٦ رمضان ٩٢٣هـ / ٢ تشرين الأول ١٥١٧م، بهدم مسجد الصميدي وحمام الجورة في جواره والخلاوي الموجودة[٣]. وتواصل العمل بسرعة كبيرة حتى تم إنجاز بناء الجامع الجديد في غضون أربعة شهور تقريباً، وهو ما اعتبرته الوقفية نفسها من العجائب لأنه بني "مع قوة الشتاء وتتابع الأنداء والأنواء". وفي الواقع، إن ابن طولون يشير بدقة إلى أنه في يوم الاثنين ٢٠ محرم ٩٢٤هـ ١شباط ١٥١٨م، "وضع منبر الجامع الجديد المذكور"، بينما قام السلطان سليم الأول في يوم الجمعة ٢٤ محرم/ ٥ شباط بزيارة الجامع والصلاة فيه، حيث كان خطيب الجمعة يومئذ ابن الفرفور، وذلك مع "خلق كثير حتى أن غالب أسواق دمشق قفلت في هذا اليوم"[٤]، وذلك قبل أن يغادر دمشق إلى استنبول.

وعلى حين أن الوقفية نفسها وصفت الجامع بعد إنجازه بهذه السرعة بأنه جاء "عجيب المثال، غريب التمثال، بديع الصنعة، شامل الرفعة، رائع التركيب، منظم الترتيب" فإن أهمية هذا الجامع تكمن في أنه أول أثر عثماني يشيد في دمشق/بلاد الشام ويحمل معه بعض ملامح الفن العثماني الجديد، وخاصة في المئذنة مع استمرار الطابع الدمشقي

وخاصة في التناوب اللوني للمداميك المسننة[٥]، وهو ما بقي يمثل تلك المرحلة إلى الآن[٦].

ومن ناحية أخرى يذكر ابن طولون إن السلطان سليم الأول قد أمر في يوم الاثنين ٢٠ محرم ٩٢٤هـ/ ١ شباط ١٥١٨م، ببناء "عمارة" إلى الشمال من الجامع المذكور، وهي التي ستشتهر عند الدمشقيين منذ أيام ابن طولون باسم "التكية"[٧]. وفي الوقع لقد كانت هذه المنشأة، التي تقدم وجبات مجانية للمحتاجين والعابرين، قد تطورت نواتها في الدول السابقة في بلاد الشام والأناضول ووصلت إلى ذروتها عند العثمانيين[٨]. ولذلك تكمن أهمية هذه المنشأة في أنها الأولى من نوعها في بلاد الشام وليس في دمشق فقط.

ومع اكتمال البناء في هذه التكية، ترك لنا ابن طولون وصفا مفصلا لها، إذ كانت تشتمل على "بيت للفقراء يأكلون به. له أربعة شبابيك مطلّة على الجامع المذكور، وبه معزبة مختصة بالنساء، وله بابان شرقي زمنه يدخل الناس...وغربي ينفذ إلى مطبخ وبه ثلاثة حواصل (عنابر) للمؤن. ولهذا المطبخ باب كبير يفتح إلى القبلة وبه حلتان كبرى وصغرى وثالثة لغسل المواعين وعدتها مائتان ما عون من نحاس...وإلى جانب المطبخ فرن معد للخبز الذي يفرق لهذه التكية[٩]. ونظرا لما خصت به هذه العمارة/ التكية من خيرات، كما يتضح في الوقفية، فقد قام الوالي جان بردي الغزالي أثناء تمرده بإقفالها في يوم الاثنين ١٧ ذي القعدة ٩٢٧هـ/ ١٩ تشرين الأول ١٥٢١م، بشهادة ابن طولون المعاصر للأحداث، واستولى على ما فيها من القمح (١٦٠ غرارة) والسمن والعسل والزيت والطحين والحطب والطاسات وغيرها و "لم يتبق الدرهم الفرد"[١٠]. ولكن بعد فشل تمرده ومقتله في ٢٦ صفر ٩٢٧هـ/ ٥ شباط ١٥٢١م، عادت هذه العمارة/ التكية إلى القيام بدورها في تقديم الوجبات المجانية[١١]. وقد تعرّضت هذه العمارة/ التكية إلى نكبة أخرى في ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤-١٥٥٥م، حين احترقت، ولكنها رُمّمت وعادت أفضل مما كانت عليه[١٢]. وقد بقيت هذه العمارة/

التكية تقوم بدورها في تقديم الوجبات المجانية حتى نهاية الحكم العثماني في ١٩١٨[١٣]، ولا تزال محاولة القيام بهذا الدور مستمرة حتى الآن ولو بشكل بسيط[١٤].

وصف الوقفية:

تحتل الوقفية سبع أوراق من مجموع موقوف للمدرسة الأحمدية[١٥] في حلب، التي انتقلت مخطوطاتها إلى مكتبة الأسد في دمشق بعد افتتاحها، وهو يضم عدة وقفيات السلطان سليمان القانوني أيضاً التي نأمل أن ننشرها لاحقاً.

تمثل هذه الوقفية صورة عن الأصل، إذ ورد أولاً في رأس الصفحة بخط مغاير في اللغة العثمانية. إن هذه "صورة وقفية المرحوم السلطان سليم خان عليه المغفرة والغفران لأوقافه الشريفة على روح حضرة الشيخ محي الدين بن عربي قُدّسَ سره العزيز". والأهم هنا أن نهاية الوقفية قد أشارت إلى أن الأصل قد حرر في عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م، على يد عبد الكريم العباسي، بينما ما هو موجود لدينا إنما حرره في ربيع الأول ٩٤٧هـ/ تموز ١٥٤٠م محمد بن قرة أويس "الكاتب يومئذ في الديوان السلطاني وبالأمر العالي الخاقاني".

وتبدو قيمة هذه الصورة/ الوقفية من الملاحظات التي دونت على أطرافها، والتي تمثل انتقالها من شخص إلى آخر سواء بـ "الابتياع الشرعي" أو بـ "الإرث الشرعي". ومن المثير أن هذه الصورة / الوقفية انتقلت بشكل ما من استنبول إلى سلانيك، حيث "انسكبت" هناك في ملك محمود الكلبي[؟] سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م، قبل أن تصل حلب وتضم لاحقاً إلى مخطوطات المدرسة الأحمدية.

كتبت الوقفية بخط فارسي، وقد تضمنت كل صفحة ١٩-٢١ سطراً. ويلاحظ أن الوقفية كتبت بلغة عربية سليمة ومؤثرة حيث يجب أن تؤثر، كما في المقدمة التي تتناول عادة النقطة والفاصلة. كما يلاحظ أن الكاتب اعتمد في بعض الحالات الرسم

القرآني كما في "مشكوة" عوضاً عن "مشكاة" وغيرها ومد بعض الحروف بسبب السجع المقبول الذي اعتمد عليه الكاتب.

ولذلك فقد اكتفينا في نشر الوقفية بتصويب بعض الكلمات، وتوثيق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة، وتقسيم فقرات الوقفية حسب الأصول المتبعة في هذا المجال.

أهمية الوقفية:

تنبع أهمية هذه الوقفية من أنها الأولى التي نعرفها حتى الآن من العهد العثماني، خاصة وأنها تخص السلطان سليم الأول نفسه الذي فتح بلاد الشام، كما وأنها تتعلق بأقدم أثرين عثمانيين بنيا في دمشق (الجامع السليمي والتكية السليمية).

ونظراً لحجم الإنفاق المرصود على الجامع والتكية، فقد وقفت عليها عشور عدة قرى من ضواحي دمشق ومداخل عدة منشآت (أربعة أسواق وحوانيت وخان ودار رحى) في دمشق نفسها، مما توفر لنا معطيات عن دمشق وضواحيها في السنوات الأولى للحكم العثماني.

وهكذا فقد رصدت هذه الوقفية عشور أربع قرى في ضواحي دمشق (منين والتل وحرستا الزيتون وعدرا)، لكن نظراً لأن الوقفيات تهتم عادة بذكر الحدود الأربعة لكل شيء موقوف، فقد ورد في هذه الوقفية ذكر محل القرى المحيطة بها معرونه والمعرة ووادي الجوز وتلفيتا وحلبون والذريح وحرنة وبرزة والمنمرة وكفر مدبر وكرسمايا ودوما والقابون التحتاني وأرزونا وعربيل والمعيصرة والميدعة وتل كردي)(*).

(*) أسماء قرى في محافظة ريف دمشق

ويلاحظ هنا أن بعض هذه القرى قد اندثر أو اندمج مع جوارها في القرون اللاحقـــة، مما يجعل هذه الوقفية هي المصدر الوحيد لمعلوماتنا عنها.

وفيما يتعلق بالمنشآت الموقوفة في دمشق (دار الرحى داخـــل بـــاب الفـــرج وخـــان السيوفيين وسوق الجسر الحديد والحوانيت لصيق باب السر وسوق علان وسوق تحت القلعة وسوق الدرابزين)، فإنها تفيدنا كثيراً مع ما يذكر في جوارها من منشآت أخرى ضمن الحدود الأربعة في تحديد طوبوغرافية المدينة وفـــي التعـــرف علـــى الحيـــاة الاقتصادية/ التجارية لدمشق في تلك السنوات. فبعض هذه المنشـــآت/ المواقـــع قـــد تغيرت أسماؤها وبعضها قد اندثر في وقت لاحق، كما تمدّنا الوقفية بالكثير من أســماء أصحاب المنشآت / المحلات وأسماء أصحاب الدور المجاورة لها، التي قد لا نجدهـــا في مصدر آخر.

ومن ناحية أخرى، نجد في الوقفية ذكراً لعدد من العاملين في المنشـــأتين الجديدتيـــن (الجامع والتكية) مع ذكر رواتبهم، مما يعطينا فكرة عن نوعية الأعمال التـــي كـــانت تمارس حينئذٍ والمستوى المعيشي لأصحابها. وهكذا، فقد عيّن الواقف للخدمـــــة فـــي الجامع والإشراف عليه أربعين شخصاً برواتب متدرجة تبدأ من درهمين/ أقجتين فـــي اليوم لقارئ القرآن الكريم وتصل إلى خمسة وعشرين درهماً / أقجه للمتولي عليه.

وفيما يتعلق بالعمارة/ التكية، فقد عيّن الواقف اثنين وعشرين شخصاً في مهن مختلفـــة سواء للنظارة أو للجباية أو للطبخ والخبز وخدمة الآتين لتنـــاول الوجبـــات المعـــدة هناك،كما يبدو في الجدول المرفق:

جدول المهن والرواتب في العمارة، التكية السليمية

المسمى	العمل	الراتب
شيخ ناظر	للنظر في أحوال الطعام وتفرقته	٥ دراهم في اليوم
خازن	لخزن أصناف ما يطبخ	٥ دراهم في اليوم
نقيبان	لتفرقة الطعام والخبز	٤ دراهم في اليوم لكل منهما
أجيران	للمساعدة في تفرقة الطعام	٣ دراهم في اليوم لكل منهما
طباخان	لطبخ الطعام	٥ دراهم في اليوم لكل منهما
أجيران	للمساعدة في طبخ الطعام	٣ دراهم في اليوم لكل منهما
خباز	لعمل الخبز وخبزه	٥ دراهم في اليوم
أجيران	للمساعدة في عمل الخبز	٣ دراهم في اليوم
حمال	لحمل اللحم إلى المطبخ	٤ دراهم في اليوم
دقاق حنطة	لدق الحنطة وقشرها	درهمان في اليوم
مبيض نحاس	لتبييض النحاس	٥ دراهم في اليوم
قيّم	للعناية بالتكية بالإضافة إلى الجامع	٤ دراهم في اليوم
وقّاد	لإيقاد الشموع والعناية بها	٤ دراهم في اليوم
فرّاش	لخدمة التكية بالإضافة إلى الجامع	٤ دراهم في اليوم
كنّاس	لكنس التكية بالإضافة إلى الجامع	٤ دراهم في اليوم
بوابان	للتكية بالإضافة إلى الجامع	٣ دراهم في اليوم

ويُستَفاد من الوقفية أن العمارة/ التكية كانت تقدم كل يوم ٤٠٠ وجبة، ٢٠٠ في الصباح و ٢٠٠ في العشاء. وقد حرص الواقف على تحديد كمية اللحم المقدمة في كل وجبة، إذ نص على طبخ ثمانين أوقية عثمانية في اليوم، أربعين أوقية في الصباح وأربعين أوقية في المساء، وأن تُقسَم كل أوقية إلى خمسة أقسام، أي أن كل وجبة كانت تتضمن حوالي ٢٦٠غرام من لحم الضان بالإضافة إلى الشوربة سواء من الأرز أو من الحنطة. أما في "ليالي الجمع والأعياد والمواسم الدارة" فقد كانت تقدم وجبات خاصة من "الأرز المفلفل" ومن الحلو/ العسل المصفى.

الهوامش

(١) للمزيد حول إقامة السلطان سليم الأول في دمشق انظر:

شمس الدين محمد بن طولون، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، تحقيق محمد مصطفى، ج٢ القاهرة ١٩٦٢، ص ٧٩-٨٠،٨٥، ٩٧، ١١٧، و١٢٤؛ شمس الدين محمد بن طولون، **القلائد الجوهرية** في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، ج١ دمشق ١٩٨٠، ص١٢٣ وبعدها.

(٢) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج٢، ص٤٠.

(٣) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ص ١١٤-١١٥.

والخلاوي جمع خلوة، وهي المكان الذي كان يقيم فيه المتصوفة.

(٤) **المصدر السابق**، ص ١١٧.

(٥) كارل ولتسجسنجر- كارل واتسينجر، **الآثار الإسلامية في مدينة دمشق**، تعريب قاسم طوير وتعليق عبد القادر الريحاوي، دمشق د. ت، ص٤١؛

(٦) يعتبر د. الشهابي أن المئذنة مهجنة بين الفنين المملوكي السابق والعثماني الجديد الذي بدا أكثر بعد ترميم رأس المئذنة نتيجة لزلزال ١١٧٣هـ / ١٧٥٩:

قتيبة الشهابي، مآذن دمشق، **(وزارة الثقافة)** ١٩٩٣، ص ٣٤١-٣٤٣.

(٧) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص١١٦.

(٨) للمزيد عن هذه المنشأة انظر: محمد م. الأرناؤوط، **"تطوير منشآت الوقف عبر التاريخ- العمارة/ التكية نموذجاً"**، مجلة **"أوقاف"** عدد ١، الكويت ٢٠٠١، ص ٢٨-٣٨.

(٩) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص١٢٣.

(١٠) محمد بن عيسى بن كنان، **المروج السندسية الفسيحة في تلخيص في تاريخ الصالحية**، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٩٤٧، ص ٩٨-٩٩.

(١١) المصدر السابق، ص ٩٩؛ ابن طولون، **أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، **(وزارة الثقافة)** ١٩١٤، ص ٣٣.

(١٢) عبد القادر بدران، مناذمة الأطلال ومسامرة الخيال، دمشق **(المجتمع العربي للتأليف والدراسات التاريخية والترجمة)** ١٩٨٦، ص ٣٨٣.

ويبدو هنا أن بدران كان مطلعاً أو عارفاً بتفاصيل هذه الوقفية.

(١٣) محمد أديب الحصني، كتاب منتخبات التواريخ لدمشق، ج٢ بيروت **(دار الآفاق الجديدة)** ١٩٧٩، ص ٨٧٣.

يذكر الحصني هنا أن "**خيرات (العمارة) جارية إلى اليوم**" مع ملاحظة أن كتابه صدر بطبعته الأولى في دمشق ١٩٧٢.

(١٤) أحمد سليمان، "**التكية السليمية تستأنف دورها في إطعام الناس**"، جريدة "**الحياة**"، لندن ١٠/٧/٢٠٠٠، ص ١٧.

(١٥) وقفية السلطان سليم، **مخطوطة رقم ١٣٨٩٣** في مكتبة الأسد /دمشق، عدد الأوراق ٨ منها ٧ أوراق الوقفية.

الوقفية:

الحمد لله الذي وفق من وقف بباب كرمه، وكفل له كفلاه، وسهل لوصوله إلى مأموله طريقاً سهلاً، وألهمه فعل الخير وجعل له أهلاً، وقيض له من نفسه باعثاً عليه فلو قال التشويف مهلا قال له التوفيق من لا، وأيده رأياً وقصداً، وسدده قولاً وفعلاً، وأنار مشكاة[١] قلبه بمصباح الهداية منا منه وفضلاً، فاستنارت له مناهج الحق ولم يجد عنها عدلاً، واطلع في عقله نير الصواب، فأدبر ظلام الخطاء وتولى، وزين سماء تدبيره بمصابيح السداد وحلى، وجعلها رجوماً لشياطين الخذلان فأجلاهم وأخلى، وأيده بالعناية الربّانية، فشملته التربية في المهد وكهلاً، وأقامه لإحياء موات الدين، فبذل فيه النفيس والنفس بذلا، وشمّر عن ساعد اجتهاده ولا ملّ ولا كلّ[٢]، وجاهد في سبيل الله حق جهاده ولا ضجر ولا ملّ، وانتصب لخفض كلمة الشرك برفع علم سبّح اسم ربك الأعلى، وجاس خلال ديار الكفر فتركها مثلاً، ولم نجد لعزمه مثلاً، فأصبح سحاب الإيمان بويل الإحسان منهلاً، وأخذت أرض التوحيد زخرفها وأزينت معنى وشكلاً، وانبعث رياض التمجيد بمثار التقديس والتحميد بعد أن كادت تبيد محلاً، وتدفقت من خلالها أنهار الشكر فما أعذب وما أحلى[٣]، وصدحت ورق الآمال على غصون الإقبال طرباً بعد أن كانت تنوح ثكلا، وهب نسيم السعد وصافح عذبات الرند فقالت له مرحباً وأهلا، وأشرقت شمس الأنصاف فلم تدع لليل الجور ظلا، وامتلأ الكون بعد خلوّه قسطاً وعدلاً.

أحمده والحمد من نعمه التي لا تفنى ولا تبلى، وأشكره وهو أحق بالشكر وأولى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادة ترغم أنف من نكب عن جادة الهدى وضلّ[٤]، وصمّ سمعه عن نداء الحق فأعرض وولّى، وعميت بصيرته عن نور الحقيقة فليس له مجاز إليه أصلاً، وانقطع رجاؤه من التمسك بحبال التوفيق فلا يجد لقطوعه وصلاً، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله الذي نفى بسنا هديه ظلل

الغواية وأجلى[٥]، وأعزّ مقامه المحمود وأعلى[٦]، وجعل وصفه قرآناً يتلى، وسلّم عليه فيه وصلّى، وقرّبه من حضرة قدسه فكان قاب قوسين أو أدنى[٧] لما دنا فتدلى خطابه من جلال عظمته ما عقلت عن تعقله عقول البشر عقلا، وأسمعه من لذيذ خطابه المنزّه عن الصوت والحرف ما صحّ تواتره نقلاً، وأيّد به الدين المحمدي فشيد وعلى[٨]، وصفّى موارد الإيمان من كدر الطغيان فنهل الفائزون نهلاً، وأقام عن شعائر الشرايع بعدما قعدت ذلاً، وأباد جيوش الكافرين أسراً وقتلاً، ودكدك حصون المشركين وعن إخلائها ما تخلّى، فأصبح الإسلام وادعاً يرفل في برود المنّ رفلاً، وأعلن التوحيد بشعاره بعد أن كان يقال له هلاً اللهم فصلّ وسلّم عليه في الملأ الأعلى وعلى آله وأصحابه العظماء الأجلاّء صلاة سلاماً لا يحصرهما الزبر ولا الإملاء وبعد.

فإن لله سبحانه وتعالى كنوز أجور في زوايا الأرض يخفيها وذخائر[٩] قُرَبٍ يخبؤها لنفوس يصطفيها، فهي معفية المراسم مخفية الطلاسم، قد مرّت عليها الليالي والأيام، وتداولتها الشهور والأعوام، وهي في غفل الإغفال ثاوية، ومن حلي الإجلال عاطلة خاوية، لا تكاد أن تذكر بل يطوي خبرها ولا يُنشر، يهملها المهمل، ويرتع في مراتع ذمّها المهمل، ويمرّ بها أعمى البصيرة وخبيث السريرة، فلا يرى لها نوراً بل ينقلب إليه طرفه خاسئاً حسيراً، هذا ونورها يغلب ضوء الشمس، وآفة الخفّاش ما بعيني بصيرته من الطمس، بيت أنوار تجلى العيون وإنّما، لاخي العمى لا تظهر الأنوار، وهبه فَقَدَ حاسة البصر فأين السمع، أم أين الذوق الفارق بين لذّة العطاء وألم المنع، فليت شعري أحجب عنه إجلالها أن على قلوب أقفالها، وكان من جملة ذلك -بل هو بجملتها فذلك- محل جدث القطب الفراداني، ومثوى جسد العالم الربّاني، قطب الأقطاب والقانت الأوّاب، مظهر العلوم التوحيدية ومرآة التجليات الصمدية مشاة[١٠] أنور الفرقان ومصباح أشعة الإيمان، حامل لواء السنّة ومظهر أسرارها المستحبّة، شيخ الطريقة والموصل بألفاظه إلى مجاز معاني الحقيقة، الفائض بفكره في بحار

العلوم على جواهر المنثور والمنظوم، والمتكلّم على الخواطر بما فيها من الأوهام الخواطر، السالك على القدم المحمدي بالنور الأحمدي، صاحب الكلمات المأثورة والحقائق المشهورة التي لا يقف على ساحل بحرها ويرى حسن دبرتها ودرتها إلاّ من كشف غطاء بصيرته وصلح سرّ سريرته، فهو يرتع في رياضها ويكرع من حياضها، ويستضيء بأنوارها ويستجلى عرايس زهرها وأزهارها، ذي المجد السنّي والخلق الرضي، مولانا الشيخ محي الدين ابن العربي قدّس الله سرّه وانهمع عليه مزن الرضوان وأدرّه، ولا برحت ملائكة السماء تتعاهد بالاستغفار عهاده، وتفرش بالسندس والاستبراق مهاده، فلقد مرّ عليه دهر طويل وعصر مستطيل، وسوعاً في الآثار محفو المزار، ممنوح بالهجران محبو بالنسيان، زائره يخشى الملام، ويرمى بسهام الكلام من فئة متعصبة بالأهواء والأغراض، لا تفرق بين الجواهر والأغراض، جَهِلَ مدّعو العلم منها معاني كلامه، وأخطأوا له مرامي مرامه، فجعلوه هدفاً لمرماهم، وأفحشوا في المقال إلاّ من شملته العصمة وقليل ما فهم، ومن جهل شيئاً عاداه، وفارقه ونـاوأه، وفرّق وطابه، ومزّق إهابه، ليس له ناقد فيعرفه وآفة التبر ضعف منتقده، ولو استغلوا بعيوبهم وبكوا على مسالف ذنوبهم لكان أولى لهم وأحرى، وأعظم ثواباً وأرجا أجراً، ومن العجائب(١١) -والعجائب جمّة- أن يلهج الأعمى بذمّ المبصر.

ولم يزل على ذلك الشأن، والأعصار تتداوله والزمان، إلى أن أيقظ الله لشأنه همّة سلطان الزمان، وملك العصر والأوان، وارث ملك الأرض، النافذ الحكم في طولها والعرض، ملك البرّين والبحرين، وسلطان العراقين وحامي الحرمين الشريفين، صاحب المملكة الكسروية والقيصرية، والممالك الحلبية والشامية والمصرية والأقطار الحجازية واليمنية، والحصون الجبلية والقلاع الساحلية، ومولى ملوك الأمم، سيد سلاطين العرب والعجم، المخصوص بعناية الملك المنان، السلطان ابن السلطان، الملك المظفّر سليم خان بن بايزيد خان بن محمد خان بن عثمان، لا برحت دولته مخلده، وسعادته مؤبّدة وبملائكة السماء مؤيّدة، وملكه مسلسل الأدوار، ما دار الفلك

المدار، بتعاقب العشي والأبكار، فأحيا آثاره البالية، وجدّد رسومه العافية، وكان ذلك تحقيقاً لما وقع من المكاشفات، وتصديقاً لما أخبر به المغيبات، فإنه نصّ في بعض كتبه على ظهور شأنه، وطلوع نير برهانه في أواخر الزمان على يد من يخصّه الله بالامتنان، فكان ذلك مذخور الإحسان لنية آل عثمان، لاسيما وقد أشار إلى اسمه الشريف لازال ماضياً بلا مصارع، ونافذاً في الأقطار بدون منازع، أن يبني عند جدثه المبارك جامع يكون تاريخ بنائه خير جامع، وأن يحكم بنيانه، وتشيّد أركانه، وأن يسارع إلى ذلك بما أمكن من السرعة، وأن يقام فيه الجماعة والجمعة، وأن يرتب فيه من المبرّات والصدقات، وما يحتاج إليه من المصارف والنفقات. فشرع المهندسون في ذلك، وسلكوا فيه أحسن المسالك، وجدّوا واجتهدوا وبنوا وشيّدوا ورصفوا، وزيّنوا وزخرفوا، ووضعوه على محكم الهيئات الهندسية، ومتقن الأشكال الإقليدية، فجاء عجيب المثال، غريب التمثال، بديع الصنعة، شامخ الرفعة، رائع التركيب، منتظم الترتيب، بهيّ المآثر، زهيّ المناظر، فاقد المماثل والمناظر، لا ينتقل فيه الطرف إلاّ إلى أحسن أو ظرف، ولا يسرح فيه العيان، إلا في رياض وجنان، قد رسم عليه رونق القبول، وتبرّأت نجوم سمائه من الغروب والأفول، فهو مطمح النظر وممرح الفكر، ومسرح العبرات ومسخ العبر، آيات محاسنه على ألسن السماء متلوّة، وعرائس بدائعه على أعين النظار مجلوّة، قد ظهرت به كرامات الباني والمبتني له، وأعربت مبنياته عن الحزم برفع الخلاف، ونصب الائتلاف(١٢)، فأعجب لهذه المسألة، وأعجب من ذلك كلّه -الحق لا يدفع عم محلّه- فراغ أكثر في بنائه في دون أربعة من الشهور بشهادة الجمهور، مع قوة الشتاء وتتابع الأنداء والأنواء، وهذا من جملة السعد الذي لا يزال نامياً، ومن عظمة المجد الذي لا يبرح سامياً.

وقد شمله النظر الشريف المظفري مرة بعد أخرى، وحقه من الشريف ما هو أجدر به وأحرى. ولما كانت منه البنيان، وتشيدت الأركان، أقيمت به الجماعة والجمعة، وحضره ما لم يحصر الحساب جمعه، وبرز الأمر الشريف المظفري -لا زال سابقاً

في ميدان الخيرات إلى مضمار المبرّات- أن يوقف عليه الأوقاف الدارة، والصدقات البارة بما يقوم بمصارفه وشعائره ووظائفه، رغبة في ثواب الصدقة المرجوّ. فقد ورد أن "الصدقة تسدّ سبعين باباً من السوء"(١٣)، وورد من طرق صحيحة المباني أن "صدقة المسلم تزيد في العمر، وتمنع ميتة السوء، ويذهب الله بها الكبر والفخر" كما رواه الطبري(١٤).

وبرز الأمر الشريف المظفري، لا زال نافذاً في الأقطار متسلسل الأدوار، أن يطبخ وقفه كل يوم من الطعام ما يكون بدفع السغب وفياً، وأن يهيأ ذلك للفقراء بكرة وعشيّا، تحقيقاً لما ورد عن سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام "خيركم من أطعم الطعام"(١٥)، وبراراً إلى تحصيل ما ورد في تأكيده من أن الله عزّ وجلّ يباهي ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده(١٦)، وحرصاً على تبوئ غرف الجنان، فقد ورد أن من موجبات الجنّة إطعام المسلم السغبان(١٧)، وأن ترتب فيه من الخير ما سيأتي مفصل إجماله، ويبيّن بديع جماله.

ووقف على ذلك من الجهات ما صدقت فيه الوجهات، بعد أن وقف عرصة الجامع المذكور والبناء القائم عليها، وثبت له بذلك ما ثبت في السنّة "من بنى مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله بيتاً في الجنّة"(١٨)، وكذلك عرصة البناء المقابل له والبناء القائم(١٩) عليها المشتمل على المطبخ ومحل الأكل.

فمن الأوقاف المسبلة والأجناس التي هي على خالص البرّ مشتملة، جميع القرية وأراضيها المعروفة بمنين(٢٠) ظاهر دمشق المحروسة، المشتملة على حدود أربعة، فالقبلي منها أراضي قرية التلّ(٢١). والشرقي أراضي معرونية(٢٢) والمعرّة(٢٣)، والشمالي أراضي قرية وادي الجوز(٢٤)، وتمامه أرض قرية تلفيتا(٢٥)، والغربي أراضي قرية حلبون(٢٦)، وتمامه أرض قرية الذريج(٢٧)؛

وجميع القرية المعروفة بالتّل أراضيها، المشتملة على حدود أربعة، فالقبلي منها أرض قرية حرنة[٢٨]، وتمامه أرض قرية برزة[٢٩]، والشرقي أرض قرية معرونية، وتمامه وقف الشيخ أرسلان[٣٠]، والشمالي أرض قرية منين المذكورة، والغربي وادٍ يحول بين قرية التّل المذكورة ، وبين أرض الذريج؛

وجميع القرية وأراضيها المعروفة بحرستا الزيتون[٣١]، من ضواحي دمشق المحروسة، المشتملة على حدود أربعة، فالقبلي منها أرض القابون التحتاني[٣٢]، وتمام ذلك أرض قرية أرزونا[٣٣]، وأرض قرية عربيل[٣٤]، والشرقي أرض قرية كفر مديرا[٣٥]، وتمام ذلك أرض قرية داريا الصغرى[٣٦]، وارض قرية كرسمايا[٣٧]، وأرض قرية بتوانا[٣٨]، وأرض قرية دما[٣٩]، والشمالي المنمرة[٤٠]، والجبل المسمّى بالسعدية وتمامه أرض قرية برزة، والغربي أرض قرية برزة، وتمامه أرض القابون الفوقاني؛

وجميع القرية وأراضيها المعروفة بعذرا[٤١]، المشتملة على حدود أربعة، فالقبلي منها أراضي الميدعة[٤٢]، والشرقي أراضي المعيصرة[٤٣]، والشمالي الجبل، والغربي أراضي قرية تل كردي[٤٤]؛

وجميع دار الرحى الكائنة ظاهر دمشق المحروسة برأس الوادي التحتاني، المعروفة بالأحد عشرية، وتشتمل على أربعة أحجار مطبقة، إحداها معطل، وعلى حجر برسم طحن الرمل، وبيت للطحين وبين للرمل، وإسطبلين وهري ومصول علية، ولها حدود أربعة، فالقبلي منها بستان صدقة اليهودي، والشرقي نهر المنيحة[٤٥]، والشمالي الغيضة المعروفة ببيت القاري والغربي ملك أربابه، سكرها واصل إلى جسر الغيدي؛

وجميع دار الرحى داخل باب الفرج[٤٦]، وتشتمل على سبعة أحجار مطبقة، وهري ومصول وعلية وإسطبلين للطحين؛

وجميع خان السيوفيين(٤٧)، المشتمل على ثلاثة وعشرين حاصلاً في علوّه، وستة عشر حاصلاً في السفل، وقاعة وبركة ماء ومرتفقات، وله حدود أربعة، فالقبلي الطريق السالك، والشرقي سوق السلاح(٤٨) وفيه الباب، والشمالي قيسارية الرماوي(٤٩)، والغربي ملك أربابه؛

وجميع سوق الجسر الحديد(٥٠)، وعدّة حوانيته العامرة ثلاثة وعشرون حانوتاً والصفّ الشرقي منها حدّه من القبلة الدخلة، ومن الشرق النهر، وتمامه المسلخ، ومن الشمال ملك ابن الفرفور، ومن الغرب الطريق، والصفّ منه حدّه من القبلة الطريق، ومن الشرق كذلك، ومن الشمال بيد ابن الفرفور، ومن الغرب كذلك، والصفّ الغربي بشرق حدّه من القبلة الخندق، ومن الشمال الطريق، ومن الشرق المسلخ والباب الآخذ إلى الخندق، ومن الغرب وقف المسجد، وأما الحوانيت الخربة من السوق المذكور فعدتها اثنان وعشرون حانوتاً وحدّها من القبلة الخندق، ومن الشرق قسيم ذلك العامر، ومن الشمال الطريق، ومن الغرب الجسر على نهر عقربا(٥١)؛

وجميع الحوانيت لصيق باب السر(٥٢) التي كانت باسم صدقة اليهودي، معلم دار الضرب(٥٣)، وعدّتها اثنان وعشرين حانوتاً عامرة، وحدّها من القبلة الطريق وباب السّر، ومن الشرق الخندق، ومن الشمال والغرب الطريق؛

وجميع السوق المعروف بعلان(٥٤)، وعدّة حوانيته أربعة وخمسون حانوتاً، منها ستة حوانيت خراب، وهو سكن الحردة فروشية(٥٥) والمبيضين والنحّاسين والفاكهانيين وغيرهم، حدّه من القبلة الطريق، ومن الشرق بيد ابن الفرفور، ومن الشمال الطريق تحت القلعة ومن الغرب بيد ابن الفرفور؛

وجميع الحانوتيين والمخزن والبسطة سكن الشراباتي والقامي والحمصاني، ويعرف ذلك بسوق القلعة، حدّه من القبلة الدخلة غير النافذة، ومن الشرق والشمال الطريق، ومن الغرب السوق المعروف بابن بردبك؛

وجميع السوق الكائن تحت القلعة(٥٦)، سكن أبي الخير البياني والحمصاني وغيرهمـا، وعدة حوانيته أربعة عشر حانوتاً، حدّه من القبلة الطريق، ومـن الشرق الطريـق ودرابزين سوق التجار الآتي ذكره، ومن الشمال سوق التجار، وتمامه الساحة، ومـن الغرب الطريق؛

وجميع السوق المعروف بالدرابزين(٥٧) وبالقلعة، وعدة حوانيته اثنان وأربعون حانوتاً، منها ثلاثة عشر خراب، حدّه من القبلة والشرق الطريق، ومن الشمال السوق وقـف البيمارستان، ومن الغرب الدخلة إلى سوق البيمارستان(٥٨)؛

وجميع المَلاّحة الكائنة بأرض الهيجانة(٥٩)، والملاّحة بأرض جرود(٦٠)، وكل منـهما شهرة في مكانها تغني عن تحديدها بما لذلك جميعه، من حقوق واشـتمالات ومغـار وكهوف وحجر ومدر وسهل وجبل، وما هو داخل الحدود وما هو خارج عنها، ومـا ينسب إليها وما يلحق بها؛

وقف ذلك كلّه وقفاً صحيحاً شرعياً، وحسبه معتبراً مرضياً، بدوام الأزمنة والدهـور، وبتجدد الأعوام والشهور، أزال عنه يد الملك وأقرّ عليه يد الولاية والنظر وشرط ثبت الله قواعد سلطانه وجعل ملائكة السماء من أنصاره وأعوانه أن يبدأ من ريع الوقـف المذكور بما يعمرّه وينميّه ويصلحه ويزكيّه؛

وأن يرتب في الجامع المذكور خطيب لبيب فصيح أريب، يخلـب القلـوب بجواهـر وعظه ويحجب عن الذنوب بزواخر لفظه، وأن يصرف به في اليوم خمسة دراهم(٦١)؛

وأن يرتب فيه إمام راتب الصلوات الخمس، ليس في ديانته شـك ولا لبـس، مجـوّد للقرآن، مرتّل للفرقان، وأن يصرف له في اليوم خمسة دراهم؛

وأن يرتب أربعة أنفار برسم الآذان كل منهم معروف بالعدالة والإحسان، وأن يصرف لكل واحد منهم كل يوم خمسة دراهم؛

وأن يرتب فيه ثلاثون نفراً نم القرّاء، يقرؤون القرآن العظيم كاملاً كل يوم، بعد صلاة الصبح كلٌ واحد جزء، وأن يصرف لكل واحد منهم في اليوم درهمان؛

وأن يكون لهم شيخ من عدتهم، وأن يصرف به في اليوم ثلاثة دراهم؛

وأن يجعل على الوقف المبرور، متولّ مشهور بالصلاح، مشهود بالعفّة والفلاح، قائم بأعباء مصالح جهات الوقف وتنميتها، وجمع غلاّتها وتزكيتها، وشفوق على الفلاحين، رؤوف على الأكابرين والزارعين، شديد الوطأة على أهل الخلاف، ليّن الكلمة لأهل الطاعة والإئتلاف، وأن يصرف له كل يوم خمسة وعشرين درهماً؛

وأن يرتب فيه ناظر، ويصرف به كل يوم خمسة دراهم، وأن يرتب فيه كاتب ويصرف له كل يوم عشرة دراهم؛

وأن يرتب فيه شيخ برسم النظر في أحوال الطعام وغرفه وتفرقته بين الفقراء وتفرقة الخبز طرفي النهار، وأن يصرف له في كل يوم خمسة دراهم؛

وأن يرتب فيه برسم تفرقة الطاعم نقيبان، وأن يصرف لكل واحد منهما في كل يوم أربعة دراهم؛

وأن يرتب برسم تفرقة الطعام على الفقراء ونقله إليهم، وإعادة المواعين إلى مكانها نفران، وأن يصرف لكل واحد منهما في كل يوم درهمان؛

وأن يرتب قيّم وكنّاس برسم كنس المسجد الجامع وكنس المطبخ ومحل الأكل، وأن يصرف لكل منهما في كل يوم أربعة دراهم؛

وأن يرتب فيه بوابان وأن يصرف لكل منهما في كل يوم ثلاثة دراهم؛

وأن يرتب فيه وقّاد وفرّاش، وأن يصرف لكل واحد منهما في كل يوم أربعة دراهم؛

وأن يرتب نفر واحد برسم خدمة التربة، وأن يصرف له في كل يوم درهمان؛

وأن يقام خازن برسم أصناف ما يطبخ، وأن يصرف له في كل يوم خمسة دراهم؛

وأن يرتب طباخان برسم طبخ الطعام، وأن يصرف لكل واحد منهما في كل يوم خمسة دراهم؛

وأن يرتب لهما أجيران، وأن يصرف لكل واحد منهما في كل يوم ثلاثة دراهم؛

وأن يرتب حمّال برسم حمل اللحم إلى المطبخ، وأن يصرف له في كل يوم أربعة دراهم؛

وأن يرتب خبّاز برسم الخبز وخبزه، وأن يصرف له في كل يوم خمسة دراهم؛

وأن يرتب له أجيران، وأن يصرف لكل واحد منهما ثلاثة دراهم؛

وأن يرتب نفر واحد برسم دقّ الحنطة وقشرها، وأن يصرف له في كل يوم درهمان، وأن يصرف لمبيّض نحاس المواعين والآنية في كل يوم خمسة دراهم.

وشرط، أمدّه الله بعنايته وخصّه بوافر رعايته، أن يطبخ من اللحم الضأن برسم الصدقة في كل يوم ثمانون أوقية عثمانية[٦٢] في كل وقت من الصباح والعشي، أربعون أوقية أربع ماية درهم، وأن تقسم كل أوقية خمسة أقسام يوضع كل قسم وأن يغرف من الطعام في كل وقت مائتا وعاء.

وشرط، وُفِّقَ للخيرات وفعل المبرّات، أن يطبخ في كل صباح من الأرز برسم الشوربة كيلان، زنة كل كيل عشر أواق عثمانية، وأن يطبخ في كل عشيّة من الحنطة برسم الشوربة كيلان بالكيل الاستانبولي. وشرط أنجح الله قصده وأدام دولته وسعده، أن يصرف في ثمن الملح والحقة والمحسنات كل يوم اثنان وعشرون درهماً، وأن يصرف في ثمن الحطب برسم الطعام والخبز كل يوم سبعون درهماً.

وشرط، بسط الله ظلّه وأدام جوده وفضله، أن يطبخ في ليالي الجمع والأعياد والمواسم الدارة في السنة من الأرز المفلفل والحلو ما سيكون مبلغه في السنة ثلاثمائة كيلة،

ومن السمن الخالص تسعمائة أوقية، ومن العسل تسعمائة أوقية، كل ذلك بالأوقية العثمانية.

وشرط، تقبّل الله عمله وأنجح قصده وأمله، أن يطبخ في شهر رمضان من الأرز برسم المفلفل والحلو مائة وخمسون كيلة، ومن السمن أربعمائة أوقية، ومن العسل ثلاثمائة أوقية وخمسون أوقية، وأن يصرف في ثمن الزعفران كل يوم درهمان، وأن يصرف في ثمن الزيت والحصر ما يكون مبلغه كل يوم خمسة دراهم.

وشرط، دامت سعادته وأبدت سيادته، أن يعجن برسم الخبز في كل يوم من الطحين الجيد ثمانية كيلات بالكيل الاستانبولي، وأن تقسم كل كلية مائة رغيف، وأن يكون كل رغيف بعد خبزه مائة درهم.

ثم لما تمّ أمر هذا الوقف المبرور وانتظم حكم شرطه المزبور، وتبينت مجملاته وفصلت صلاته، وشرقت أنوار شمسه وبذره، وثبتت أصول ثوابه وأجره، أراد مولانا ملك البسيطة الواقف المشار إليه، والمعول في أمور الخلائق عليه، لا زالت إرادته وإرادة موارد الحق، وأوامره نافذة في الغرب والشرق، أن يرجع عن هذا الوقف ويرجعه إلى الملك، وأن ينتظم كما كان أولاً في ذلك السلك متمسكاً بعدم لزوم الوقف قبل الحكم به على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، سقى سح سحائب(٦٣) العفو والغفران، وموكلاً في ذلك من ندبه إليه، وعوّل في هذا الأمر عليه، فقابله مقابل حسبة الله بالامتناع، ونازعه في ذلك أشدّ النزاع، بلزومه على قول أكثر العلماء والأئمة العظماء. ثم أدامها الحال، بعد التخاصم والجدال، إلى أن ترافعا إلى حضرة سيدنا ومولانا العلاّمة والحبر البحر الفهامة، عالم عصره ووحيد دهره، وسيّد أقرانه، وبهجة زمانه، المنفرد بالسؤدد والكمال، والحائز قصب السبق في مضمار حميد الخلال، من بيده الحلّ والعقد في القضاء والتنفيذ والحكم والإمضاء، الموقع أعلى هذا السفر العظيم بخطه الكريم، دامت معاليه وسعادته وحرست كمالاته وسيادته، مرافعة صحيحة

شرعية، ومخاصمة شديدة قوية، فنظر مولانا المشار إليه في هذه المسألة المختلف فيها نظراً شافياً وتأملّها تأمّلاً وافياً، فرجّح جانب الوقف عنده على جانب الملك بنظره المقيّد، ورأيه السديد، وحكم في وجه الوكيل المشار إليه بصحة الوقف المسطور، على زجه المزبور، وقضى بلزومه وإبرامه، والمضي على أحكام أحكامه، حكماً صحيحاً شرعياً، تاماً معتبراً مسجّلاً مرضياً، مستوفياً شرائطه(٦٤) الشرعية، وواجباته المحرّرة المرعية، عالماً بالاختلاف في محلّه، عارفاً بجريانه بين أهله من الأئمة المجتهدين، رضوان الله عليهم أجمعين. فصار بعد الحكم وقفاً لازماً مسجلاً متفقاً عليه، لا يجوز تبديله، ولا تملّكه ولا تعطيله بوجه من الوجوه، ولا بسبب من الأسباب، ابتغاء مرضاة ربّ الأرباب، "فمن بدّله بعدما سمعه فإنّما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم"(٦٥)، ووقع أجر الواقف سيدنا ومولانا الإمام الأعظم والخليفة المكرّم على الله، "إن الله لا يضيّع أجر المحسنين"(٦٦).

وحرّر ذلك الأصل في عام أربعة وعشرين وتسعمائة، بيّد منشئه القديم ومحبره، وموشيه الكريم، العبد الرحيم العباسي، حامداً لله ومصلّياً على نبيّه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ومسلّماً، ونقل عن ذلك الأصل السديد هذا الفرع الجديد محرّره الفقير محمد بن المرحوم قره أويس، الكاتب يومئذ في الديوان السامي السلطاني بالأمر العالي الخاقاني، في أثناء أيام أول الربيعين المنخرط في سلك شهور سنة سبع وأربعين وتسعمائة، شاكراً وثانياً ومستحصناً من ضلال كل فرقة وفئة بلطفه ومنّه.

الهوامش

(١) في الأصل: مشواة

(٢) في الأصل: كلا.

(٣) في الأصل: أحلا

(٤) في الأصل: ضلا

(٥) في الأصل: أجلاً

(٦) في الأصل: أعلا

(٧) في الأصل: أدنا

(٨) في الأصل: علا

(٩) في الأصل: ذخاير.

(١٠) في الأصل: مشكوة

(١١) في الأصل: العجايب

(١٢) في الأصل: الايتلاف

(١٣) لم نجده إلا بصيغة **"إن الله عزّ وجلّ ليدرأ بالصدقة سبعين ميتة من السوء"**:

الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ضبطه وفسّر غريبه بكري حياص، بيروت (مؤسسة الرسالة)، ج٦، ص ٣٧١ حديث رقم ١٦١١١.

(١٤) **الهندي كنز العمال**، ج٦، ص٣٧١، حديث رقم ١٦١١١.

(١٥) **الهندي كنز العمال**، ج٩، ص٢٤٤، حديث رقم ٢٥٨٤٦.

(١٦) المنذري، **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، ضبط أحاديثه وعلق مصطفى محمد عمارة، القاهرة (دار الريان للتراث) ١٩٨٧، ص٦٨، حديث رقم ٢١.

(١٧) المنذري، **الترغيب والترهيب**، ج٢، ص ٦٤. وقد ورد في "كنز العمال" (ج٦، ص٤٢٤) بصيغة "إن من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان".

(١٨) ابن حنبل، **المسند**، شرحه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر، القاهرة (دار الحديث) ١٩٩٥، ج٢، ص ٥٤٧-٥٤٨، حديث رقم ٢١٥٧.

(١٩) في الأصل: القايم

(٢٠) ورد ذكرها عند ياقوت الحموي "قرية في جبل سنير من أعمال دمشق" ، وورد ذكرها في السنوات الأخيرة للعهد المملوكي لدى ابن طوق مع النسبة إليها "المنيني"، وهي اليوم قرية (٨٦٣٠ نسمة) تبعد ٥ كم عن مدينة التّل:

ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت (دار صادر) بيروت، ج٥، ص ٢١٨؛ التعليق **-يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق** ٨٣٤-٩١٥هـ/ ١٤٣٠-١٥٠٩م، تحقيق جعفر المهاجر، ج١ دمشق (المعهد الفرنسي للدراسات العربية) ٢٠٠٠، ص ٥١٠-٥١١؛ **المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري**، ج٥، دمشق (مؤسسة الدراسات العسكرية) ١٩٩٣، ص ٣٦٤.

(٢١) لم نجد لها ذكراً في المصادر السابقة، وهي اليوم مدينة (١٨٢٠٠ نسمة) تبعد ١٤ كم إلى الشمال الشرقي من دمشق:

المعجم الجغرافي، ج٢، ص٤٦٢.

(٢٢). لم نجد ذكراً في المصادر السابقة، وهي اليوم قرية صغيرة (٨٥٠ نسمة) تبعد ١١ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة التّل:

المعجم الجغرافي، ، ج٥، ص٣٠٨.

(٢٣) لم نجد لها ذكراً في المصادر السابقة، على الرغم من قدمها الذي تثبته بعض الآثار حولها، وهي اليوم قرية (٢٠٠٦ نسمة) تنسب إلى صيدنايا المجاورة (معرة صيدنايا)، مع أنها تقع في مكان متوسط ما بين صيدنايا ومدينة التّل المذكورة:

المعجم الجغرافي، ج٥، ص٣٠٣.

(٢٤) لم نجد لها ذكراً لدى الدموي ولا ابن طولون ويبدو انها اندثرت لاحقاً.

(٢٥) ورد ذكرها لدى الحموي باعتبارها من "قرى سنير من أعمال دمشق" ولدى ابن طوق وهي اليوم قرية (٢٠٧٨ نسمة) تبعد ١٥ كم إلى الشمال من مدينة التّل و٣٠ كم عن دمشق:

الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص ٤٤٢؛ ابن طوق، **التعليق**، ص ٣١١، ٢٧، **المعجم الجغرافي**، ج٢، ص٥٥٠.

(٢٦) لم ترد عند الحموي ولا عند ابن طولون على الرغم من قدمها الذي تثبته البوابات والكتابات اللاتينية، وهي اليوم قرية (٣٦٣٢ نسمة) تبعد ١٤ كم إلى الشمال الغربي من مدينة التّل:

المعجم الجغرافي، ج٣، ص١٠٨.

(٢٧) لم ترد عند الحموي ولا عند ابن طولون، وهي اليوم قرية صغيرة (١١٠٠ نسمة) تبعد ٧ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة التّل:

المعجم الجغرافي، ج٣، ص٣٣٤.

(٢٨) لم ترد عند الحموي ولا عند ابن طولون، وهي اليوم قرية (٣٧٣٥ نسمة) تبعد ١,٥كم إلى الجنوب من مدينة التلّ:

المعجم الجغرافي، ج٣، ص٤٩.

(٢٩) ورد ذكرها عند الحموي كـ قرية من غوطة دمشق"، وهي اليوم حي من أحياء دمشق الكبرى:

الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص٣٨٢.

(٣٠) الشيخ رسلان بن يعقوب الجعبري من مشايخ الصوفية في دمشق، توفي بين ٥٥٠-٥٦٠هـ/ ودفن في جوار مسجد خالد بن الوليد الذي كان يقيم فيه حيث بنيت فوق قبره قبة وتحوّل إلى مزار.

(٣١) وردت عند الحموي "قرية كبيرة وعامرة وسط بساتين دمشق"، ووردت لدى ابن طولون بهذا الاسم (حرستا الزيتون)، وهي اليوم بلدة ومركز ناحية في غوطة دمشق (٢٥٦٥٧ نسمة) تبعد ٧ كم إلى الشمال الشرقي من دمشق:

الحموي، معجم البلدان/ ج٢، ص ٢٤٢؛ ابن طولون، **ضرب الحوطة على جميع الغوطة**، تحقيق محمد طلس، **الخزانة الشرقية** مجلدان جزء ٣-٤، ص ١٥٦؛ **المعجم الجغرافي**، ج٣، ص٤٣.

(٣٢) اكتفى الحموي بذكر "القابون الفوقاني" بينما ذكرها ابن طولون ووصفها في حينه "بلدة كبيرة بها جامع وعدة مساجد وحمّام وسوق وبها تركمان وحوارنة وغيرها"، وهي اليوم حي من أحياء دمشق:

ابن طولون، **ضرب الحوطة**، ص ١٥٩، **المعجم الجغرافي**، ج٤، ص ٣٩٧.

(٣٣) وردت عند الحموي "من قرى دمشق"، ووردت كذلك عند ابن طولون واندثرت بعد ذلك وضمت أراضيها إلى قرية عربيل المجاورة:

الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص ١٥١؛ ابن طولون، **ضرب الحوطة**، ص ١٥٤؛ محمد كرد علي، **غوطة دمشق** (دار الفكر) ١٩٨٤، ص ١٦٢.

(٣٤) وردت لدى ابن طولون واشتهرت لاحقاً بالنون (عربين)، وهي اليوم بلدة (١٦٠٢٠ نسمة) تبعد إلى الشمال الشرقي من دمشق.

ابن طولون، **ضرب الحوطة**، ص ١٥٩، **المعجم الجغرافي**، ج٤، ص ٢٨١.

(٣٥) في الأصل كفر مدبرا ويبدو أنه تصحيف، وردت لدى النعيمي بالألف المقصورة (مديرى) وتكتب الآن بالتاء المربوطة (مديرة)، وهي اليوم قرية (٢٦١٧ نسمة)، تقع ٣ كم إلى الجنوب من حرستا المذكورة: عبد القادر النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق جعفر الحسني، القاهرة (مكتبة الثقافة الدينية) ١٩٨٨، ج٢، ص ٢٥.

(٣٦) وردت عند كرد علي ضمن "القرى الدائرة" باعتبارها "مزرعة قرب دومة"، ولكن يبدو هنا بوضوح أنها كانت قرية في ذلك الوقت:

كرد علي، **غوطة دمشق**، ص ١٦٩.

(٣٧) لم نجد لها ذكراً.

(٣٨) لم نجد لها ذكراً.

(٣٩) ذكرها ابن الحموي "**من قرى غوطة دمشق**" ووردت لدى ابن طولون وغيره لاحقاً، وهي اليوم مدينة (١٣٣٧٠ نسمة) تبعد ١٩ كم إلى الشمال الشرقي من دمشق:

الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص ٤٨٩؛ ابن طولون، **ذرب الحوطة**، ص ١٥٧؛ **المعجم الجغرافي**، ج٣ ، ص ٣٧٦.

(٤٠) لم نجد لها ذكراً.

(٤١) وردت عند الحموي "قرية بغوطة دمشق وإليها ينسب مرج" كما وردت لدى ابن طولون وغيره لاحقاً، وهي اليوم قرية كبيرة (٥٣٢٠ نسمة) في محافظة ريف دمشق تبعد ١٢ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة دوما:

الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص ٩١، ابن طولون، **ضرب الحوطة**، ص ١٥٩؛ **المعجم الجغرافي**، ج٤، ص ٢٦٩.

(٤٢) لم نجد لها ذكراً في المصادر السابقة وهي اليوم قرية صغيرة (١٣٢١ نسمة) تبعد ٤,٠٥ كم إلى الجنوب من عدرا و ١٢ كم إلى الشرق من دوما: المعجم الجغرافي، ج٥، ص ٣٨٢.

(٤٣) لم نجد لها ذكراً ويبدو أنها اندثرت.

(٤٤) لا يزال المكان يدعى بهذا الاسم وهو يتحول الآن إلى ضاحية صناعية.

(٤٥) نسبة إلى قرية المنيحة، ورد ذكرها لدى الحموي "من قرى دمشق بالغوطة": وتحرف اسمها مع الزمن إلى "المليحة" وهي اليوم بلدة (٤٢٧٠ نسمة) تبعد ٧ كم إلى الشرق من دمشق:

الحموي، **معجم البلدان** ، ج٥، ص ٢١٧؛ **المعجم الجغرافي**، ج٥، ص ٣٤٣.

(٤٦) من أبواب دمشق المحدثة، أنشأه السلطان نور الدين الزنكي في الجهة الشمالية من سور دمشق، في سوق المناخلية اليوم:

صلاح الدين المنجد، **دمشق القديمة**: أبوابها - أسوارها - أبراجها، دمشق ١٩٤٥، ص ٥٥.

(٤٧) لم نجد خاناً بهذا الاسم، ولكن جوار سوق السلاح المذكور كان لدينا "سوق السيوريين"، وربما في الأمر تصحيف:

(٤٨) ورد ذكره عند ابن طولون والنعيمي المعاصرين ولا يزال موجوداً في مكانه:

ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج١، ص ١٦٤؛ النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ١٧٨-١٧٩ و٤٢٩، قتيبة الشهابي، أسواق دمشق، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٩٠، ص ٢١٣.

(٤٩) حسب الموقع المذكور يبدو أنها "قيسارية السلاح" التي وردت عند ابن قاضي شهبة المعاصر لتلك الفترة:

ابن قاضي شهبة، **ذيل تاريخ الإسلام**، تحقيق عدنان درويش، ج٣، دمشق (المعهد الفرنسي للدراسات العربية) ١٩٧٧، ص ٦٦١.

(٥٠) نسبة إلى باب الحديد وهو أحد أبواب قلعة دمشق على الجهة الشمالية المطلة على "تحت القلعة". وقد ورد الباب بهذا الاسم لدى ابن القلانسي (توفي ٥٥٥هـ) ولدى البدري مع توضيحه بأن العوام صحفت الاسم من "الجديد" إلى "الحديد"، وورد السوق المنسوب إليه (سوق جسر باب الحديد) لدى ابن طولون المعاصر:

البدري، **نزهة الأنام**، ص ١٢؛ ابن طولون، **أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق (دار الفكر) ١٩٨٤، ص ١٢١؛ قتيبة الشهابي، **أبواب دمشق وأحداثها التاريخية**، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٦٦، ص ٢٨٩-٢٩٢.

(٥١) نهر عقربا أحد فروع بردى الذي ينفصل عنه في ساحة المرجة/ الشهداء ويسير موازياً له حتى كان يشكّل الخندق الشمالي لقلعة دمشق وسورها، ويمرّ

أمام أبواب دمشق (باب الفرج وباب العمارة وبابا السلام وباب توما) ثم ينقسم عند جسر المطير إلى أربعة فروع:

المعجم الجغرافي، ج٢، ص ٢٧٨.

(٥٢) أحد أبواب قلعة دمشق الثلاثة على الجهة الغربية.، ورد اسمه لدى البدري وابن طولون وذكره ابن كنان (توفي ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) مع الإشارة إلى كونه مسدوداً في وقته، وقد كشف مؤخراً بعد هدم سوق الخجا:

عبد الله محمد البدري، **نزهة الأنام في محاسن الشام**، القاهرة ١٣٤١، ص ٢٧، ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج١، ص ٢١؛ محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي، **المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية**، تحقيق حكمت اسماعيل ومراجعة محمد المصري، ج١، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٩٣، ص ٢١٣.

(٥٣) لدينا إشارة مبكرة إلى دار الضرب في دمشق لدى ابن العماد الحنبلي في حديثه عن ابن صالح السينكي (توفي ٦٦٤هـ) الذي عيّن ناظراً لدار الضرب آنذاك. ولكن لم تزل مجهولة الموقع:

ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط، ج٧، دمشق ١٩٩٩، ص ٢٧٩؛ قتيبة الشهابي، **معجم دمشق التاريخي**، ج١ دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٩٩، ص ٢٧٩.

(٥٤) لم نجد له ذكراً عند عبد الهادي وغيره من المتأخرين.

(٥٥) هكذا في الأصل ولم نجد لها تفسيراً.

(٥٦) لدينا "تحت القلعة" مجموعة أسواق في نهاية العهد المملوكي، حيث كان يعتبر ذلك المجال (من سور القلعة حتى سوق ساروجا) أهم تجمع للأسواق في ذلك الوقت، ولذلك يصعب تحديد أي واحد منها بهذا الاسم.

(٥٧) لم نجد له ذكراً لدى ابن عبد الهادي أو غيره من المتأخرين.

(٥٨) من أسواق دمشق في العهد المملوكي كان لدينا "سوق المارستان النوري" إلى الجنوب من القلعة، الذي اندثر لاحقاً.

(٥٩) الهيجانة لم نجد لها ذكراً لدى الحموي وهي اليوم قرية (٢٦٩٥ نسمة) في مرج غوطة دمشق تبعد ٣٥ كم إلى الجنوب الشرقي من دمشق:

المعجم الجغرافي، ج٥، ص ٤٦٥.

(٦٠) جرود أو جيرود ورد ذكرها لدى الحموي "من أعمال غوطة دمشق"، وهي اليوم بلدة في محافظ ريف دمشق وتبعد ٢٠ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة القطيفة:

الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١٣٠؛ **المعجم الجغرافي**، ج٢، ص ٧٣٠.

(٦١) الدرهم تعريب لوحدة النقد اليونانية "دراخمة" وهو من الفضة الذي اختلف في قيمته من مكان إلى آخر ومن وقت إلى آخر. للمزيد حول ذلك:

خليل ساحلي أوغلو، "**النقود العثمانية في البلاد العربية**"، مجلة كلية الآداب مج٢، عمان ١٩٨٠، ص ١٠٥-١١٥.

(٦٢) الأوقية العثمانية (الأوقا) كانت تختلف في الوزن من مدينة إلى أخرى ولكن أشهرها تتكون من ٤٠٠ درهم، أي ١٢٨٢ رغام:

Meydan Larousse, Istanbul 1993.

(٦٣) في الأصل: سجايب.

(٦٤) في الأصل: شرايطه.

(٦٥) سورة البقرة ١٨١.

(٦٦) سورة التوبة ١٢٠.

أهمية المصادر العثمانية

لفترة النشأة من خلال الدفاتر والفرمانات ودفاتر المهمة

الدكتور محمود عامر

جامعة دمشق

يبدو لي أن تناول المؤرخ للأحداث الباردة، تلك التي لا تمسّ العصر، أو خرجت من ساحة الأحداث أمر ليس من الصعوبة بمكان، ففي هذه الحالة يجد المؤرخ نفسه أقرب إلى الموضوعية والنظرة العلمية منه حين يتعرض للأحداث التي قد يكون فيها للنظرة الذاتية دور كبير.

وتشكل الوثائق، وبخاصة الوثائق المدّونة، المصدر الأساسي الذي يعتمد عليه المؤرخون في إصدار أحكامهم التاريخية، ومن هنا أخذ الاهتمام يتزايد بغية جمع الوثاق ونقدها وتدقيقها وتصنيفها حسب موضوعاتها في الفترة الأخيرة.

تعدّ الوثائق العثمانية ذات أهمية كبرى نظراً لعلاقة العثمانيين بالعرب، هذه العلاقة التي دامت أكثر من أربعمائة سنة، تناولت تاريخ إمبراطورية نمت وسط أحداث متشابكة، شكّل قيامها مشكلة شرقية، كما أن انهيارها شكّل مسألة شرقية، وشتّان ما بين المشكلتين.

من المعلوم أن العثمانيين تمكّنوا من إقامة إمبراطورية مترامية الأطراف، امتدّ سلطانها على سبع وخمسين ولاية، وقد خلّفت هذه الإمبراطورية بصمات واضحة في تاريخ هذه الولايات، وهناك من يصفها بأنها كانت سلبية، وهناك من يصفها بأنها كانت إيجابية، فهل تنهي "ندوة العثمانية: بدايات ونهايات" التي دعت إليها جامعة آل البيت في المملكة الأردنية الهاشمية برعاية رئيسها الأستاذ الدكتور محمد عدنان

البخيت التساؤل المطروح والأحكام والتأويلات حول هذه المسألة؟ أم أنها تهيئ المؤرخ العربي لتفكير جدّي قوامه الوثائق التاريخية من أجل كتابة التاريخ الحديث، ولاسيما التاريخ العربي إبّان الحكم العثماني؟

إن الوثائق تقلّل من الاجتهادات الشخصية في عملية اتخاذ الأحكام التاريخية، ولهذا تصدرت الوثائق الموثّقة الصدارة في مختلف المجالات التي تتناولها سواء أكانت هذه البحوث سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية.

لن أكون مبالغاً إذا ذهبت إلى أن المؤرخين عامة والمؤرخ العربي خاصة لم يطّلعوا إلا على نذر يسير لا يتعدى حسابياً ١% من مجموع الوثائق المكدّسة في دور البحوث التركية بشكل خاص، فأرشيف رئاسة الوزراء في استنابول وحده يحتوي على اكثر من خمسين ألف كيلو من الأوراق الوثائقية، هذا عدا عشرات الآلاف من الدفاتر، وهناك أرشيف طوب قابي الذي لم يصنف إلا ١٠% من محتوياته، وأرشيف الخارجية، وأرشيف أتاتورك في أنقرة إضافة إلى الدور الأخرى المنتشرة في المدن التركية. وتعدّ المملكة الأردنية الهاشمية القطر العربي الوحيد الذي صوّر قسماً من وثائق بلاد الشام من أرشيف رئاسة الوزراء في استنابول. كذلك فإن هناك ٧٠,٠٠٠ مخطوطاً في مكتبة السليمانية وحدها، وما يقارب هذا العدد في مكتبة بايزيد، ومكتبة نور عثمانية ومكتبة بورصة ومكتبة الطوب قابي وغيرها من المكتبات الأخرى، كذلك هناك وثائق لا حصر لها في دور المحاكم الشرعية في معظم أقطار الوطن العربي، ناهيك عما سلبته الدول الأوروبية من وثائقنا.

وأمام هذا الحشد الهائل من الوثائق والمخطوطات لا يستطيع الجهد الفردي وحده أن يفعل شيئاً، ولا بدّ من عمل جماعي في البحث والتنقيب والدراسة، وهذا ما نأمل أن يتوجّه إليه المؤرخون العرب في هذا المضمار.

إذا كان قيام الدولة العثمانية يشوبه الكثير من الغموض حول نشأتها وبدايات تكوينـها، فمن المؤكد أن الوثائق التي تتناول نشأتها نادرة جداً، ولم نوّفق في العثور على ثوابت تاريخية تمكّننا من استجلاء مرحلة التكوين الأولى، هذا الغموض الذي يكتنف مرحلـة النشأة، أفسح المجال لأعدائها ولأصدقائها في إقامة احتمالات متأرجحة بيـن الخيـال والواقع، وفرض على عدة أجيال من مؤرخي العالم عامة ومؤرخي الدولة العثمانيـة خاصة إضفاء صفات مشابهة للخطأ الذي ارتكبه جيبونز، حيث ذكر أن الإمبراطورية العثمانية خرجت من قبيلة بدوية أو شبه بدوية تضمّ في جملتها أربعمائة خيمة، وشرح تطوّر الحوادث بعد ذلك على أساس أن هذه النقطة قد فُرغ منها.

والواقع أن هذه الطريقة من طرق النظر ما زالت تُتَناقل ابتداء من أصحاب الحوليات العثمانية القدماء إلى جيبونز بل إلى ما بعده، دون أن تكون موضع نقد، ولـم يتخـل عنها المؤرخون الغربيون ولا الشرقيون لأنهم اغتروا ببساطتها.

كان جيبونز شديد الإيمان بالرواية القائلة إن الدولة العثمانية نشأت في جماعة أربعمائة خيمة، ولكن: ألم يكن من الترك الوافدين على الأناضول قبل قبيلة عثمان أو معها فـي وقت واحد من التحق بالعثمانيين. وهل كان بطن صغير كذلك الذي ينتمي إليه عثمان، يقوى بإمكاناته وحدها على إيجاد تنظيم يمكّن عثمان من مواجهة بيزنطة وأن يحكم به -في زمن قصير- بلاد البلقان.

إن المصادر الخاصة بالأناضول في القـرن الرابـع عشـر، وهـو قـرن تأسـيس الإمبراطورية العثمانية، نادرة ولا تكفي لإصدار حكم جازم حول هذه النقطة، باستثناء بعض الكتب ذات الأهمية المحدودة والمحرّرة في داخـل إمبراطوريـة الايلخـانيين، وبعض الفترات التي حرّرها أصحاب الحوليات وكتّـاب الـتراجم مـن المصرييـن ومشاهدات ابن بطوطة، ولا نجد أي كتاب يتناول نشأة الدولة العثمانية بشكل دقيـق أو يمدّنا بمعلومات شبه حقيقية.

ولكن هذا لا يمنعنا من العودة إلى بعض المصادر التي تلقي بعض الضوء أو تشير إلى هذه النشأة، مثل كتاب جامع التواريخ وتاريخ أولجايتو، ثم صبح الأعشى وتاريخ العيني والدرر الكامنة وبعض الحوليات التي تمدّنا بظروف النشأة كالحوليات الفارسية المعنونة بمسامرات الأخبار لمحمود بن محمد الأقسرايي وذلك لقدمه وأهميته، ويوجد منه نسختان واحدة في مكتبة يكي (يني) جامع تحت رقم (٨٢٧) والأخرى في مكتبة آيا صوفيا تحت الرقم (٣١٤٣)، وقد كتبت سنة ١٣٢٣م، وقُدّم إلى حاكم الايلخانيين على الأناضول دميرداش ابن الأمير جويان، وهناك كتاب القاضي أحمد النيكدي المعنون بـ(الولد الشفيق)، حُرّر سنة ١٣٣٢م، وموجود في مكتبة الفاتح تحت الرقم ٤٥١٩، وهناك كتاب آخر بعنوان (سلجوقنامة) في المكتبة الأهلية في باريس، وهناك مصادر أخرى مثل تاريخ عاشق باشا، وكتاب تواريخ آل عثمان، وتاريخ أورج بك، وتاريخ لطفي باشا وبهجة التواريخ للمؤرخ شكر الله، وتاريخ قرماني محمد باشا.

وهكذا نلحظ أن المصادر التي تناولت نشأة الدولة العثمانية قاصرة ولا تمدّنا بمعلومات واضحة وكافية عن كيفية هذه النشأة، وبطبيعة الحال فهذا ينطبق على نشأة كثير من الدول والإمبراطوريات العالمية، فالأساطير والروايات تشوب تاريخها، ومن المستحيل توفر معلومات دقيقة توضح لنا نشأة أي دولة أو إمبراطورية بما فيها الإمبراطورية العثمانية.

من الصعوبة أن نحدّد الفترة التي بدأت الدولة العثمانية بتوثيق القرارات والفرمانات والمهمات المكتومة والمستعجلة في سجلات رسمية، غير أنه من المرجح أن أورخان الأول (١٣٢٤-١٣٦٠م)، الذي ورث عن والده دولةً ليس لها قوانين أو عملة أو حدود واضحة هو الذي أخذ يعمل على إقامة دولة راسخة الأقدام. ففي عهده تحوّل العثمانيون من مجموعة غير متناسقة من المغامرين إلى دولة، وفي عهده بدأ التشريع

العثماني الأول، من هنا كان لا بدّ أن يصحب إقامة الدولة والتشريع توثيق حقيقي والقرارات والفرمانات.

إنّ السجلات التي عُثِرَ عليها تتناول الجوانب العسكرية بشكل خاص، وهذه السجلات توفر تفسيراً للطابع الفردي للدولة العثمانية في أوائل عهدها، وقد بدأت سجلات الدولة تظهر بشكل واضح ومعتمد عليه منذ عهد مراد الأول ابن أورخان (١٣٦٠-١٣٨٠م)، مما يرجّح أن بدايتها تعود إلى أورخان، أما قبل هذه الحقبة فلا نكاد نعثر على وثائق جديرة بالذكر، والوثائق المكدّسة في دور البحوث التركية تعطي صورة واضحة للمراحل التي تلت مرحلة النشأة، كما تفيد في دراسة الدولة العثمانية سياسياً وإدارياً واقتصادياً، وتقدّم صورة واضحة للولايات التي خضعت لسلطانها، ولاسيما الولايات العربية، ولهذا فإنّ اهتمامنا انصبّ بالدرجة الأولى على دراسة الوثائق التي تتناول فترة الوجود العثماني على الأرض العربية، وبما أننا اعتمدنا على الحوليات العثمانية والفارسية والكتابات الأخرى المتعلقة بنشأة الدولة العثمانية ، فإنّ ما نقدّمه من عرض للوثائق العثمانية ربما يمنح المؤرخين العرب حافزاً لدراستها والاهتمام بها. علماً بأنها تضمّ نماذج متعدّدة لبعض الولايات العربية.

من ضمنها:

١-تصنيف علي أميري: ويحتوي على آلاف الوثائق والفرمانات السلطانية، ونلحظ أن فرمانات مرحلة النشأة خلت من تعابير المديح وتفاخر، واقتصرت على اللقب الذي تلقب به السلطان ومضمونه. وبلغ عدد الفرمانات السلطانية التي أصدرها

السلاطين بدءاً من عثمان وحتى عهد السلطان عبد المجيد خان ١٨٠٧٠٠ فرماناً سلطانياً.

فرمان السلطان محمد الثاني إلى ولاية بحرايجه

من السلطان محمد الفاتح إلى والينا علي جزيرة ميديلي.

تعلمون ن سيوفنا قادرة على الوصول إليكم متى رغبنا إلى ذلك، ولهذا عليكم عدم مضايقة عساكرنا الشاهانية ودفع الضرائب المترتبة عليكم، كما نحذركم من الاعتداء على رعايانا ومنع العساكر من التطاول على رعيتنا. الزموا طريق الصلاح، وابتعدوا عن مخالفة نواهينا.

نأمركم بإعلامنا عن أي شغب لا يليق بعتبتنا الهمايونية، ويسيء إلى مقامنا العالي، كلفنا أمير البحر دريا بتفقد أحوالكم وتزويدكم بما يلزم من أسلحة وعتاد

٩ محرم ٨٧٤هـ

١٤٦٩م

فرمان السلطان سليم الأول إلى حكّام أفريقية الشمالية

تعلمون أن الأتراك تمركزوا في الجزائر، وأنهم أصبحوا حكّامها، وإهمال التفكير بالجيرة يشكّل خطراً كبيراً عليكم، فالحاكم خضر شجاع وعنيد وحريص ومستعد للتضحية، فإن لم نتمركز في البلاد، وإن لم نكن أقوياء، فإن بلادنا ستكون عرضة للاحتلال من قبل الأعداء وهو أمر معلوم، لذلك أدعوكم جميعاً لأخذ الاحتياطات اللازمة.

فرمان همايون إلى والي مصر

بلغنا أن أحمد الجزار قام بتجهيز جيوشه مع أسطوله بشكل كامل وتام، وعليك أنت مع والي جزائر الغرب أن تضع كل احتمال للشائعات والأكاذيب التي قد تنشر بين طائفة الأوجاق وتحاول القضاء عليها في أراضي جزائر الغرب، كما أن الأمر يتطلب منك الانتباه إلى الحدود بصورة خاصة وبقية الأطراف كي لا تكون عرضة مثل الاسكندرية، وأسألك باسمي الذي وضعته عليك ألا تُغفل عينيكم عن مكرهم ودسائسهم، واعلم أن الفرنسيين عملاء يريدون إلحاق الضرر بجميع الممالك الإسلامية، فهم يهاجمون الاسكندرية الآن، ومنها يقصدون بغداد، وبعدها سيقصدون أوجاق الجزائر، لذلك يلزم عليكم مساندة أخوتكم في ولاياتهم، وأن تستعد لمواجهة الكفار الذي يكيدون لعتبتنا الهمايونية وقد عهدنا إليكم بالإشراف على أوجاق الغرب، فاحرص من التغافل والتكاسل وكن مطيعاً لأوامرنا ونواهينا لتكسب رضانا.

أرسل الفرمان من قبل السلطان سليم الثالث

أواخر صفر ١٢١٣هـ

١٧٩٨م

٢- عينيات دفتري رقم ٩٩٩ (صحية)

تعرضت بنغازي إلى وباء، عرض الأهالي إلى هلاك مدمّر، وخلت المنازل من ساكنيها، ومما زاد الأمر سوءً ، قيام الأهالي بتقديم المساعدة لبعضهم وهذا ما أدى إلى زيادة انتشاره، وقد اقتضى الأمر من نظارات الصحية إرسال باخرة محملة

بالأدوية كما أبلغنا كريت بضرورة الإسراع بتقديم ما يلزم لمساعدة بنغازي التي تعرضت لوباء فتاك، ولمنع عدم تفشي المرض بين الأهالي، يطلب إليكم منع الاختلاط ما بين المرضى والأصحاء، وتوزيع الدواء إلى المصابين، نطلب الإسراع في تنفيذ المطلوب وإعلامنا عن مقتضيات الأمر.

١١ رجب ١٢١٩هـ

١٨٧٤م

عينيات دفتري (تجارية)

علمنا أن مجلسكم عقد اجتماعاً مع أعيان الشام، وأسفر الاجتماع عن بيع الحرير، وهذا أمر مخالف يقضي مراجعة تجاره نظارتي، والالتزام بمقتضيات القانون التجاري، القاضي بدفع ضريبة التصنيع والنقل، ويمنع اتخاذ إجراء مخالف لذلك.

٢١ شوّال ١٢٩٢

١٨٧٥

٣- إرادة سنية نمرة ٤٣

خط هايمون رقم ٥١٥٦٥

سني الهمم بهي الشيم عنايتلو عطر فتلو أفندم حضر تلري

اقتضى الأمر السلطاني بموجب الأمر الصادر على إثره نقل عساكر حوران مع ذخيرتهم إلى قلعة الشام واستبدالهم لعساكر من القابي قول، وتكليفهم بالحراسة لقضاء حوران وتوزيعهم حسب الأمر المرسل إلى والينا دام إقباله، وإذا اقتضى الأمر يطلب إليكم نقلهم إلى ميناء بيروت لنقلهم بالبابور المتجّه إلى إيطالية ومن هناك، يتولى قائد

عساكرنا بإرسالهم إلى استنابول بمعرفته، كما يطلب إليكم دفع خرج راه بما يعادل ٢٠٠٠ قرش شهرياً عطية سنية، كما يطلب إليكم دفع تكاليف نقلهم بالبابور المتجه، وهذا أكر منطوق ينفّذ فور وصل إشعارنا.

غرة رجب ١٢٥٢هـ

١٨٣٦

دفتر مهمة غرة:٩

٤- فرمان إلى أعيان إيالت طرابلس غرب وقضاتها وعلمائها بعزل يوسف باشا وتعيين ابنه علي باشا

فهذا فرماننا العالي السلطاني النافذ حكمه بالتأييد القوي الصمداني في أقطار الأقاصي والأداني الذي أصدرناه إلى قدوة القضاء والحكّام معدن الفضل والكلام مولانا قاضي طرابلس زيد فضله وإلى مفاخر العلماء المحققين المفتي والعلماء والأئمة والخطباء في إيالت طرابلس الغرب زيد علمهم وإلى مفاخر الأماثل والأقران الضابطين والمشايخ وسائر الوجوه وكافة أرباب المصالح وأفراد الأهالي فيها زيد قدرهم، إذا وصل إليكم هذا التوقيع الخاقاني، فاعلموا أن أمير الأمراء يوسف باشا دامت معاليه، قد صار والياً من قبل على إيالت طرابلس الغرب التي هي خطة من الممالك المحروسة السلطانية، ولما كان حسناً ومعتذراً ولم يكن بإدارة الأمور مقتدراً أصرفنا الإيالة المذكورة عن عهدته ووجهنا برتبة ميرميراني إلى ولده الذي كانت درايته متحققة وبإدارة الأمور صار مقتدراً وأهلاً، فهو أمير الأمراء الكرام علي باشا دامت معاليه، وأما الشخص الذي تجاسر على محاصرة قلعة طرابلس من مدة مديدة ويسمى محمد بك فحركته هذه من أفعال أهل البغي والطغيان ومخالفته لرضائنا الذي فيه سلامة أهل الإيمان، ألا يعلم هذا الطاغي الباغي أن القلعة من قلاعنا المحروسة

ومن فيها من الوالي والأهالي معدودون من أتباع عتبتنا العلية فكيف تجاسر على محاصرتها من غير إذننا الشريف المختار...إلخ.

رمضان ١٢٥٠هـ

١٨٣٥م

٥- تصنيف ابن الأمين:

وهو مؤرخ وجغرافي مشهور (١٨٧٠-١٩٥٧) ويحتوي القسم المسمى باسمه على ٤٧١٤٥ وثيقة ويشمل عدة أقسام أهمها:

الاسم	عدد الوثائق
١- عدلية	١- ٩١٦
٢- عسكرية	١-٨٢٤٥
٣- بحرية	١-١٦٩٠
٤- داخلية	١-٣٨٩
٥- ضرب خانة ومسكوكات	١-٢٠٤
٦- دفاتر عتيقة	١-٥٠
٧- مخلفات	١-٤١٣
٨- محررات خصوصية	١-١١٣
٩- امتيازات	١-١٤٧
١٠-مصالح القصر (السراي)	١-٣٣١١
١١- خارجية	١-٢٠١٠
١٢-خط همايون	١-٣٢٩
١٣- معاون	١-٢٤٨
١٤- مالية	١-١٢٢٥٠
١٥- صحية	١-١٩١
١٦- شكايات	١-٨٥٦
١٧- توجيهات	١-٢٣٢٥
١٨- تيماروز عامة	١-١٢١٧
١٩- أوقاف	١-٧٩٠٣
٢٠-أمور نافعة	١-٩٨
	جمعاً ٤٧١٤٥ وثيقة منها للبلاد العربية ٢٣١٢٨ وثيقة

٦- جودت باشا تصنيفي أي تصنيف جودت

يعدّ هذا القسم من أهم أقسام أرشيف رئاسة الوزراء وأكثرها أهمية ويحتوي ٢٨٦,٥٥١ وثيقة لبلاد الشام بمختلف ولاياتها ٨٠٦١٣ وثيقة، ولليمن ١٦٥٠١ وثيقة وللمغرب العربي بولاياته الثلاث ٦٠,٠٠٠ وثيقة، وللحجاز ٨١٢٧ وثيقة، وللعراق١٣٤٢٢ وثيقة، وللقدس ٤١٠٧ وثيقة.

٧- خط همايون:

ويحتوي على ٢٤,٥٩٨ خطاً همايونياً منها ٣٦٩٠ فرامانا سلطانيا موجهاً إلى ولاة بلاد الشام، و٩٤٢٢ فرماناً إلى العراق، و ٦٠٠٠ فرماناً إلى ولاة الشمال الإفريقي.

٨- إرادة تصنيفي:

وهذا شامل لمختلف ولايات الدولة العثمانية وتحتوي على أكثر من ٢٦١,٤٥٨ وثيقة.

٩- مسائل مهمة: عددها ٢٥٩٠ مهمة.

١٠- مسائل مستعجلة: عددها ٣٦١١ مهمة.

١١- مهمة مكتومة عددها ٢٩٧٣ مهمة.

١٢- مالية مدور دفتري: ٢٦٠٠٠ دفتر، إضافة إلى تسع /٩/ كرتونة، سعة كل واحدة ما لا يقل عن ١٠٩٢ وثيقة، وغالباً الوثيقة قد تحتوي على عشر أوراق، وتسمى بعلم الوثائق /ملف/.

١٣- الدفاتر:

١-مخصوص دفتري: وتضم ١٧٠٣ كرتونة، تتسع كل كرتونة ما لا يقل عن ٧٠٠ وثيقة ما بين صغيرة وكبيرة.

٢- يلديز دفتري: ١٥٨٤٥ دفتراً

٣- خارطة دفتري: عدد خرائطها ٣٩٣ خارطة شاملة لمختلف ولايات الدولة العثمانية.

٤- مهمة دفتري: عددها ٢٦٣ دفتراً.

٥- مهمة ذيل دفتري: عددها ٢١٥ دفتراً.

٦-قانون نامة عسكر دفتري: ١٨ دفتراً.

٧- ركاب همايون دفتري: ١٤ دفتراً.

٨- مقاولات دفتري: ٢٢٥ دفتراً.

٩- نفي وقصاص دفتري: ١٠ دفاتر.

١٠- امتياز دفتري: ٥ دفاتر،.

١١- قفص دفتري: ٣٥ دفتراً.

١٢- أحكام دفتري: ٣١٧ دفتراً.

١٣- كنيسة دفتري: ٢٦٦ دفتراً.

١٤- شهبندر دفتري: ٢٦٧ دفتراً.

١٥- تعاقد دفتري: ٢٧٣ دفتراً.

١٦- دفاتر غير المسلمين: ٢٧٥ دفتراً.

١٧- دول أجنبية: ٤١٥ دفتراً.

١٨- أمر وعلم وخبر دفتري: ٨ دفاتر.

١٩- عينات دفتري: ٣٤٨ دفتراً.

وهناك أقسام عدة، لم نتعرض إليها في بحثنا، تجنباً من الإطالة، أما فيما يتعلق بدفاتر المهمة، فهي من أولى المدّونات الرسمية للدولة العثمانية، ويجمع لفيف من المؤرخين على أن ما بعد سنة ١٤٠٢م، بدأت الدولة العثمانية تدويناً لقواتها العسكرية، وتطبيق الدوشرمة بشكل فعلي، ولم يكن بإمكان اللجان المكلفة بجمع الشبان (الغلمان) من أجل الدوشرمة (الدفشرمة) بدون فرمان رسمي. ثم غدت الدفاتر المصدر الأساسي لمخاطبة الولاة وما ينقص فرمان السلطان رد الولاة بالطاعة على فرمانه -وهي مشكلة معقّدة توجه المهتمين بعلم الوثائق ودراساتها. وتسهيلاً للأمر آثرنا تقديم نماذج عن الأحكام الموجهة إلى الولاة.

دفتر رقم ٥ ص١٧

حكم إلى بكربكي اليمني:

لما سمعنا بعض الأشياء من جنس الأسلحة والآلات الفضية تباع إلى بلاد ولاية الهند من البلاد التي تقع تحت حكومتك، فقد أمرت أن تتقيد تماماً في هذا الصدد، فتصدر التنبهات المحكمة، والتأكد على طائفة القول وعلى الرعايا على حدّ سواء حتى لا يقوم فرد بمخالفة أمري الشريف وإياك أن يباع أي شيء إلى بلاد الهند من جنس السلاح والآلات الفضية بحيث لا يحاول أحد بعد التنبيه، فتقوم بتأديب من يفعلون ذلك، ولا تضيع دقيقة واحدة في تنفيذ أمري الشريف.

جمادى الأولى ٩٧٣هـ

١٥٦٥م

دفتر رقم ٧ ص ٩٦٥

حكم إلى بكربكي مصر:

فيما يتعلق بأنه لما كان تحرك سنان باشا إلى اليمن، إنما يتوقف على وصوله هو نفسه يجب الإسراع، ثم إخبارنا بأسماء من لا يذهبون مع عثمان باشا ويمكثون في مصر.

٢٥ جمادى الأخرة ٩٧٦هـ

١٥٦٨م

دفتر رقم ٧ ص ١٠٠٣

رسالة همايونية إلى شريف مكة المكرمة:

فيما يتعلق بوصول رسالتك التي تذكر أن العمل جارٍ لإعداد الإبل والألجمة اللازمة للعساكر الذاهبة إلى اليمن، نعلمك أنه تم عزل سردار اليمن مصطفى باشا وتعيين سنان باشا سرداراً بدلاً منه، لذلك يجب الاتحاد معه في الرأي والعمل.

١٨ محرم ٩٧٦هـ

١٥٨٦م

دفتر رقم ٧ ص ٥٠٩

حكم إلى مراد باشا القائم بالمحافظة بالشام:

فيما يتعلق بضرورة إعداد ١٠٠٠ نفر (شخص) قواس على سبيل السرعة والتي أمر بإعدادها لأجل اليمن ثم يعين عليها ضابط ويرسلون إلى هناك.

٢٦ ذي القعدة ٩٧٥هـ

١٥٦٧م

دفتر رقم ١٢ حكم ٧٣ ص ٣٦

حكم إلى القضاة وحراس القلاع وأمناء البنادر الواقعين على الطريق من استنابول إلى اليمن:

فيما يتعلق بضرورة تسهيل سياحة علي جاويش وار ودغدي وكيل سنان باشا الذي سيذهب إلى اليمن وضمان سلامتهما.

٢٣ رمضان ٩٧٨هـ

١٥٧٠م

دفتر رقم ٥ ص ٩٥

حكم إلى أمير أمراء طرابلس بان

أخبرتنا بوصولك للولاية المذكورة، وأن البلدة المسماة تاجوراء كانت ثائرة في عهد أمير الأمراء السابق محمد بك دام إقباله، وبعد وصولك، لما وجدتهم يعاندون في التمرد بالهجوم على عساكر المسلمين، زحف عليهم، واستوليت بعناية الله على حصنهم وألزمتهم بالطاعة، لقد بعثت لك سيفاً وخلعتين، ولتكن أفعالك مشكورة في حفظ وحراسة البلاد.

١٦ ربيع الأول ٩٧٥هـ

١٥٦٧م

دفتر رقم ٣٦ ص٦٧

يؤمر حيدر أمير أمراء طرابلس والدفتر دار محمد بأن

لما عرضتم علي التماسكم في أن يصرف لكل حاكم استحقاقه المحدد في المرسوم الذي يحمل بالعملة الدارجة في تلك البلاد لقاء سند بالوصول، فقد أمرت بأن: تضم لخزانة الدولة التي تجنى من القرى والنواحي والأوطان المسجلة في مراسيم طرابلس وأن تدفع لهم مخصصاتهم المدرجة في مراسيمهم من خزينة الغرب بالعملة الدارجة نقداً.

شوّال ٩٨٥هـ

١٥٧٧

دفتر رقم ١٦ ص ٧٨

حكم إلى قضاة الشام وأعيانها دام إقبالهم:

يطلب إليكم مراقبة رمضان باشا لأتباعه الظلم، وإعلامنا بالسرعة الممكنة وتهدئة الأهالي، وإيقاف محاولاته الرامية إلى جمع ضرائب أكثر مما هو محدد له في مرسومنا الشريف.

١٦ شعبان ٩٨٥هـ

١٥٧٧

دفتر رقم ٢٥ ص ١٨٠

حكم إلى قاضي الشام:

فيما يتعلق بأنه لما كنا قد علمنا أن والي صيدا قد قبض على العصاة وجمع من القبائل والعربان أحصنة وبنادق و ٣٠١٧ بندقية، و ٥٠٠ مزراق، و ٥٠٠ سكين، فقد صار الأمر بمنحه خلعة وسيف وزيادة معاشه ١٠٠,٠٠٠ أفجة.

١٠ ربيع الأول ٩٨٢هـ

١٥٧٤م

دفتر رقم ٥٨ ص ٥١

إلى أمير أمراء الجزائر مكم:

بالفعل قدم إلينا والي ضجق قابس سليمان بك مع سفير حاكم فاس السلطان أحمد وحدث معه اتفاق مع المشار إليه، وسيعود ثانية، وعليكم لدى وصوله تأمينه بكل ما يلزمه، فتدبر ذلك واحرص إلى تلبية كافة حاجياته، وزوده بما يلزمه من الرجال، وأسرع بإرساله، واعلم أنه عائد من طرفنا، ولدى وصوله إلى الجزائر ضع في سفينته عدداً كافياً من الرجال، وأرسله بسرعة إلى سدة عتبتنا في الأستانة، واضمن تنفيذ أوامرنا، وإياك والتكاسل فإن عاقبته وخيمة وحرصك موجب لرضانا.

٢١ جمادى الأخر ٩٩٦هـ

١٥٨٧

أما فيما يتعلق بمحتويات أرشيف الطوب قابي وأرشيف الخارجية وغيرها، فمن المستحيل التعرض لها.

أما من حيث القوانين الدينية، فهذا الأمر يحتاج إلى سبر المحكمة الشرعية في كل من استنابول وبورصة وأنقرة وإذنيك وغيرها.

وهناك التقاويم السنوية، فهي من المراجع الأساسية التي تسهل على الباحثين، حيث تحتوي معلومات في موضوعات كثيرة ومتنوعة تعالج شتى جوانب الحياة من الجغرافية الطبيعية للبلاد إلى المجالات التعليمية والزراعية فيها، وأوضاعها التجارية والاقتصادية وغيرها.

بدأت الدولة العثمانية اعتماد التقاويم السنوية لولاياتها بدءاً من سنة ١٨٧٢ وحتى خروج الولايات من سيطرتها وعودة الدولة العثمانية إلى نقطة انطلاقها.

نشاط الاستخبارات البريطانية في مصر في عهد اللورد كرومر Lord Cromer ١٨٨٣-١٨٩٦م

الدكتور ضاوي بن هندي السلمي
جامعة الملك عبد العزيز (جدة)

الملخص:

يعدّ العمل الاستخباراتي أحد الوسائل المهمّة المكملة والمساندة في تنفيذ سياسة بريطانية الاستعمارية في مصر في عهد اللورد كرومر، فترة ترسيخ وتثبيت دعائم الاحتلال البريطاني هناك. وهذا البحث محاولة لكشف مظاهر ذلك النشاط الاستخباراتي في مصر: أهدافه، أهم وسائله، ماهية المجندين لخدمته وكيفية تمويله، وذلك من خلال دراسة ملفات المخابرات البريطانية التي أميط اللثام عنها لأول مرة في صيف ١٩٩٣م. وقد كشفت هذه الدراسة عن حقائق جديدة تظهر لأول مرة في هذا المجال. فقد ظهر من خلال دراسة تلك الوثائق، أن ذلك النشاط الاستخباراتي يهدف وبشكل رئيسي إلى تكريس الاحتلال بجعله أمراً واقعاً ومحاولة إقناع جمهور المصريين من مثقفين وعامة بفوائد الوجود البريطاني المزعومة.

هذا الهدف -وفقاً لما كان يراه المخططون البريطانيون سيتحقّق باتباع ما يلي:

أولاً: تحييد الحركة الوطنية في كل من مصر والسودان (العُرابيين والمهديين) والحيلولة دون عودة الحركتين لممارسة نشاطهما السياسي وبالتالي كسب التعاطف الشعبي. وتأتي أهمية المخابرات البريطانية هنا في تجنيد العملاء

السريين لجمع المعلومات عن هاتين الحركتين والمتعـــاطفين معـــهما ورصـــد زعمائهما في الداخل والخارج.

ثانياً: الإلحاح على تعلّم اللغة العربية والحثّ على ضرورة تدريسها كمـــادة أساســية ضمن منهج كلية إعداد الموظفين، ويعترف المسؤولون البريطـــانيون بأهميتـــها خاصة للعملاء والدبلوماسيين والعسكريين.

ثالثاً: محاولة كسب الرأي العام المصري وذلك عن طريق تجنيـــد بعـــض الصحـــف الصادرة في مصر ودعمها مادياً ومعنوياً، مقابل الدعاية لبريطانيـــة والـــترويج لفوائد الوجود البريطاني في البلاد.

رابعاً: جمع المعلومات عن مواقف الحكومات الأوروبية والرأي العام البريطـــاني إزاء سياسية بريطانية في مصر، ويبرز في هذا المجال نجاح المخابرات البريطانيـــة في توظيف وكالة رويتر الإخبارية لخدمة نشاطها وعملياتها الاستخباراتية.

The Activities of British Secret Service In Egypt
During The Reign Of Lord Cromer 1883-1 896

Dr. Dawi Awaad. H. AI-Solami
Assistant Professor, Department Of History,
Faculty Of Arts And Humanities, King Abdulaziz University,
Jeddah, Saudi Arabia

Abstract

The covert operations of the British Secret Service were a buttress methods for executing British Policy towards Egypt during the reign of Lord Cromer. Relying on recently released British official documents, this study is an attempt to unveil the operations of the British Secret Service in Egypt during the reign of Lord Cromer, its main aims, methods, agents, and the sources of financing these operations.

This paper reveals a new facts concerning these covert operations. Apparently, these operations aimed mainly for constituting the British occupation and propagandizing its alleged merits among the Egyptians. Accordingly, this main aim could be carried out by applying the following policies:

1 - Neutralizing the national movements in Egypt and Sudan (Orabiest and Mahdiest), by preventing these movements from gaining the public sympathy. The role of the Secret Service was essential particularly in recruiting agents to collect information regarding the sympathisers of these movements and the activities of its leaders.

2 - Recognizing the value of Arabic language for the secret service operations and stressing the merits of teaching it as a main Subject of the Staff College curriculum.

3 - In trying to gain the Egyptian public opinions, British planners put a great emphasis on Arabic press in Egypt. Loyalty of some newspapers editors had been bought out and financial support had been given to some papers as a cost for publishing British propaganda.

4 - Gathering information regarding the positions of some European powers towards British policy in Egypt. The British Secret Service scored a major triumph especially their success in recruiting the famous Reuters agent to serve their aims.

مقدمة:

يعدّ السير إفلن بارنج (اللورد كرومر – Lord Cromer)، المعتمد السياسي البريطاني في مصر، المهندس والمنفذ الحقيقي لسياسة بريطانية هناك وأحد الشخصيات البارزة إن لم يكن أهمها، التي وضعت الأسس الرئيسية للسياسة البريطانية في مصر والتي سار على منوالها خلفاء اللورد كرومر، وبواسطتها تمكّن البريطانيون وإلى حدّ كبير من الاحتفاظ بنفوذهم الفعلي في البلاد منذ احتلالهم لها عام ١٨٨٢م، وحتى رحيل آخر جندي بريطاني عنها في صيف ١٩٥٦م. وقد كُتب الكثير عن السياسة البريطانية في مصر ودور السير إفلن بارنج (اللورد كرومر) في رسم تلك السياسة وتنفيذها وأثره على من خلفه من المسؤولين البريطانيين[1]. وهذه الورقة تحاول أن تكشف عن بعض الجوانب الخفية للسياسة البريطانية، فهي بالتحديد محاولة لسبر غور النشاط الاستخباراتي البريطاني في مصر خلال عهد اللورد كرومر، ١٨٨٣-١٨٩٦م. وهذا يتطلّب محاولة التعرف على الأهداف الرئيسية لذلك النشاط والوسائل المستخدمة في ذلك، إضافة إلى الكشف عن ماهية المتعاونين أو بالأصح "المجندين" مع الاستخبارات البريطانية، والتعرّف على كيفية تمويل تلك العمليات الاستخباراتية ومن ثم استخلاص مدى فاعلية ذلك النشاط الاستخباراتي وتأثيره إن وجد -في خدمة مصالح بريطانية الحيوية في مصر في فترة الدراسة. وهذا البحث يعتمد اعتماداً رئيسياً على ملفات الاستخبارات البريطانية "Secret Service" التي أفرجت عنها الحكومة البريطانية في منتصف يوليو ١٩٩٣م. ومن خلال دراسة تلك الوثائق، يتّضح أن النشاط الاستخباراتي البريطاني في مصر أو عنها في عهد اللورد كرومر يتمّحور حول أربع قضايا رئيسية هي: تتبّع فلول الحركة الوطنية في مصر أو بقايا الثورة العرابية التي كانت إحدى ضحايا الاحتلال ، الاهتمام باللغة العربية وتدريسها وذلك لأهميتها البالغة في مساعدة الدبلوماسيين والعملاء البريطانيين العاملين في مصر وغيرها من البلاد العربية على أداء مهماتهم، محاولة تلميع صورة الاحتلال البريطاني وإظهار

البريطانيين على أنهم جاؤا إلى مصر مصلحين لا غازين، ومحاولة التأثير في الرأي العام المصري وذلك عن طريق استدراج بعضها الصحف العربية الصادرة في القاهرة وتقديم الدعم المادي والمعنوي لرؤساء تحريرها، مقابل الترويج لبريطانية ونظامها وحضارتها في تلك الصحف، ثم جمع المعلومات عن مواقف بعض القوى الأوروبية ومحاولة التعرف على الرأي العام الأوروبي إزاء بريطانية في مصر، وذلك بتجنيد وكالة رويتر الإخبارية لخدمة الأغراض الاستخباراتية.

مراقبة نشاط العُرابيين والمهديين في مصر والسودان:

تكشف وثائق المخابرات البريطانية أن الحكومة البريطانية وبالتحديد وزارة الخارجية لا تزال متخوفة من إمكانات انبعاث الحركة الوطنية في مصر، والتي قادها أحمد عرابي قبيل الاحتلال، أو حركة المهديين في السودان بالرغم من هزيمة تلك الحركتين على يد الإنكليز وسيطرتهم على مصر والسودان(٢). وللتصدي لإمكانية عودة العرابيين أو المهديين إلى الساحة السياسية وكسب التأييد الشعبي ومن ثم إعادة بناء الحركتين لهياكلهما واستنفار أنصارهما في البلاد لمواجهة البريطانيين، أعدّت الوزارة خطة لتتبع فلول تلك الحركتين سواء في داخل مصر أو خارجها، بهدف جمع المعلومات عن كوادر الحركة العربية والمهدية ومدى حجم القوة الشعبية المؤيدة لهما والنشاط السياسي الذي يمارسه زعماء تلك الحركتين. وقد اعتمدت وزارة الخارجية وجهاز الاستخبارات التابع لها على عملاء (متعاونين) عرب وأوكلت لهم مهمّة مراقبة زعماء تلك الحركات والمناصرين لها، ومحاولة تقصّي أحوالهم وجمع المعلومات عن نشاطهم السياسي وكتابة تقارير بذلك إلى المسؤولين البريطانيين. ويتّضح من الوثائق أن مسؤولي المخابرات البريطانيين قد استدرجوا أحد اللبنانيين المقيمين في بريطانية المدعو حبيب أنطوني السالموني، حيث جُنّد لحساب المخابرات البريطانية، وكُلّف بعدة مهمات تتعلق في معظمها بمراقبة نشاط العُرابيين والمهديين وتقصّي أخبارهم. ولا

تحدّد الوثائق متى وكيف بدأت علاقة حبيب السالموني بجهاز المخابرات البريطانية، ولكنها تكشف بوضوح أن حبيب كان على صلة بكبار المسؤولين وبشخصيات بريطانية ذات نفوذ سياسي واجتماعي مؤثر، مثل الكونتيسة غرانفيل Countess of Granville، منذ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٨٣م، كما سيرد ذكره لاحقاً. وقد قدّم نفسه آنذاك كعالم في اللغة العربية وعلومها وخبير متخصّص في شؤون الشرق العربي وصاحب علاقات وطيدة مع أنصار الحركتين العرابية والمهدية في كل من بريطانية وفرنسة[٣].

دارت عدّة مكاتبات بين المسؤولين البريطانيين في كل من وزارة الخارجية "Foreign Office" وجهاز الاستخبارات البريطاني "Secret Service" تمحورت حول إمكانية الاستفادة من خبرة حبيب السالموني وعلاقاته "المزعومة" مع أنصار المهديين والعرابيين في أوروبة، وذلك بإرساله في مهمّة سرية إلى باريس لحساب المخابرات البريطانية، وذلك لتقصّي أخبار العرابيين والمهديين هناك والتعرف على نشاطاتهم عن قرب، ورفع تقارير عن ذلك إلى وزارة الخارجية وجهاز المخابرات البريطاني. وقد طلب كيوري (Currie) من جهاز المخابرات من ت، هـ، ساندرسون (T.H. Sanderson)، من وزارة الخارجية إرسال مبلغ ٢٠ جنيهاً إسترلينياً، وهي تكاليف رحلة سريّة قام بها حبيب السالموني إلى باريس، تتعلق بتقصّي أخبار العرابيين والمهديين هناك. ويتّضح أن مهمّة سالموني تلك لم تكن مهمّة عادية روتينية، بدليل أن ساندرسون سارع وفي نفس اليوم الذي تلقى في الطلب بإحالة الأمر إلى وزير الخارجية اللورد غرانفيل (Lord Granville) طالباً الموافقة على الرحلة وتكاليفها[٤]. وقد وافق اللورد غرانفيل على مهمّة سالموني في نفس اليوم وكتب بخط يده محضراً ذيّله بتوقيعه تضمّن موافقته على الرحلة وتكاليفها[٥].

وقد سُلّم المبلغ فعلاً لسالموني في نفس اليوم الذي أُقِرَّ فيه من قبل وزير الخارجية. ومن المدهش أن سالموني قد كتب بنفسه إقراراً تضمن استلامه لذلك المبلغ الزهيد

(٢٠ جنيهاً) ووقّعه في نفس اليوم الذي أمر فيه بصرفه[٦]. وهذا يدل دلالـة لا تقبـل الشك بأن حبيب السالموني كان على علاقات وطيدة بالمخابرات البريطانية، وأنه كان مجنّداً من قبل بعض الساسة البريطانيين وعلى أعلى المسـتويات، للقيـام بمـهمات استخباراتية تتعلق بمراقبة زعماء الحركة الوطنية المصرية والمقيمين فـي فرنسـة، كمهمّة باريس السالفة الذكر. وربما كُلِّف سالموني بمهمات أخرى مماثلة لمهمّة باريس لم يكشف النقاب عنها. ومن المذهل حقاً أن سالموني بالرغم من أنه يعـدّ نفسـه مـن الطبقة المستنيرة إلا أنه قبل الانخراط في العمل الاستخباراتي البريطاني، ولقاء مبلـغ زهيد كذلك الذي أعطى له كتكاليف لرحلته إلى باريس. وهناك حقيقة هامـة تكشـفها الوثائق البريطانية تشير إلى عدم نضج العمل الاستخباراتي البريطاني وضحالة أفكـار المخطّطين والمسؤولين عنه إلى درجة أنه يمكن التغرير بهم بكل سهولة. يتّضح مـن نتائج مهمّة سالموني السالفة الذكر، حيث تذكر الوثائق أن الرجل لم يمكث طويلاً فـي باريس، فقد عاد إلى لندن في أوائل شهر مارس (آذار) ١٨٨٥م، وكتب تقريراً إلـى وزارة الخارجية ضمنها نتائج رحلته. وقد ذكر في أحد تلك التقارير أنه عـرف مـن أنصار المهدي في باريس أن الجنرال غوردن (General Gordon) القائد البريطاني في السودان لم يُقتل وإنما أُخذ كرهينة عند المهدي. وقد ذكر سالموني في تقريره السالف أنه علم من مصادر مقربة من المهدي أن الأخير ينوي استخدام الجنرال غوردن فـي عملية مقايضة مع البريطانيين لإطلاق سراح الزعيم المصري أحمد عرابي الذي كان منفياً آنذاك في جزيرة سيلان. وادعى سالموني أنه تناقش مع جمال الديـن الأفغـاني حول شروط مقايضة غوردن بأحمد عرابي[٧].

الاهتمام بتعليم اللغة العربية وتدريسها في بريطانية:

لم يقتصر اهتمام الحكومة البريطانية ومخابراتها بمراقبة ورصـد نشـاط الوطنيين المصريين والسودانيين من أنصار أحمد عرابي والمهدي، بل تعدّى ذلك إلى الاهتمـام بلغة القوم ومحاولة التعرف على ملامح ثقافتهم، لما لذلك من أهمية بالغة في التعـرّف

على خبايا المجتمع العربي سواء في مصر أو في غيرها من البلدان، التي لبريطانية نفوذ أو علاقة لها، وهذا بالتأكيد سيساعد كثيراً في كيفية التعامل مع السكان، بالإضافة إلى المساهمة الأساسية في إدارة شؤون البلاد، وهذا ما يفسّر اهتمام المسؤولين البريطانيين- مدنيين كانوا أم عسكريين- باللغة العربية ومناداتهم بتدريسها في كلية إعداد الموظفين "Staff College" والتخطيط لتخريج كوادر تتقن اللغة العربية تحدثاً وقراءة، لأن هذه الكوادر من وجهة نظر كبار المسؤولين كانت ضرورية للعمل في المجالات الاستخباراتية والدبلوماسية والعسكرية. وقد تبنّى تلك الفكرة كبار المسؤولين البريطانيين الذين لهم دور رئيسي في رسم الخطوط العريضة للسياسة البريطانية تجاه مصر، من أمثال اللورد دفرن "Lord Dufferin"، سفير بريطانية في القسطنطينية(٨). وقد نادى دفرن بضرورة الاهتمام بتدريس اللغة العربية واعتمادها كمادة أساسية في كلية إعداد الموظفين، كما حثّ مسؤولون آخرون من أمثال السير بيشامب والكر (Sir B. Walker) على تبني تلك الفكرة والاهتمام بإدخال اللغة العربية كمادة أساسية في منهج كلية إعداد الموظفين(٩). ولم يقتصر ذلك الاهتمام باللغة العربية وضرورة تدريسها على المسؤولين المدنيين، بل وتعداهم إلى كبار العسكريين من أمثال السير إفلين وود (Sir Evelyn Wood)، الذي أصبح فيما بعد قائداً للجيش البريطاني في مصر، والذي انضم إلى المنادين بضرورة تدريس اللغة العربية واعتمادها كمادة ضمن منهج الكلية، كما دعا وود إلى أنه يتوجّب تدريس اللغة العربية للموظفين الذين يلتحقون بالخدمة العسكرية في مصر أو غيرها من البلدان العربية، وتمنّى أن يحقّق المسؤولون بالكلية تلك الرغبات(١٠).

إن موضوع اللغة العربية وتدريسها في بريطانية خاصة، وإدخالها كمادة أساسية ضمن منهج كلية إعداد الموظفين، كان محور المراسلات المتبادلة بين بعض المسؤولين البريطانيين وحبيب السالموني السالف الذكر.

وتكشف الوثائق كما سبق ذكره صلة حبيب السالموني بكبار الشخصيات والمسؤولين البريطانيين الذين لهم صلة مباشرة بمصر وشؤونها، من أمثال اللورد دفرن والسير إفلن وود وغيرهم.كما يتضح أن السالموني قد ناقش معهم فكرة توسيع تدريس اللغة العربية في بريطانية، خاصة للموظفين والعسكريين الذين ترتبط أعمالهم ومهماتهم بالعالم العربي. ويتّضح أيضاً أنه قد لقي تشجيعاً من أولئك الرجال الفاعلين مما شجّعه على رسم برنامج ووضع خطة لتدريس اللغة العربية، تمثّلت في تأليف كتاب لتعليم اللغة للمبتدئين. وفي سبيل حشد التأييد لفكرته، كتب السالموني إلى الكونتيسة غرانفيل رسالة مطوّلة بخصوص ذلك الموضوع. وتكشف الرسالة إلحاح سالموني لتسويق خبراته وعرض خدماته، حيث قدّم نفسه إلى المسؤولين في قسم التعليم العسكري بالحكومة كمدرّس متمكّن في اللغة العربية، وأكّد لهم أهمية دراستها وإدراجها كمادة أساسية في منهج كلية إعداد الموظفين. وقد ذكر سالموني في رسالته للكونتيسة غرانفيل إنه يملك شهادات ورسائل تزكية تشهد بكفاءته في تدريس اللغة العربية، من شخصيات متنفذة من أمثال اللورد دفرن والسير إفلن وود والجنرال راولسون وغيرهم. كما زعم سالموني بأنه انتخب عضواً في الجمعية الملكية الآسيوية، والتي قال إنه سيلقي أمام مؤتمرها السنوي بحثاً عن اللغة العربية وأهمية دراستها. وهدف سالموني الرئيسي من رسالته تلك إلى الكونتيسة غرانفيل هو طلب المساعدة المالية والشكوى لها من ضنك العيش إضافة إلى الديون المتراكمة على كاهله[١١]. ولكن بالرغم من مؤهلاته وبالرغم من التزكيات التي أوردها في رسالته وبالرغم من إلحاحه في طلب المساعدة المالية، إلا أن كل هذه لم تقنع الكونتيسة غرانفيل حيث كان جوابها الاعتذار له عن عدم وجود مكان شاغر له بالكلية. كما أنها رفضت تقديم مساعدة مالية لسالموني، بل ردّت عليه في تهكّم واضح ونصحته بأنه من الأفضل له أن يقدم نفسه إلى أولئك الأشخاص الذين يعرفونه ويسألهم المساعدة[١٢].

وهذا الموقف من الكونتيسة ربما جعل السالموني صيداً سهلاً لرجال المخابرات الذين سيجندونه في خدمة المخابرات البريطانية، خاصة بعد أن عرفوا حاجته إلى المال ورغبته في التعاون، إضافة إلى المبالغة في الإلحاح بطلب المساعدة. وهذا ربما يفسّر سبب انخراط سالموني في سلك المخابرات البريطانية، حيث أُرْسِل في مهمّة إلى باريس كما سبق ذكره من قبل.

إنشاء صحف موالية لبريطانية في مصر:

دأبت بريطانية منذ احتلالها لمصر، ١٨٨٢م على تذليل كل الصعاب التي تعترض تحقيق هدفها الرئيسي المتمثّل في تكريس احتلالها للبلاد وجعله أمراً واقعاً. فعمدت من ضمن أساليب أخرى إلى محاولة التأثير في الرأي العام المصري وخاصة في طبقة المتعلمين والمثقفين، وذلك عن طريق الدعاية لنفسها ولنظامها وإظهار صورة بريطانية المتحضرة التي أتت إلى مصر ليس بهدف الغزو والاحتلال وإنما بهدف الإصلاح. وكان من أبرز الوسائل التي استخدمتها بريطانية ورجال مخابراتها من أجل تلميع صورتها أمام رجل الشارع المصري الصحافة، سواء الصحافة المحليّة أم تلك الصحافة الوافدة على مصر من القسطنطينية وشمال أفريقية. وقد عمد المسؤولون البريطانيون على محاولة شراء ولاء بعض الصحف الصادرة في مصر ودعمها مادياً ومعنوياً لتروج لوجهة النظر البريطانية وتظهر المحتلين وكأنهم مصلحون لا غزاة مستعمرين. وقد وقع اختيار رجال المخابرات البريطانية على جريدة من أهم الجرائد في الدولة العثمانية في تلك الفترة ومن أوسعها انتشاراً(١٣)، وهي جريدة الجوائب، التي كانت تصدر من استانبول ويرأس تحريرها سليم أحمد فارس الشدياق(١٤). ويشكّل موضوع سليم فارس وجريدته التي أنشأها في القاهرة على أنقاض جريدة الجوائب وعلاقته بالمخابرات البريطانية، والدعم الذي يتلقاه من الحكومة البريطانية، والأهداف التي يرجو البريطانيون تحقيقها مقابل ذلك الدعم، وموقف سليم فارس من كل ذلك ونهاية علاقته بالمخابرات البريطانية، حيزاً كبيراً من وثائق المخابرات البريطانية

التي أُفرج عنها مؤخراً، بل أنها حظيت وبما يقارب العامين باهتمام بعض الدوائر الحكومية البريطانية، حيث كانت محور العديد من المكاتبات السرية بين المسؤولين البريطانيين: سواء في وزارة الهند أو وزارة الخارجية أو دار المعتمد البريطاني في مصر. أما عن تاريخ بدء علاقة سليم فارس بالمخابرات البريطانية وكيفيتها، فتكشف الوثائق أن أول اتصال مباشر بين سليم فارس ورجال الاستخبارات البريطانية كان في إبريل (نيسان) ١٨٨٥م وذلك عن طريق السير جورج بيردوود (Sir George Birdwood)، الذي تصفه الوثائق بأنه صديق حميم لسليم فارس والذي لعب دور الطرف الثالث في علاقة سليم فارس بالمخابرات البريطانية، كما سيرد ذكره لاحقاً، وهذا لا ينفي عدم وجود اتصالات بين الطرفين قبل ذلك، خاصة أن والد سليم كانت له صلات وثيقة مع البريطانيين[١٥].

يرد اسم سليم فارس لأول مرة في الوثائق البريطانية في مذكرة كتبها أحد موظفي وزارة الهند إلى وزارة الخارجية، وتُعدّ من الوثائق الهامة التي تكشف طبيعة العلاقة بين سليم فارس وجهاز المخابرات البريطاني، والتي تضمنت الحقائق الهامة التالية: كشفت الوثيقة أن اللورد كمبرلي (Lord Kimberley) وزير الهند، قد أعدّ خطة للتعامل مع سليم فارس وجريدته التي يصدرها باسم الجوائب. وأنه لا بدّ من موافقة وزارة الخارجية وخاصة جهاز الاستخبارات على تلك الخطة، التي وصفها كمبرلي بأنها ربما تحقّق العديد من المزايا لبريطانية وسياستها في مصر، وتتلخّص خطة كمبرلي فيما يلي:

أ- اقترح كمبرلي أن يصرف لسليم فارس مبلغ ٢٠٠ جنيه إسترليني في الحال كمساعدة له في تكاليف نقل جريدته -الجوائب- من اسطانبول وإعادة تأسيسها وإصدارها من جديد في القاهرة. وينصح كمبرلي عدم فرض أي شروط محدّدة في البداية على سليم مقابل ذلك الدعم، لأن كمبرلي يرى أن الحكومة البريطانية

لن تتأثر بفقد ذلك المبلغ حتى ولو فشل سليم فارس في خدمة أهداف الحكومة البريطانية.

ب- يُعْطَى سليم فارس ١٠٠ جنيه إسترليني سنوياً هي عبارة عن اشتراكات الحكومة البريطانية وموظفيها في مصر، في تلك الجريدة على أن يبدأ ذلك المبلغ من بداية تاريخ الصدور.

ج - بالرغم من إدراك اللورد كمبرلي بأن الفائدة التي قد تعود على الحكومة البريطانية من ذلك ليست مقتصرة بالدرجة الأولى على وزارة الهند، إلا أنه تعهّد بأن تلتزم وزارته بدفع نصف المبلغ السنوي الذي يُخصّص لسليم فارس، أي أن وزارة الهند كانت مستعدة لأن تدفع لسليم فارس ١٠٠ جنيه إسترليني حالاً و ٥٠ جنيهاً (نصف المبلغ المخصص للاشتراكات) في المستقبل.

د - سترسل وزارة الهند المبلغ كاملاً ٢٠٠ جنيه حالاً لسليم فارس فور استلامها لحصة وزارة الخارجية، وسيتمّ تسليم المبلغ لسليم فارس ليس بالطريقة الرسمية ولكن عن طريق طرف ثالث هو السير جورج بيردوود (صديق سليم فارس) الذي سيقدمه له على اعتبار أنه معونة من صديق إلى صديقه وليس دعماً حكومياً كثمن لتأييد سليم فارس ودعايته في جريدته المزمع إنشاؤها لوجهة النظر البريطانية. لقد دافع اللورد كمبرلي عن خطته تلك واعتبرها مقايضة مربحة زهيدة التكاليف. كما أشار إلى أنه واثق بأن المسؤولين في مصر وعلى رأسهم السير إفلن بارنج سيقدّمون كل ما في مقدورهم من دعم وتأييد لسليم فارس وجريدته[١٦] ، يلاحظ أن المسؤولين البريطانيين سواء في وزارة الهند أو وزارة الخارجية أو دار المعتمد البريطاني في مصر كانوا حريصين على عدم التعامل مع سليم فارس مباشرة، ربما لأنهم لا يريدون كشف حقيقة نواياهم تجاه مصر أو ربّما لأنهم يريدون أن يحفظوا لأنفسهم خط الرجعة فيما لو سارت

الأمور على غير ما يبتغون. وهذا يعني أنهم في تلك المرحلة لم يبلغوا في تعاملهم مع سليم فارس إلى درجة الالتزام القانوني أو حتى الأدبي. فهم لا يعرفون الرجل جيداً، فربما أخذ أموالهم وكتب ضدهم، وهذا ما سيحدث فعلاً كما سنرى فيما بعد.

تكشف الوثائق بما لا يدع مجالاً للشك موقف وزارة الخارجية وجهاز الاستخبارات الملحق بها من خطة اللورد كمبرلي السالفة الذكر، حيث كان موقف وزارة الخارجية واضحاً وصريحاً وتمثّل موافقتها على الخطة المشار إليها دون تعديل. وقد كتب ساندرسون وعلى لسان وزير الخارجية اللورد غرانفيل إلى وزارة الهند مذكرة تضمنت موافقة الوزارة على الخطة، كما أحيط السير إفلن بارنج بمضمون تلك الخطة وطُلِبَ منه تقديم التسهيلات الضرورية لسليم فارس والعمل على تذليل الصعوبات التي قد تعترضه أثناء تأسيس وإصدار جريدته في مصر[١٧].

كما حظيت الخطة باهتمام المسؤولين في وزارة الخارجية. يعكس ذلك استعجال الوزارة إلى تسديد حصتها في دعم سليم فارس، حيث أُرسل المبلغ بعد يومين من تلقي الطلب من وزارة الهند وبالتحديد بتاريخ ٢ مايو (أيار)١٨٨٥م. وتذكر الوثائق أن كامل المبلغ المقترح كدعم لسليم فارس قد أُرسل إليه واستلمه عن طريق السير جورج بيردوود كما سبق ذكره. وقد أكد مسؤولو وزارة الهند بالذات السير اوين بيرن على عدم كشف أي تفاصيل عن الخطة أو حتى إعلام المعتمد البريطاني في مصر بمضمونها قبل تلقي السير جورج بيردوود معلومات أكيدة من سليم فارس عن خطة عمله المستقبلية[١٨]. وطلب أوين هذا ينطوي على دلالتين هامتين:

الأولى: الصلة الوثيقة بين سليم فارس والمسؤولين البريطانيين والتلميح إلى أنه ربما كان هناك مفاوضات أو على الأقل تقدير تنسيق مسبق بين وزارة الهند الممثلة في

السير بيردوود وبين سليم فارس، مما يرجّح أن سليم فارس يعرف مع من يتعامل ويدرك العمل المتوجب عليه القيام به مقابل ذلك الدعم البريطاني.

الدلالة الثانية: تشير إلى الصراع الخفي بين وزارة الهند ووزارة الخارجية وجهاز الاستخبارات على التأثير في رسم السياسة الخارجية لبريطانية خاصة في الشرق.

فالبرغم من طلب أوين الصريح من وزارة الخارجية عدم مكاتبة أو مفاتحة المعتمد البريطاني في مصر السير بارنج بالخطة قبل اتضاح الأمور، إلا أن ساندرسون كتب ملاحظة على نفس الورقة وفي نفس اليوم الذي تلقى فيه مذكرة أوين ذكر فيه أنه قد تطرّق إلى نفس الموضوع مع السير بارنج، الذي قال لساندرسون أنه يعرف كل تفاصيل الموضوع. كما أن هذا يؤكد مكانة بارنج وحرص المسؤولين على التنسيق معه مسبقاً(١٩).

يتّضح مما سبق ذكره أن الحكومة البريطانية وجهاز مخابراتها كانت على صلة بسليم فارس، وأن هناك خطة محدّدة أُعدّت لتجنيده وجريدته لخدمة المصالح البريطانية. ولكن ماذا عن سليم فارس نفسه، هل كان يدرك أنه يتعامل مع المخابرات البريطانية وأن الدعم الذي كان يتلقاه من صديقه بيردوود كان مجرداً من أي تبعات أو التزامات؟؟. ثم ماذا كان رد سليم فارس على السير جورج بيردوود والذي تحدثت عنه الوثيقة السابقة. تجيب الوثائق عن كل هذه الأسئلة وغيرها بكل وضوح، فسليم فارس يدرك تماماً أنه يتعامل مع الحكومة البريطانية ويعرف جيداً أن الدعم الذي كان يتلقاه لن ولم يكن بدون تبعات أو التزامات. وقد كتب فارس رسالة على درجة كبيرة من الأهمية توضح طبيعة علاقته مع المسؤولين البريطانيين، بالذات السير جورج بيردوود والسير إفلن بارنج، وتشير إلى الالتزامات التي يتوجب عليه الإيفاء بها. وقد تضمنت رسالة سليم فارس التي كتبها بخط يده من استانبول والمؤرخة في ٢٩ يونيو (حزيران) ١٨٨٥م الحقائق التالية:

أولاً: بدأ سليم فارس مقتنعاً بالفكرة التي وردت في خطة اللورد كمبرلي والمتمثّلة في نقله لجريدته "الجوائب" من استانبول وإعادة تأسيسها بالقاهرة. وهذا يوضح أن هناك مناقشات ومداولات وربما مساومات من قبل قد دارت بين سليم فارس والسير جورج بيردوود، أثمرت عن اقتناع سليم بنقل الجريدة التي أسسها والده أحمد فارس الشدياق في العاصمة العثمانية إلى القاهرة، رغم الدعم الذي كانت تحظى به الجريدة من الدولة العثمانية وكذلك الشهرة والانتشار الذي اكتسبته هناك وفي سائر أرجاء الدولة العثمانية.

ثانياً: تثبت الرسالة بما لا يدع مجالاً للشك، أن سليم فارس يعرف جيداً أنه يتعامل مع المسؤولين البريطانيين كالسير بارنج وليس فقط مع صديق شخصي كالسير بيردوود. فهو يعترف بأنه لجأ إلى السير بارنج عندما واجه صعوبات في استخراج إذن من الحكومة المصرية بإصدار جريدته بالقاهرة. وقد ذكر سليم فارس في رسالته تلك بأن السير بارنج قد تدخّل لدى السلطات المصرية ونتيجة لجهوده وتوسطّه حصل على الترخيص بإصدار جريدته.

ثالثاً: يبدو أن سليم فارس قد اقتنع تماماً بالعرض البريطاني، إلى درجة أنه باع منزله في استانبول وممتلكاته الأخرى كما توقع إصدار جريدته من القاهرة مع بداية أغسطس (آب) ١٨٨٥م[٢٠].

لقد نقل السير بيردوود تلك المعلومات إلى المسؤولين البريطانيين في وزارة الهند ووزارة الخارجية، كما وردت في رسالة سليم فارس الآنفة الذكر[٢١]. ويتّضح من المكاتبات بين المسؤولين البريطانيين أن سليم فارس قد أخفق بالإيفاء بالتزامه للبريطانيين بإصدار الجريدة من القاهرة مع بداية أغسطس (آب) ١٨٨٥م، وقد انقطعت المراسلات بين سليم فارس والسير جورج بيردوود طوال شهر يوليو (تموز)، و ولكن عاود سليم الكتابة إلى بيردوود مع بداية أغسطس (آب) معتذراً عن

التأخير غير المتوقّع ومؤكداً في الوقت نفسه أنه يستعد للمغادرة إلى القاهرة. ويفهم من رسالة سليم فارس أنه يتوقع حدوث بعض العراقيل له في القاهرة، ربما من السلطات المصرية. وهذا ما يفسّر طلبه من السير جورج بيردوود إرسال خطاب توصية ليقدمه إلى السير بارنج في القاهرة، لمساعدته في تأسيس جريدته هناك. اهتم المسؤولون البريطانيون في وزارة الهند بما طلبه سليم فارس، بل زيادة في الحرص على تذليل جميع الصعاب التي قد تعترضه، طلب السير أوين بيرن من مسؤولي وزارة الخارجية إرسال توصية أخرى إلى سليم فارس من الرجل البريطاني الثاني في مصر السير هنري درامندولف[٢٢] ولم تتوانَ وزارة الخارجية في تذليل كل الصعوبات التي قد تعترض سليم فارس في مصر، حيث أرسلت رسائل التوصية تلك إلى مسؤولي وزارة الهند الذين أرسلوها بدورهم إلى سليم فارس، ويعكس اهتمام مسؤولي المخابرات بهذا الأمر أنهم سلموا الرسائل السالفة الذكر في اليوم التالي لتلقي الطلب أي في ١٨ أغسطس (آب) ١٨٨٥م[٢٣].

من الواضح أن التسهيلات التي قدّمتها الحكومة البريطانية لسليم فارس سواء رسائل التوصية أو استخدام المسؤولين البريطانيين في مصر، أمثال السير إفلن بارنج لنفوذهم من أجل تذليل كل الصعاب التي اعترضت إنشاء الجريدة، أو ذلك الدعم المالي الذي كان يتلقاه سليم فارس، قد ساهمت جميعها مساهمة رئيسية في تهيئة الجو لسليم فارس بالاستقرار في مصر، وبالتالي إنشاء جريدته الجديدة التي أسّسها على أنقاض جريدة الجوائب، والتي أطلق عليها اسم جريدة "القاهرة". وتتفق المصادر العربية مع الوثائق البريطانية بأن أول عدد صدر من جريدة القاهرة كان في ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٨٥م، ولكن الجريدة كانت تصدر آنذاك مرتين في الأسبوع ثم تحولت منذ ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٥م إلى جريدة يومية[٢٤].

اتضحت نوايا المسؤولين البريطانيين ومطالبهم الحقيقية والمنتظر من سليم فارس تحقيقها، فالشروط التي اقترح اللورد كمبرلي في بداية الاتصالات مع سليم فارس عدم

فرضها بدأت تفرض بعد إصدار الأخير لجريدة القاهرة. وقد تبلورت سياسة الحكومة البريطانية وجهاز استخباراتها تجاه سليم فراس وجريدته في عدة رسائل هامة متبادلة بين مسؤولي وزارة الهند ووزارة الخارجية، والتي كان من أهمها تلك الرسالة التي أرسلها جورج بيردوود إلى وزارة الخارجية بتاريخ ١ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٥م والتي تضمنت الحقائق التالية:

أولاً: أكد السير بيردوود أن سليم فارس قد أصدر فعلاً جريدة القاهرة وذكر أن الإصدار الأول من الجريدة كان عشرة آلاف نسخة وزعت مجاناً بهدف جذب القراء. وهذا الرقم يعد رقماً كبيراً بمقياس توزيع الصحف في ذلك الوقت. والأهم من ذلك أنه يعكس ثقة سليم فارس بنفسه وبنجاح جريدته الجديدة بل بوقوف البريطانيين ومساعدتهم له، فهو يبدو واثقاً من استمرار الدعم البريطاني، فلو لم يكن كذلك لما أغرق السوق الصحفية بهذا الكم الهائل من نسخ جريدته المغمورة في مصر.

ثانياً: تتلخّص سياسة الحكومة البريطانية تجاه الجريدة وكما تكشفها تلك الرسالة بالضغط على سليم فارس عن طريق الاشتراكات، أي أن المسؤولين البريطانيين يستخدمون مسألة تجديد الاشتراكات الحكومية في الجريدة والتي يقدر ريعها بـ ١٠٠ جنيه إسترليني، كورقة ضغط لمساومة سليم فارس لتسخير جريدته للدعاية للبريطانيين وسياستهم في مصر. ويتّضح تعاطف السير بيردوود مع سليم فارس، حيث أيّد دفع اشتراكات السنة الأولى مقدماً. وعلّل ذلك بإدراكه أن سليم فارس كان في أمسّ الحاجة إلى ذلك المبلغ، خاصة أن تكاليف نقل جريدته إلى القاهرة كانت ثلاثة أضعاف ما كان متوقعاً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يبدو أن السير بيردوود كان يرمي إلى كسب ثقة سليم فارس الذي سيطمئن على مستقبل جريدته، ومع مرور الزمن سيصبح معتمداً على الدعم البريطاني،

وبالتالي لن يجد محيصاً من الرضوخ لرغبات الإنكليز بالدعاية لهم ولسياستهم في مصر.

ثالثاً: ذلك التعاطف من قبل السير بيردوود لم يكن مطلقاً، أي تجديد الاشتراكات في الجريدة لسنة ثانية مرتبط بتقارير القنصل العام في مصر، الذي اقترح بيردوود بأن يكلّف بكتابة تقارير دورية عن الجريدة وسياستها وسلوك رئيس تحريرها. وقد ذكر بيردوود بأنه سيبلغ سليم فارس صراحة بأن الحكومة البريطانية غير ملتزمة بتجديد الاشتراكات لسنة ثانية، إلا إذا أثبتت الجريدة نجاحها. وهذا من وجهة نظر السير بيردوود مرتبط بالتقارير المرسلة من القنصل العام في مصر. إذاً ما هو المغزى الحقيقي من ذلك الإنذار الذي وجهه السير بيردوود إلى سليم فارس؟!. هل يعني مثلاً تخلّي الحكومة البريطانية عن دعم الجريدة؟؟. ترمي الحكومة البريطانية وكما يذكر السير بيردوود من وراء ذلك الضغط على سليم فارس إلى تحقيق ما يلي:

أ- التأكد بأنهم (أي البريطانيين) سيحصلون على الدعاية لسياستهم مقابل الأموال التي يدفعونها كدعم لسليم فارس.

ب- تريد الحكومة أن يعتمد سليم فارس على ثقة القنصل البريطاني الذي سيكتب التقارير عن الجريدة، والتي على ضوئها سيتقرر تجديد الاشتراكات في الجريدة أو عدمه. إذاً سليم فارس سيتحوّل إلى موظف بريطاني وعليه إذا أراد استمرار الدعم أن يتودد إلى القنصل البريطاني وينفّذ مطالبه لكي يزكي استمرار تجديد الاشتراكات.

ج- تسعى الحكومة البريطانية إلى كبح جماح سليم فارس، فبالرغم من أن بيردوود لا يساوره أدنى شك في إخلاص سليم فارس لبريطانية، إلا أنه متخوف من وقوع سليم فارس تحت تأثير المشايخ وعلماء الأزهر، خاصة أن أجواء القاهرة

السياسية في تلك الفترة أكثر تشدداً من استانبول. ومن أجل تفادي ذلك اقترح السير بيردوود وكما سبق ذكره إفهام سليم بأن القنصل العام سيكتب تقارير دورية عن وضع جريدته وسياستها، وعلى ضوئها يتوقف تجديد الاشتراكات في الجريدة أو عدمه(٢٥).

تمثّل الآراء التي أوردها السير جورج بيردوود في رسالته السالفة الذكر، جوهر السياسة التي ترى وزارة الهند أتباعها إزاء سليم فارس وجريدته، ولكن ماذا كان موقف وزارة الخارجية من تلك المسألة. أخذت وزارة الخارجية بالآراء التي أوردها السير بيردوود ودعمت الخطة التي اقترحها في التعامل مع سليم فارس وجريدته. وقد دفعت وزارة الخارجية حصتها في الاشتراكات والتي تمثل نصف قيمة الاشتراكات السنوية أي (٥٠ جنيه إسترليني)، حيث أرسل المبلغ إلى السير أوين بيرن، الذي أرسله بدوره إلى السير جورج بيردوود الذي سيدفع المبلغ كاملاً مع اشتراك وزارة الهند إلى سليم فارس حسب الاتفاق(٢٦). ولم تكتفِ وزارة الخارجية بالدعم المادي فقط، بل أنها نفذّت مقترحات السير بيردوود بحذافيرها وقد أخذ المسؤولون في وزارة الخارجية بآراء مسؤولي الاستخبارات المتضمنة إرسال نسخة من رسالة بيردوود السالفة الذكر إلى المعتمد البريطاني في مصر أو نائبه، ليهتدوا بما تضمنته من مقترحات في تعاملهم مع سليم فارس وجريدته. وبالفعل بُلّغ إيغرتون (Egerton)، نائب بارنج، بمضمون رسالة بيردوود، أما السير بارنج الذي كان في لندن آنذاك فقد اطلع على الرسالة(٢٧).

كما أُرسِلَتْ التعليمات إلى إيغرتون، والتي نصّت صراحة على ضرورة مراقبة دار المعتمد البريطاني لجريدة سليم فارس، ومتابعة توجهها العام وكتابة تقرير عن ذلك بين الحين والآخر. وقد نبّه مسؤولو وزارة الخارجية إيغرتون إلى توخّي الحذر في تعامله مع سليم فارس وعدم القيام بأي تصرف يمكن أن يفهم منه، أن الدعم الذي تلقاه آت من الحكومة البريطانية. وقد زعم مسؤولو الاستخبارات ووزارة الخارجية بأن

سليم فارس لا يعلم أو من المفترض أن لا يعرف أن جريدته، تتلقى الدعم من الحكومة البريطانية، بل يعتقد أن ذلك الدعم يأتيه من أصدقاء خاصين بالذات من السير جورج بيردوود الذي يعرف سليم فارس جيداً[٢٨] وقد اتّفق إيغرتون مع مسؤولي الاستخبارات بضرورة مراقبة جريدة سليم فارس، كما تعهد بتنفيذ تعليمات الوزارة وكتب إلى الوزارة بأن الجريدة قد بدأت مراقبتها فعلياً ابتداءً من ٢٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٥م[٢٩].

يتّضح مما سبق إيراده من المراسلات المتبادلة بين المسؤولين البريطانيين أن علاقتهم لسليم فارس لم تصل بعد إلى درجة الثقة التامة، وهذا ما يفسّر إصرار مسؤولي الاستخبارات بضرورة مراقبة الجريدة وكتابة تقارير عن خطها العام وما تطرحه من قضايا. وقد استعجل إيغرتون كتابة تقرير عن الجريدة بعد ثمانية أيام فقط من البدء في مراقبتها فأرسل في ٣٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٥م تقريراً إلى وزارة الخارجية يُعدُّ تقييماً مبدئياً للجريدة ورئيس تحريرها. وقد تضمّن ذلك التقرير ما يلي:

أولاً: وفقاً لإيغرتون فسليم فارس يسير بجريدته الناشئة سيراً موفقاً وقد حولها من جريدة تصدر مرتين في الأسبوع إلى جريدة يومية اعتباراً من تاريخ ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٥م.

ثانياً: فيما يتعلق بسياسة الجريدة، يذكر إيغرتون أن سليم فارس قد خطّ لنفسه خطاً مستقلاً يميزه وجريدته عن باقي الصحف الصادرة في مصر آنذاك. ولكن إيغرتون يقّر بأن سليم فراس لم يتطرق في جريدته إلى الإنكليز أو سياستهم في مصر. ولكن ضمن المواضيع والقضايا التي أثارها سليم فارس في جريدته انتقاده الحاد لكبار موظفي الحكومة المصرية بالذات، انتقاده للرواتب الفاحشة التي يتقاضونها. كما أثار سليم أيضاً موضوع الجيش المصري وضرورة إعادة بنائه من جديد، واعتباره أن هذه المسألة مطلباً ملحاً لمعظم المصريين ويجب أن

تكون من أولويات الحكومة المصرية. كما أن سليم لا يخفي دعمه للسلطان العثماني، فهو يؤيد كغيره من مثقفي عصره ضرورة قيام اتحاد وثيق بين مصر والدولة العثمانية. ويرى إيغرتون أن الترويج لمثل تلك الأفكار يمكن أن يُلْحِق الضرر على المدى البعيد بمصالح بريطانية الحيوية في مصر. ختم إيغرتون تقريره بأن الروح الطيبة كانت ظاهرة في تعامل سليم مع البريطانيين، ولكن تلك الروح كانت مستقلة(٣٠).

إن تقرير إيغرتون السالف الذكر يشير إلى جانب مهم من شخصية سليم فارس الذي يصفه التقرير بأنه مناور ماهر، فهو لا يتطرّق إلى البريطانيين لا بخير ولا بشر، كما أنه لا يهاجمهم صراحة، وفي الوقت نفسه، لا يكيل لهم المديح بالرغم من إدراكه واعترافه بمساهمتهم الكبيرة في تأسيس ودعم جريدته الناشئة. هذا بالإضافة إلى إثارته لقضايا هامة في تلك الفترة، والتي يمكن أن تلقى آذاناً صاغية عند عامة المصريين مثل قضية إصلاح الجيش المصري ودعوته لمحاربة الفساد والبذخ، خاصة أن البلاد كانت تنوء بتحمل عبء الديون الأوروبية وفوائدها المقدرة آنذاك بعشرات الملايين من الجنيهات، إضافة إلى ذلك ترويجه لفكرة الجامعة الإسلامية، وتوثيق العلاقة مع الدولة العثمانية. وبالتأكيد مثل هذه الدعوات ومثل تلك القضايا التي أثارها سليم فارس لا يحبّذها البريطانيون، فليس من مصلحتهم إطلاقاً أن يكون لمصر جيش قوي يمكن أن يؤثر في سير الأحداث، كما أنه ليس من المرغوب فيه بالنسبة للإنكليز تقارب مصر مع الدولة العثمانية، لأن تقارب كهذا يمكن أن يقوّي مصر والدولة العثمانية في آن واحد، وهذا بالتأكيد مناقض لتوجهات السياسة البريطانية. ومن المؤكد أن المسؤولين البريطانيين سواء في وزارة الخارجية أو الاستخبارات لن يرضوا عن طرح تلك القضايا والترويج لتلك الأفكار في صحيفة مدعومة من الحكومة البريطانية.

إن الدراسة المتأنية لنماذج من المقالات الافتتاحية لجريدة (القاهرة) التي أصدرها سليم فارس بدعم من الإنكليز، تشير بوضوح أن سليم فارس لم يكن صيداً سهلاً للإنكليز،

بل يظهر العكس تماماً، فالرجل تمكّن بمهارته في المراوغة من التغرير بالإنكليز. فبالرغم من اعترافه بفضلهم عليه وعلى جريدته، إلا أنه لم يكن بوقاً لسياستهم في مصر بل يظهر النقيض. فغالبية المقالات الافتتاحية التي كتبها سليم نفسه كانت في مجملها تحمل انتقاداً صريحاً أو ضمنياً للبريطانيين وسياستهم في البلاد. وقد دافع سليم فارس عن وجهة النظر العثمانية إزاء مصر، وانتقد السياسة البريطانية بالذات معالجة الخلاف بين بريطانية والدولة العثمانية حول المسألة السودانية. وأيّد سليم وجهة النظر العثمانية والمصرية بخصوص تلك المسألة والمتمثّلة في احتجاجها على السياسة البريطانية في السودان، والتي تمثّلت في تصعيد الأمور هناك وذلك بإرسال بريطانية المزيد من قواتها إلى السودان، مما دفع السودانيين إلى حركة مضادة لذلك الاستفزاز البريطاني. وقد أيّد سليم وجهة نظر الغازي مختار باشا، ممثّل الدولة العثمانية في تلك المفاوضات المتمثّلة في رفضه التوجه إلى وادي حلفا بهدف تقصّي الحقائق وإصراره على ضرورة تقصّي الحقائق في مصر أولاً قبل السودان. وقد حمل سليم على الإنكليز لأنهم لا يستشيرون المصريين خاصة العلماء الذين وصفهم المقال بأنهم "مصباح الأمة"، وأهل الحل والعقد في الديار المصرية. كما انتقد سليم صراحة السير هنري درا مندولف، ممثل بريطانية في تلك المفاوضات، على اهتمامه بآراء الجاليات الأوروبية في البلاد وزيارته لبعض رجالاتهم وأكّد أن الأفكار العمومية في مصر ليست أفكار الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين والألمان، بل هي أفكار المصريين الذين هم أدرى بوطنهم وما يُصلح أحوله. وبالرغم من انتقادات سليم اللاذعة للبريطانيين وسياستهم في مصر، إلا أن الرجل لا يخرج عن بعض الأفكار السائدة في عهده والمتمثّلة في محاولة التوفيق والمهادنة مع القوى المحتلة. فبالرغم من تأكيده على أن المصريين ليسوا أعداء لحكومة إنكلترة، إلا أنه يبالغ في مهادنته للقوة المحتلة حيث يقول وبسذاجة سياسية- "إن المصريين يعترفون بأن لبريطانية حقاً في هذه الديار ببعض منح وامتيازات تقتضيها طريق الهند". ولا يخرج سليم فارس عن الفكرة

السائدة في عصره والتي تربط بين التطور والائتلاف مع القوى الغربية؛ حتى ولو كانت معتدية ظالمة؟ فسليم يدعو إلى التوفيق بين منافع المصريين والبريطانيين، فيرى أن "هناك منافع من ائتلاف المصريين مع الإنكليز، كما أن للإنكليز أيضاً منافع في ائتلافهم مع المصريين(٣١).

كما تناول سليم فارس سياسة بريطانية وتقاعسها عن الدفاع عن مصالح مصر فيما يتعلق بالمسائل المالية، وبالذات الديون المتراكمة على الخزينة المصرية. وهاجم سليم إصرار بريطانية وغيرها من الدول الأوروبية على احتساب فوائد مرتفعة على الديون المصرية، حتى أن نصف إيراد مصر المقدر آنذاك بتسعة ملايين جنيه إسترليني يذهب لخدمة فوائد الديون المصرية، التي بلغت آنذاك ما يقارب ١٠٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني. وقد أرجع سليم فارس بعضاً من مشاكل مصر المالية إلى سياسة الاحتلال المالية، مدلّلاً على ذلك بأن مصاريف العساكر البريطانيين في مصر قد كلّفت الخزينة المصرية ما يقارب من ٣٠٠ ألف جنيه سنوياً، مما تطلب اتخاذ إجراءات تقشفية جاءت على حساب المصريين دون سواهم. وقد ذكر سليم فارس أن ضمن تلك الإجراءات فصل ما يقارب المائتي مأمور من أعمالهم بحجة تقليص النفقات. وقد خلص سليم فارس إلى القول: إن إنكلترة إذا أرادت تسوية مسألة السودان فلا بدّ من تسوية مشاكل مصر المالية، وذلك بسعيها لتقليص نسبة الفائدة على الديون المصرية، ومن ثم صرف النظر عن المائتي ألف جنيه المخصّص لنفقات العساكر البريطانيين في مصر(٣٢). وشمل نقد سليم الصريح للإنكليز سياستهم القضائية وإصرارهم على تعديل نظام المحاكم المختلطة، كما أنه دعى في مقال هام إلى الاهتمام بالجيش المصري وضرورة بناء جيش مصري قوي يحفظ الاستقرار في البلاد. وقد دعم وجهة النظر العثمانية في هذه المسألة بالذات، حيث نشر نصاً كاملاً لتقرير الغازي مختار باشا حول ذلك. وقد تضمّن ذلك التقرير اقتراحاً عثمانياً بإعداد وتنظيم الجيش المصري، حتى لا تتفاقم المناوشات وتزداد المشاكل التي يقوم بها

السودانيون آنذاك، كردة فعل لتحرك القوات البريطانية. وأكّد المقال إلى أن إعداد جيش مصري قوي يساهم في \إقرار الأحوال ليس في مصر وحدها وإنما في السودان أيضاً. كما اقترح التقرير ضرورة سيطرة الحكومة المصرية وجيشها على النيل وحدّد مدينة (دنقلة) لتكون مركز لتجمع العساكر المصرية -العثمانية، وقد أكّد التقرير على ضرورة أن تكون تلك العساكر مصرية سواء الجنود منهم أو الضباط. أما عن عدد تلك العساكر فقد اقترح التقرير جيشاً لا يقل عن ١٦ ألف جندي(٣٣).

لم يقتصر انتقاد سليم فارس على البريطانيين وسياستهم في مصر بل بلغ به الحدّ إلى انتقاد الحكومة المصرية نفسها. وقد كتب مقالاً هاماً في جريدة (القاهرة) هاجم فيه تخاذل الحكومة المصرية وحكام مصر من أسرة محمد علي الذين ساهموا بتخاذلهم في وجود مصريّن "مصر المصريين" و"مصر الأوروباوين". وقارن في أسلوب ساخر ونقد لاذع بين الأوضاع المعيشية وبالذات الصحية السائدة في كل من المصريّن، وأظهر البون الشاسع خاصة في مجال الصحة العامة للشعب بين مصر الأوروبيين ومصر المصريين، وأرجع السبب الرئيسي الذي أوجد ذلك التفاوت بين المصرين إلى تهاون حكّام مصر من أسرة محمد علي منذ عهد سعيد باشا وإعطائهم الحرية للأوروبيين، وبذل الجهد في إرضائهم، كما انتقد الكاتب شركة قناة السويس والامتيازات الممنوحة لها. وحمل سليم على سياسة الاستدانة التي سار عليها حكّام مصر حتى غرقت مصر في الديون التي كانت فوائدها مرهقة لخزينة البلاد. وانتقد سليم أيضاً طريقة إنفاق الأموال، وخلص في تهكم أنها تتفق في خدمة الأوروبيين، فمن وجهة نظر "مصر بأسرها تقوم بتبليط مصر الأوروبيين"(٣٤).

إن هذا الأسلوب التحريضي الذي استخدمه سليم فارس في جريدة (القاهرة) والموجّه ضد البريطانيين وحكومة مصر الموالية لهم، لن يرضى المسؤولين البريطانيين الذين لن يقبلوا بالتأكيد بأن يكونوا مادة نقدية لجريدة مدعومة من الخزينة البريطانية. تكشف الوثائق البريطانية والمكاتبات المتبادلة بين السير إفلن بارنج ووزارة الخارجية

ومسؤولي الاستخبارات بوضوح عن السخط وعدم الرضا عن سليم فارس وأسلوبه، والقضايا التي طرحها في جريدة القاهرة. بل إن الوثائق توضح مدى العلاقة المتوترة بين رئيس تحرير جريدة (القاهرة) والمعتمد البريطاني في مصر السير إفلن بارنج، الذي كتب تقريراً هاماً بخط يده عن سليم فارس وجريدته وقد تضمّن ذلك التقرير الهام الحقائق التالية:

أولاً: أعاد بارنج إلى الأذهان فضله على سليم فارس، خاصة مساعدته له في استصدار تصريح من الحكومة المصرية بإصدار الجريدة. وكشف بارنج لأول مرة بأن جريدة سليم فارس كان من المفترض إيقافها من الوجهة القانونية، لأنها أصلاً لم تكن باسم سليم فارس وإنما باسم أحد وكلائه بالقاهرة، وادّعى بارنج أنه لولا تدخّله الشخصي واستخدام نفوذه لدى السلطات المصرية لما رأت الجريدة النور. وكان من نتيجة دفاع بارنج عن سليم وجريدته أن المسؤولين المصريين وعلى رأسهم نوبار باشا، رئيس الوزراء المصري، نظروا إلى بارنج وكأنه المسؤول عن تصرفات سليم فارس وأخطائه. وفي هذا تلميح إلى حيرة المسؤولين المصريين في الأهداف البريطانية وراء دعم كبار المسؤولين من أمثال بارنج وتبنيهم لجريدة سليم فارس. كما أن هذا يقود إلى استنتاج بأن المسؤولين المصريين نظروا إلى سليم فارس وجريدته وكأنه صنيعه للبريطانيين، وهذا ربما يفسّر غيظ السير بارنج من تصرفات سليم بل واعترافه صراحة بفشل جريدته فشلاً ذريعاً في خدمة المصالح والأهداف البريطانية.

ثانياً: لقد شكّك السير بارنج في أهداف ونوايا سليم فارس التي كانت وراء هجومه على البريطانيين وسياستهم في مصر، فهو مقتنع بأن سليم فارس لا يدعم مصالح البريطانيين وإن ادعى أن هجومه عليهم كان للتمويه على الرأي العام والتعمية على ما يتلقاه من دعم مادي من البريطانيين. كما استنتج بارنج في التقرير السالف الذكر أن سليم فارس ربما قصد من هجومه على الإنكليز أحياناً

رغبته في ابتزازهم، أي إجبارهم على إسكاته بالمزيد من الدعم المادي. وقد وصف التقرير سليم بأنه رجل مراوغ كما دعا بارنج إلى ضرورة إيقاف سليم عند حدّه ومنعه من التمادي في سياسة النقد اللاذع للسياسة البريطانية في مصر(٣٥).

ثالثاً: كرّر بارنج نفس المخاوف التي أبداها إيغرتون من قبل، بخصوص الأضرار المحتملة التي قد تنتج عن طرح مثل تلك الأفكار والمواضيع في صحيفة (القاهرة) على المصالح البريطانية. وذكر بارنج بالتحديد إثارة سليم لمشاعر المسلمين في مصر تجاه ما يمكن أن تحدثه السياسة البريطانية من تغيير بخصوص مكانة الشريعة الإسلامية في البلاد. وينظر بارنج إلى هذه المسألة بقدر كبير من الأهمية، لأنه يعدّها من أكثر القضايا حساسية في الصحافة المصرية. هذه الإثارة وفقاً لما أورده بارنج أغاظت رئيس الوزراء نوبار باشا من سليم، مما دفعه إلى أن يرسل له تحذيراً رسمياً.

رابعاً: يتساءل بارنج في حيرة عن الطريقة المثلى لاحتواء قضية سليم فارس، خاصة في حالة اعتباره مواطناً بريطانياً. ويؤكد بارنج أنه من غير المنطقي ترك سليم فارس يتصرف بتلك الطريقة. فالأمر يجب معالجته، وإلا فإن البريطانيين سيجدون مواطناً بريطانياً (يقصد سليم) يحرّر صحيفة معادية لمصالحهم في مصر ويكتب بأسلوب من المحتمل أن يتسبب في إثارة مشاعر العداوة والبغضاء للبريطانيين في تلك البلاد. ويتساءل بارنج بمرارة هل تحمي بريطانية شخصاً كهذا؟ وبالتالي يتدخل المسؤولون البريطانيون ليمنعوا الحكومة المصرية من إيقاف صدور جريدته؟؟

ويجيب بارنج عن ذلك التساؤل بالنفي ولكنه يلّح على حكومته بإرسال تعليمات واضحة لمعالجة مثل تلك الحالة(٣٦).

توالت تقارير السير بارنج المتعلقة بتقييم سليم فارس، حيث كشف في تقرير أرسله لوزارة الخارجية بتاريخ ٢١ مايو (أيار) ١٨٨٧م حقيقة عزم سليم القدوم إلى بريطانية بهدف محاولة الحصول على دعم من أصدقائه في لندن لإنشاء جريدة جديدة مستقلة. وقد توقّع بارنج بأن يكون الاتجاه العام للجريدة التي يزمع سليم فارس إصدارها، مؤيداً لوجهة النظر العثمانية تجاه مصر، وبالتالي الانتقاص من مكانة الحكومة المصرية ومصالح بريطانية الحيوية في مصر. ولكن كيف سيتصرف سليم لو لم يحصل على الدعم البريطاني؟ يجيب بارنج على هذا بأن سليم ربما يبدأ مهاجمة قانون المطبوعات المصري الذي لا يتيح مهاجمة البريطانيين أو انتقادهم علناً، وقد توقّع بارنج بأن سليم ربما يلقي آذاناً صاغية من بعض المصريين إذ هو أقدم على تلك الخطوة. ويكشف تقرير بارنج السالف الذكر معلومات مثيرة عن علاقة سليم فارس مع قوى أوروبية أخرى غير البريطانيين، فيشير إلى علاقة سليم بشخص يدعى فوشيه الذي وصفه التقرير بفوشير الصغير (Little Foucher) والذي كان مقيماً بالقسطنطينية. وقد توقّع بارنج بأنه ربما يحاول الحصول على مساعدته. ومن غير المعروف من هو فوشيه هذا ولكن من المرجّح أنه أحد المسؤولين بالسفارة الفرنسية في استانبول. ويصل غيظ بارنج من سليم فارس واستيائه إلى درجة تمنّى بارنج إيجاد وسيلة قانونية يمكن بواسطتها عدم معاملة سليم كمواطن بريطاني. فبارنج في حقيقة الأمر يطالب حكومته بالبحث عن سند قانوني يمكن أن يبرّر تجريد سليم فارس من جنسيته البريطانية، لأن هذا من وجهة نظره سيجنب الحكومة الانغماس في مشاكل كثيرة[٣٧].

يتّضح من المكاتبات بين المسؤولين البريطانيين، بأن تقارير السير بارنج السالفة الذكر قد أوجدت نوعاً من القناعة لدى أولئك المسؤولين بضرورة تغيير السياسة البريطانية تجاه سليم فارس وجريدته، ولكن تظل وجهات النظر متباينة حول ما آثاره السير بارنج من دعوته إلى إيجاد وسيلة لتجريد سليم فارس من جنسيته البريطانية. وتكشف

الوثائق بأن تلك الفكرة التي نادى بها السير بارنج لا تلقى الدعم من كل المسؤولين خاصة بعض مسؤولي الاستخبارات ووزارة الهند. ويتّضح هذا من دفاع السير بيردوود عن سليم فارس وتأكيده بأن أحداً لا يشكّ في انتمائه لإنكلترة كما كان والده من قبل. وقد تمنّى السير بيردوود صراحة بأن يعامل سليم فارس معاملة أي مواطن بريطاني وأن يُحظى بالحماية من كل الشرور مهما كانت الأخطاء التي كان يرتكبها. وقد كشف بيردوود في رسالة بعث بها إلى السير أوين، بأن سليم فارس يعتزّ بجنسيته، وقد ذكر لبيردوود مراراً عندما كان باستانبول بأن جنسيته البريطانية قد أنقذته من الضياع والإفلاس. ويستدل من كلام بيردوود بأن سليم كان على علاقة مع رجال المخابرات البريطانية منذ أن كان باستنابول، أي قبل ظهور فكرة انتقاله إلى القاهرة[٣٨]. ولكن ما هي الحلول المقترحة لحلّ معضلة سليم فارس، يقترح السير بيردوود حلّين لا ثالث لهما للتعامل مع سليم فارس، كلاهما يوفر السند القانوني للإجراءات التي ستتخذها الحكومة: الأول قطع الدعم المالي الذي كان يعطى لسليم فارس وجريدته، فالسير بيردوود هنا يتفق مع وجهة نظر السير بارنج في هذه المسألة. أما الحل الثاني فهو محاولة ترويضه والعمل على احتوائه، وهنا يتّضح الخلاف بين بيردوود والسير بارنج، حيث يرى الأخير العكس، فهو مقتنع تماماً بأن سليم فارس ميؤوس منه، ومن العبث إضاعة الوقت والجهد في محاولة تدجينه أو على الأقل إقناعه بالاستماع لوجهة النظر البريطانية[٣٩].

يتّضح من الوثائق أن مسؤولي الاستخبارات لم يأخذوا باقتراح السير بارنج. فهم كما يبدو لم يقطعوا الأمل بعد من إمكانية احتواء سليم فارس. وقد تساءل السير أوين بيرن في رسالة بعث بها إلى وزارة الخارجية عن إمكانية التحكم في سليم فارس وترويضه (managed him) . وعن معارضة السير بارنج لاستمرار الدعم الذي يعطى لسليم فارس وجريدته، وعلّق السير أوين بأن سليم يتلقى الدعم على أنه مساعدة من أصدقاء خاصين وليس من الحكومة البريطانية، لذا فليس هناك حرج بالنسبة للسير بارنج فهو

مطلق التصرف في هذه المسألة، لأنه لم يكن ملتزماً أصلاً كممثل للحكومة البريطانية في مصر بتقديم أي دعم لسليم فارس. وقد اقترحت الاستخبارات التريّث في مسألة قطع المخصصات السنوية التي كانت ترسل لسليم فارس، فالسير بيرن يرى الانتظار حتى نهاية عام ١٨٨٧م، عندها سيتقرّر إذا كان من الضروري التخلي عن سليم فارس وجريدته، وبالتالي إبلاغ السير بيردوود بوقف صرف تلك المعونات[٤٠].

استمر الجدل بين المسؤولين البريطانيين بشأن الطريقة المناسبة للتعامل مع سليم فارس. ويُلاحَظ أن وزارة الخارجية آثرت التريث ولم يقل المسؤولون رأيهم حول هذه المسألة حتى يستشيروا الرجل المكلّف بمتابعة نشاط سليم فارس في مصر، وهو السير إفلن بارنج. وقد أرسلت وزارة الخارجية رسالة إلى بارنج تسأله رأيه كما أرسلت مع ذلك رسائل بيردوود وبيرن السالفة الذكر[٤١]. وقد أجاب السير بارنج رؤساءه في لندن برسالتين على قدر كبير من الأهمية. كشفت الرسالة الأولى عن حقائق جديدة بخصوص تجنيد سليم فارس بالعمل لصالح المخابرات البريطانية. وهذه الحقائق تناقض جميع ما ذهب إليه مسؤولو وزارة الهند والاستخبارات الذين زعموا أن سليم فارس مجنّد دون علمه. لذا فهو يعتقد أن الدعم الذي تتلقاه جريدته يأتي من مصادر خاصة بالذات من صديقه السير جورج بيردوود، وليس من الخزينة البريطانية. لقد أكّد بارنج أن سليم فارس يعرف تماماً أنه يتلقى ذلك الدعم من الحكومة البريطانية، وأن المبالغ التي تُرسَل له تُدفَع من خزينة الدولة وليست من مال السير جورج بيردوود الخاص. وقد ذكر بارنج أن سليم قد أخبره صراحة بأن المبلغ الزهيد (١٠٠ جنيه إسترليني) الذي يدفع له ليس مجزية. وقد أعطى سليم بارنج الانطباع بأنه لا يقبل بصداقة بريطانية مقابل ذلك الثمن الزهيد. وقد علّق بارنج على ذلك بأن سليم فارس لا يريد أن يقتنع بوجهة النظر البريطانية، بل إنه يريد أن يُشترى أو بالأصح يرغب في بيع خدماته (He wants to be bought)[٤٢].

أما الرسالة الثانية فقد احتوت على رأي بارنج في كيفية التعامل مع سليم فارس. ويتلخص رأي بارنج في هذه المسألة في قطع المخصصات المالية المرسلة لسليم فارس وترك أمر جريدته للحكومة المصرية، لتتصرف معه كما تشاء. وقد حمل بارنج على سليم فارس ووصفه بالمخادع كما صنّفه ضمن المتشدّدين المسلمين. وخلص السير بارنج إلى القول إن سليم فارس لا يخدم المصالح البريطانية، فهو يأخذ أموال الإنكليز ويكتب ضدهم. ومن وجهة نظر رجل كهذا لا يستحق أي عطف أو مساعدة(٤٣).

تابعت وزارة الخارجية استشارتها حول معضلة سليم فارس مع كبار المسؤولين الذين لهم علاقة بمصر وشؤونها. فكتبت حول الأمر نفسه إلى السير درادمند ولف المرخص البريطاني في مصر والسودان تسأله رأيه حول مسألة سليم فارس. وتتلخّص وجهة نظر درادمند ولف في اتفاقه مع بارنج وبعض مسؤولي وزارة الخارجية بأن سليم فارس يشكّل خطراً لا يستهان به على المصالح البريطانية في المنطقة. وقد زعم السير ولف أن سليم فارس يمثّل بما كتبه وما يثيره من أفكار في جريدته، الحركة المتعصبة المنتشرة بين المسلمين. كما وصف السير ولف سليم بأنه رجل يبحث عن الشهرة والدعاية لنفسه، وهذا وفقاً لوولف -يقف وراء انتقاله من استانبول إلى القاهرة، حيث سيجد حرية لقلمه في القاهرة أكثر مما كان متاحاً له في استانبول. ومن ناحية أخرى نصح ولف حكومته بضرورة معالجة ظاهرة سليم فارس. فهو يرى أن إهمال هذه الظاهرة وأمثالها ربما سيؤدي إلى ارتماء سليم فارس وأمثاله في أحضان الروس والفرنسيين، الذين يمكن أن يستغلوا مثل تلك الأفكار التي ينادي بها سليم فارس، ويشكّلون تهديداً للمصالح البريطانية في الهند وأماكن أخرى(٤٤).

دفع الفشل الذريع الذي لحق بسياسة بريطانية الاستخبارية في مصر وبالتحديد مع سليم أحمد فارس الشدياق وجريدته "القاهرة" إلى البحث عن بدائل أخرى للتأثير على الرأي العام المصري، وذلك بتلميع صورة الاحتلال وإظهار البريطانيين كأنهم

مصلحين لا غازين، وأن وجودهم في مصر سيجلب على البلاد وأهلها الخير العميم. ويتّضح أن البريطانيين ما زالوا يصرّون على أن الصحافة هي الوسيلة الرئيسية لكسب تعاطف الرأي العام المصري. فبالرغم من اعترافهم بأن سليم فارس كان رهاناً خاسراً، فهو كما وصفه السير بارنج رجل مراوغ يأخذ أموال الإنكليز ويكتب ضدهم[٤٥]، إلا أن مخططي السياسة البريطانية، لم يفقدوا الأمل بعد في تجنيد بعض رؤساء الصحف الصادرة في مصر ودعم صحفهم مادياً ومعنوياً، مقابل تلميع تلك الصحف وترويجها لمنافع سياسة الاحتلال. ولإيجاد البديل لسليم فارس وجريدته، اهتدى رجال بريطانية في مصر وعلى رأسهم السير بارنج إلى مهاجر آخر يمكن أن يُستمال ليدعم وجهة النظر البريطانية ويروج لها في جريدته. وقد أعدّت وزارة الخارجية البريطانية آنذاك وجهاز المخابرات خطة بديلة للخطة السالفة الذكر التي اتبعت مع سليم فارس. وهدف تلك الخطة الجديدة محاولة كسب تعاطف الرأي العام المصري مع سياستهم. عرضت تلك الخطة على اللورد سالسبري "Salisbury"، وزير الخارجية وطُلب منه دعم الخطة مادياً ومعنوياً. وقد حظيت تلك الخطة بدعم وتأييد الوزير سالسبري التام[٤٦].

أعدّ تلك الخطة السير إفلن بارنج، وقد تضمّنت العديد من المقترحات والحلول التالية:

أولاً: كرّر بارنج الشكوى من عدم اهتمام الحكومة البريطانية بموضوع تحسين صورة بريطانية في الخارج، خاصة في مصر، ويعترف بارنج بأنه لا توجد صحيفة واحدة بالعربية في مصر، فمعظمها كما يدعي بارنج إما بأيدي الشوام المؤيدين للفرنسيين ووجهة نظرهم أو بأيدي آخرين مصريين معادين لبريطانية وسياستها. ويرى بارنج أن وجهة النظر البريطانية حول الكثير من القضايا الهامة والحساسة، خاصة ما يمّس العامة، لا تصل إلى رجل الشارع المصري ولا تقدّم له بصورة واضحة. فبالرغم من اجتماعات المسؤولين البريطانيين لهذا الغرض

والنقاش والحلول التي طُرحت، إلا أن تلك النقاشات والحلول كما ذكر بارنج لم يكتب لها النجاح(٤٧).

ثانياً: يتّضح من سير المكاتبات بين المسؤولين البريطانيين أن من بين الوسائل والحلول التي طُرحت للنقاش والتي تحدّث عنها بارنج، محاولة كسب ولاء جريدة "الأعلام" ومحرّرها محمد بيرم الخامس التونسي، والذي هاجر من تونس بعد الاحتلال الفرنسي لها، حيث استقرّ بالقاهرة وأصدر جريدته المعروفة "بالأعلام". وتكشف الوثائق بالذات رسالة بارنج السالفة الذكر أن جريدة "الأعلام" التي كانت تصدر من القاهرة منذ ١٨٨٥م ومحرّرها محمد بيرم الخامس، كانت الجريدة العربية الوحيدة في مصر التي تتلقى آنذاك دعماً بريطانياً نظير تأييدها لوجهة النظر البريطانية وتلميعها لصورة الاحتلال والترويج لمزاعم فوائده(٤٨).

ثالثاً: يظهر بوضوح من الوثائق البريطانية بأن محمد بيرم الخامس كان على علاقة طيبة مع البريطانيين في مصر، كما يستدّل من الوثائق بأن الرجل كان له صداقات في بريطانية. فقد زار لندن في صيف ١٨٨٧م، وهذا يبيّن أن محمد بيرم الخامس كان متعاوناً مع البريطانيين بمحض إرادته، فهو يعرف طبيعة علاقته معهم وتبعاتها والعمل المنتظر أن يقوم به لقاء دعمهم لجريدته. وعن مقدار ذلك الدعم الذي كان يحصل عليه محمد بيرم، يذكر بارنج بأنه كان مبلغاً زهيداً لا يتجاوز الـ ٢٥ جنيه سنوياً. ينفقه بأكمله كجزء من مصروفات إصدار الجريدة. أما عن شخصية محمد بيرم وتعامله مع المسؤولين البريطانيين فيقيمه بارنج بأنه رجل متديّن مهذّب في تصرفاته، مخلص لمصالح بريطانية أهل للثقة على النقيض من سليم فارس. ويذكر بارنج أن جريدة الأعلام بالرغم من محدودية توزيعها إلا أنها جريدة رصينة تقرأ بانتظام من قبل العلماء ورجال الدين. ويؤكّد بارنج على أهمية فئة العلماء في المجتمع المصري، ويوصي حكومته بضرورة التأثير على تلك الفئة. لهذا فهو يرى أن من المفيد المحافظة

على استمرارية قراءة تلك الفئة لجريدة الأعلام، ويأمل بـــارنج أن يتـــأثروا أي "العلماء" بما تكتبه الجريدة من مقالات مؤيدة لوجهة النظر البريطانيـــة. ولكــن بارنج يستدرك بأن الجريدة بالرغم من تلك المزايا إلا أنها تكتب باللغة العربيـــة الفصحى وبأسلوب رصين مما يجعل من الصعب على عامة القــرّاء فــهم مــا تطرح من أفكار[٤٩].

رابعاً: بالرغم من المزايا التي ذكرها بارنج في جريدة الأعلام وإخلاص محرّرها وما يمكن أن يتحقّق عن طريقها من تأثير في مصر خاصـــة علـــى فئـة المثقفيــن والعلماء، إلا أنه لا يكتفي بذلك، بل يريد أن يستميل أكبر عدد مــن المصرييــن ويؤثّر عليهم ليكون هناك جزء كبير من الرأي العام المصري يتفــهم السياســة البريطانية على أقل تقدير، أن لم يؤيدها. وهذا الهدف من وجهة نظر بــارنج لا يمكن أن يتحقّق بدعم جريدة محدودة التوزيع كالأعلام، لذا فهو يقدّم العديد مــن المقترحات التي يرى أنها ستكفل زيادة التأثير البريطاني علـــى الــرأي العــام المصري. ولكن هل يعني هذا أن بارنج يقترح التخلي عن جريدة "الأعلام"، كلاّ إنه يؤكّد على استمرارية المحافظة على ولاء تلك الجريدة ودعمها، خاصـــة أن المعونة المخصّصة لدعمها كانت متواضعة وغير مكلفة[٥٠].

خامساً: إن النقطة الرئيسية التي يركّز عليها بارنج هي التشديد على عدم دعم تأسـيس صحف عربية جديدة بل العمل من خلال الصحف القائمة آنــذاك، ويتّضــح أن بارنج قد صُدِمَ من خلال تعامله مع سليم فارس، وهذا ما يفسّر هجومه الشــديد على الصحف العربية آنذاك ووصف محرريها "بالأشرار" الانتهازيين.

وقد أكّد بارنج على ضرورة أخذ الحيطة في التعامل مع أولئك المحررين وعدم إفشاء أي أسرار لهم. فمن وجهة نظره، ربما كرّر هؤلاء أسلوب سليم فارس في أخذ أمــوال الإنكليز دون تقديم أي شيء يذكر لمساعدتهم. ولكن والحالة هذه، مــاذا كــان الحــل

الأمثل الذي يقترحه لتلميع صورة الاحتلال في مصر دون المرور من باب الصحافة العربية. إن بارنج بالرغم من براعته الإدارية وخبرته الطويلة في العمل الدبلوماسي، إلا أنه يتبنى أحياناً أفكاراً غير علمية. فهو يقترح كحل لهذه المعضلة العمل من خلال جريدة "ايجبشن غازيت" "Egyptian Gazette"، فهي كما يرى الجريدة الإنكليزية الوحيدة في مصر التي تحظى بانتشار معقول، حيث يقارب توزيعها اليومي عشرة آلاف نسخة، ويعترف بارنج بأن هذا ليس الحل الأمثل أو الأذكى، ولكنه كما يزعم الحل الأكثر أماناً من الحلول السالفة الذكر. وقد طلب بارنج من وزارة الخارجية المساعدة في مفاتحة السيد فيليب رئيس تحرير الجريدة الذي يعيش بالاسكندرية في ذلك الأمر. ولكن كيف يمكن لصحيفة تصدر باللغة الإنكليزية وموجهة أصلاً لفئة قليلة من سكان مصر هم الموظفون البريطانيون وأفراد الحامية البريطانية هناك، أن تؤثر في عامة الشعب المصري؟؟ إن بارنج يطرح حلاً غير ذكي وغير مضمون النجاح، حيث يقترح أن يُقنَع السيد فيليب بأن ينشر ملحقاً باللغة العربية في جريدة أيجبشن غازيت. وعن التكاليف المالية لإصدار الطباعة و ٢٥ جنيهاً كإعانة. ولتوفير المبالغ اللازمة لتلك النفقات، ارتأى بارنج بأن تدفع (١٠٠ جنيهاً) للسيد فيليب من المبلغ الذي أرسل له للإنفاق على حملة كتشنر، أما في ما يتعلّق بمبلغ الـ ٢٥ جنيهاً المخصصة كإعانة للسيد فيليب ، فيقترح بارنج بأن تحوّل الحكومة مبلغ الـ ٢٧ جنيهاً التي كانت مخصصة للإنفاق على البوليس السري بالقاهرة كإعانة للسيد فيليب. وشدّد بارنج على ضرورة تحمّل الخزانة المصرية لنفقات البوليس السري، كما أن بارنج قد كشف عن حقيقة جديدة تتمثّل في وجود بوليس سري للبريطانيين في مصر، كما كشف أيضاً عن عدم جدوى التقارير التي كان يعدّها ذلك البوليس. إن هذا الفشل جعل بارنج يقترح إيقاف صرف المبلغ المخصص للبوليس السري اعتباراً من ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٧م[٥١].

سادساً: إن خطة بارنج لن تتوقف عند إصدار ملحق عربي، في جريدة "إيجبشن جازيت"، بل إنه يطمح إن سارت الأمور بالشكل المرضي، بنقل الجريدة من الاسكندرية إلى القاهرة كما إنه سيعمل على دعم الجريدة لتتمكّن من توسيع توزيعها. وقد قدّر بارنج بأن هذا التوسع سيكلّف الحكومة ما بين ٦٠٠-١٠٠٠جنيه، إضافة إلى المعونة الشهرية للسيد فيليب المقدرة ما بين ٢٥-٥٠ جنيهاً. لذا طلب بارنج موافقة حكومته على الخطة، خاصة موافقة اللورد سالسبري وبالتحديد الموافقة على التكاليف المادية[٥٢]. إن خطة بارنج السالفة الذكر تركّز على الجانب المادي للعملية الاستخباراتية، فمن الملاحظ اهتمامه بالتكاليف المادية. ولكن مسألة التخطيط لضمان تلك الخطط كانت قاصرة. فمسألة مثل إصدار ملحق عربي في صحيفة إنكليزية تكاد تكون فكرة ساذجة عديمة الجدوى. فمن يضمن أن ذلك سيجعل المثقفين المصريين أو عامة القرّاء في أحسن الاحتمالات، سيلتقطون جريدة الاحتلال من أجل قراءة ملحق عربي منشور في ذيل تلك الجريدة. والأهم من ذلك من سيضمن أنهم أصلاً سيتأثرون بما يُطرَح في ذلك الملحق من أفكار، هذا ما لم تضعه خطة بارنج في الحسبان.

علاقة وكالة رويتر بالمخابرات البريطانية:

لم يقتصر النشاط البريطاني الاستخباراتي المتعلق بمصر والمسألة المصرية على محاولة التأثير في الرأي العام المصري، عن طريق شراء ولاء رؤساء التحرير في بعض الصحف العربية؛ بل إن المسؤولين البريطانيين ومن خلال ما تكشفه بعض الوثائق من معلومات، قد نجحوا أيضاً في استحداث وسائل جديدة وتجنيدها في مجال

العمل الاستخباراتي. ومن المثير حقاً نجاح وزارة الخارجية في استدراج وكالة رويتر (Reuter) الإخبارية المشهورة لتزويدها ببعض المعلومات السرية عن نشاط الدبلوماسيين في البلدان التي للوكالة مكاتب بها، وكذلك كتابة تقارير سرية عن القضايا المطروحة للنقاش في تلك البلدان والتي تمسّ المصالح البريطانية. وتظهر الوثائق مراسلي وكالة رويتر وكأنهم عملاء للمخابرات البريطانية أكثر من كونهم مراسلين إخباريين لوكالة الأنباء الشهيرة. وتدل الرسائل المتبادلة بين وزارة الخارجية والمستر دي رويتر (De Reuter) مدير الوكالة بلندن، إن هناك تعاوناً وثيقاً في مجال العمل الاستخباراتي بين الوكالة والمخابرات البريطانية، إلى درجة أن مسؤولي المخابرات في وزارة الخارجية قد كلّفوا الوكالة بالاتصال ببعض المسؤولين الفرنسيين واستدراجهم في محاولة للحصول منهم على معلومات تتعلق بوجهة نظر الحكومة الفرنسية تجاه بعض القضايا الخلافية بين بريطانية وفرنسة، وخاصة ما يتعلق منها بالمسألة المصرية. وقد اطّلع وزير الخارجية البريطاني اللورد سالسبري على تلك الاتصالات وطلب من المسؤول المختص شكر وكالة رويتر على تزويدها للوزارة بفحوى الاتصالات والمقابلات التي تمّت، بين مراسلي الوكالة في باريس والمسيو رِغنو (Regnault) أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية[٥٣].

كان المضمون الرئيسي لتلك المراسلات يتعلق بالحلول المطروحة والمتداولة وبصفة غير رسمية في أوساط الدبلوماسيين الأوروبيين، وبالذات الفرنسيين والروس، حول المسألة المصرية وموقف الحكومة البريطانية من ذلك. وقد نقلت وكالة رويتر أن محادثات ومداولات قد تمّت في سينت بطرسبرغ، مفادها اعتقاد بعض الدبلوماسيين بأن بريطانية ربما تبدي استعداداً بالتفاوض والمساومة مع روسية وفرنسة بخصوص المسألة المصرية. ونقلت الوكالة عن تلك الأوساط اعتقادها بأن بريطانية ربما تستمر في احتلالها لمصر مع الاعتراف بجعل منطقة القناة منطقة حرة ومحايدة، والسماح ببناء مرافئ عند طرفي القناة. وقد كتب مدير وكالة رويتر إلى وزير الخارجية يعلمه

بأنه قد كلّف مراسل الوكالة في باريس بمحاولة مقابلة بعض كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية، واستجلاء رأي الحكومة الفرنسية حول تلك المسألة. وبالفعل طُرِحَ هذا التساؤل من قبل مراسل الوكالة في باريس على المسيو رِغنُو، الذي تصفه المراسلات بأنه كان يشغل منصباً رفيعاً في وزارة الخارجية الفرنسية. ويفهم من المراسلات أن وكالة رويتر كانت على صلة وثيقة بهذا الرجل وغيره من صانعي القرار في وزارة الخارجية الفرنسية. وقد كتب مدير وكالة رويتر رسالة مطوّلة إلى وزارة الخارجية اشتملت على أهم ما دار في تلك المقابلة، وتضمّنت تلك الرسالة ما يلي:

أولاً: تكرار فرنسة لموقفها فيما يتعلق برؤيتها للحل النهائي للمسألة المصرية والذي يشدّد على ضرورة جلاء بريطانية التام لقواتها من مصر. أما عن الأفكار التي تردّدت في مداولات سينت بطرسبرغ، فإن فرنسة ترّحب بمثل تلك الأفكار كخطوة أولى على طريق إنهاء الاحتلال البريطاني للبلاد.

ثانياً: عرض المسيو رِغنُو الأفكار التي طرحها مراسل وكالة رويتر في باريس على وزير الخارجية الفرنسي المسيو هانوتُو (Hanotaux) الذي أوضح لمراسل الوكالة في زيارة ثانية بأن الرأي العام الفرنسي لا يمكن أن يتقبل أي حل بالنسبة للمسألة المصرية أقل من الانسحاب التام للقوات البريطانية من البلاد. أما فيما يتعلق بمسألة احتلال القناة من قبل قوات دولية، فالوزير الفرنسي يرى أن هذا ليس حلاً عملياً، بل يعتقد أن هذا ربما سيزيد الأمور تعقيداً وسيعمّق من حدّة الخلافات والتنافس بين القوى الأوروبية.

ثالثاً: ما يختصّ بمسألة انضمام ألمانية وإيطالية إلى فرنسة ودعم وجهة نظرها فيما يتعلق بالمسألة المصرية، فإن المسيو رغنُو لا يعتقد ذلك، لأن الألمان ربما كان لديهم الاستعداد لدعم وجهة النظر الفرنسية بخصوص وضع بريطانية في مصر ولكن

بالتأكيد. سيطالبون بتنازلات من الصعب على الفرنسيين الموافقة عليها. أما عن الإيطاليين، فيعتقد المسؤول الفرنسي بأنه بالرغم من صداقتهم لفرنسة إلاّ أنهم لن يقدموا على أي عمل قد يضرّ بمصالحهم مع بريطانية[٥٤]. وقد شكر السير توماس ساندرسون مدير وكالة رويتر على تعاون الوكالة مع وزارة الخارجية ونقل وجهات النظر الفرنسية التي تبودلت بين المسيو رِغنُو ومراسل الوكالة في باريس[٥٥].

قامت وكالة رويتر كذلك بنقل المزيد من المعلومات المتعلقة بوجهة النظر الفرنسية الرسمية حول بعض القضايا الخلافية بين بريطانية وفرنسة بخصوص مصر. فقد كتب مدير الوكالة رسالة أخرى إلى وزارة الخارجية تضمنت ما دار في المناقشة التي تمّت بين مراسل الوكالة في باريس والمسيو رِغنُو حول مصر وبعض المسائل الأخرى. وقد كشفت تلك الرسالة الخلافات القائمة بين بريطانية وفرنسة حول سندات الاعتماد المصري. فبينما فرنسة ممثلة في المسيو هونتيكس تفضل تأخير مناقشة تلك المسألة حتى لا تتحرج الحكومة المصرية من إمكانية المحاكمات، ترى بريطانية خاصة اللورد كرومر الاستعجال في تشكيل لجنة المحاكمات. والنتيجة المحتملة كما يتوقّعها الفرنسيون، هي انسحاب الحكومة المصرية من الاشتراك رسمياً في تلك المحاكمات[٥٦].

وقد اطلع اللورد سالسبري على تلك الرسالة وعلق عليها نافياً المزاعم الفرنسية بأنه بمواقفه سيزيد الأمور تعقيداً، وأضاف بأن المسيو رِغنُو يحمل فكرة خاطئة فيما يتعلق بتصرف اللورد سالسبري ومعالجته لتلك المسائل[٥٧].

الخاتمة:

اهتمت هذه الدراسة بتتبع مظاهر النشاط الاستخباراتي البريطاني في مصر في عهد اللورد كرومر "Lord Cromer"، ١٨٨٣-١٨٩٦م. وذلك من خلال دراسة ملفات المخابرات البريطانية التي أُفرج عنها في صيف ١٩٩٣م. وقد كشفت هذه الدراسة

عن حقائق جديدة في هذا المجال، حيث ظهر جلياً أن بريطانية كقوة عظمى آنذاك، لا تنفذ سياساتها تجاه بلد ما أو شعب بعينه كمصر مثلاً بالأساليب والوسائل التقليدية العلنية فقط، بل كانت تركن إلى اتباع وسائل خفية سرية، من أهمها العمل الاستخباراتي الذي وكما هو واضح من هذه الورقة ، يعوّل عليه الساسة البريطانيون كثيراً ويعدّونه مكملاً ومسانداً للوسائل التقليدية الظاهرة -عسكرية أو سياسية- والتي بواسطتها نفّذ البريطانيون خططهم وسياساتهم الاستعمارية.

وتكشف الدراسة أن اهتمام البريطانيين وعلى أعلى المستويات بمراقبة الوطنيين في مصر والسودان (العُرابيين والمهديين) وجمع المعلومات عن نشاط زعمائهم في الخارج، إنما يعكس قلق صانعي القرار البريطاني وخوفهم من انبعاث هاتين الحركتين من جديد وبالتالي تأثيرها على نفوذ البريطانيين هناك.

ويلاحظ أن التخطيط الاستخباراتي البريطاني كان ساذجاً وسطحياً، يدّل على ذلك اهتمام بعض المسؤولين البريطانيين بالمعلومات التي وردت في تقرير حبيب السالموني خاصة، ما يتعلق منها بمصير القائد البريطاني غوردون "Gorden" ورغبة السالموني المزعومة بمبادلته بالزعيم الوطني المصري أحمد عرابي.

يستدّل من الوثائق البريطانية أيضاً أن هناك خططاً وبرامج طموحة لجهاز المخابرات البريطاني والوزارات الأخرى ذات العلاقة بالرغبة في التغلغل في المجتمع المدني العربي، بالذات في المجتمع المصري، بهدف فهم العقلية العربية والتعرف عن كثب على خبايا وأسرار المجتمع. وقد ظهر هذا التوجّه بوضوح من خلال اهتمام كبار المسؤولين بل وإلحاحهم على ضرورة تعلم اللغة العربية وتدريسها للدبلوماسيين والعسكريين والعملاء العاملين في مصر وغيرها من البلاد العربية. هذا الاهتمام البريطاني باللغة العربية والرغبة في تعلمها ليس نابعاً من نوايا صادقة لمحاولة فهم المجتمع العربي وربط جسور للتحاور والتعاون معه. أي أن الهدف من ذلك ليس هدفاً

علمياً مجرداً بل كان محاولة لتوظيف تلك المعرفة لخدمة أغراض سياسية بحتة. ولكن بالرغم من ذلك الاهتمام، فالوثائق توضح أن الحكومة البريطانية كانت مقترة مادياً فيما يختص بالإنفاق على مثل تلك الخطط والبرامج.

وتدل الدراسة دلالة أكيدة صلة بعضاً من كبار الصحافيين العرب آنذاك بالمخابرات البريطانية، التي نجحت في تجنيدهم للعمل لمصلحتها، مقابل الدعم الحكومي البريطاني لصحفهم مادياً ومعنوياً.

وتنقض الوثائق البريطانية التي استخدمت في هذه الدراسة الاعتقاد السائد عند بعض مؤرخي الصحافة العربية بأن صحيفة "الجوائب" العثمانية الشهيرة قد انتقلت من استانبول إلى القاهرة بإيعاز ودعم من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ولكي تساهم في إثارة المصريين ضد الاحتلال البريطاني(٥٨). ولكن الوثائق البريطانية، وكما هو واضح تبيّن أن فكرة انتقال صحيفة الجوائب إلى القاهرة هي فكرة بريطانية وبتدبير من رجال المخابرات البريطانيين الذين نجحوا في استدراج رئيس تحرير "الجوائب" سليم فارس وزينوا له مزايا انتقال جريدته إلى القاهرة. وتكشف الدراسة أيضاً، أن هذا الصحافي المراوغ يعرف تماماً نوايا البريطانيين، لذا فبالرغم من تلقيه الدعم المادي والمعنوي البريطاني، إلا أنه لم يكن مخلصاً لهم. هذه دلالة على فشل ذلك النشاط الاستخباراتي البريطاني في تحقيق أهداف وطموحات الحكومة البريطانية.

يتّضح من الدراسة مدى التنافس والتناقض بين الوزارات والأجهزة الحكومية البريطانية، حيث يظهر جلياً محاولة كل من وزارتي الهند والخارجية وجهاز الاستخبارات، الاستئثار برسم السياسة البريطانية تجاه الشرق بصفة عامة؛ ومصر والمنطقة العربية بصفة خاصة.

كما يتبيّن من هذه الدراسة اهتمام وزارة الهند بالعمل الاستخباراتي خاصة ما يتعلق بمصر والمنطقة العربية، هذا ما يفسّر تحمل الوزارة لجزء كبير من نفقات تلك العمليات الاستخباراتية.

ويظهر بكل وضوح عدم جدوى التخطيط الاستخباراتي البريطاني، وذلك لعدة عوامل، كان من أبرزها تبني المسؤولين والمخططين له لخطط غير ملائمة في الغالب، مثال ذلك تركيز البريطانيين على محاولة كسب الرأي العام المصري من خلال شراء ولاء بعض الصحافيين، للترويج في صحفهم لمزايا الوجود البريطاني المزعومة. وهذا الحل أثبت عدم جدواه، وذلك لأن غالبية سكان مصر كانوا أميين هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالطبقة المتعلمة والمثقفة في مصر تنظر وتتعامل مع الوجود البريطاني في البلاد على أنه احتلال، فهي لا تعترف بأن للاحتلال أي مزايا لذا فهي في الغالب لن تتأثر بدعاية تُثار هنا أو هناك.

إضافة إلى ذلك، يتّضح عدم براعة المخططين وعجزهم عن إيجاد حلول عملية منطقية للتأثير على الرأي العام المصري. مثال ذلك اقتراحات اللورد كرومر بإصدار ملحق عربي في ذيل صحيفة الاحتلال. ولكن بالرغم من ذلك يُسَجّل للاستخبارات البريطانية نجاحها في توظيف إمكانات وكالة رويتر الإخبارية لمصلحة العمل الاستخباراتي. ويبدو أن المصلحة كانت مشتركة بين الجانبين، فوزارة الخارجية وجهاز المخابرات تحتاج إلى معلومات سريعة عن بعض القضايا وبتكلفة معقولة ووكالة رويتر تريد بالتأكيد أن تسوّق بضاعتها.

وأخيراً تكشف هذه الدراسة بوضوح عن تقتير الحكومة البريطانية بالإنفاق على العمليات الاستخباراتية، حيث لم تتجاوز مخصصات المخابرات المالية مثلاً في عام ١٨٨٧م، مبلغ ١٤٣٣جنيهاً[٥٩]. ويظهر بوضوح أن العملاء أو المتعاونين مع المخابرات البريطانية كانوا يتقاضون مبالغ زهيدة غير مغرية، مما دفع البعض منهم وكما يذكر اللورد كرومر إلى التذمر والاحتجاج.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق غير المنشورة:

يعتمد هذا البحث اعتماداً أساسياً على وثائق المخابرات البريطانية التي أفرجت عنها الحكومة البريطانية لأول مرة في صيف ١٩٩٣م، والمحفوظة بدار المحفوظات البريطانية العامة بضاحية كيوغاردن القريبة من لندن "Public Record office (PRO) at Kew Garden"

وهذه الوثائق تحتوي على الملفات التالية:

- Great Britian, Public Record Office: HID3/62.
- Great Britian, Public Record Office: HD3/63.
- Great Britian, Public Record Office: HD3/66.
- Great Britian, Public Record Office: HD3/72.
- Great Britian, Public Record Office: HD3/73.
- Great Britian, Public Record Office: HD3/103.

ثانياً المراجع الأجنبية:

- Blunt, Wilfrid Scawen, **Secret History of the English Occupation of Egypt,** New York: Howard Fertig, 1967.
- Doughty, Charles, M. **Travels in Arabia Deserta**, 2 Vol., New York: Dover, 1979.
- Marlow, John, **Cromer in Egypt** London: Elek Books Limited, 1970.Richmond, J. C. B., **Egypt, 1798-1952: Her advance Towards a modern Identity**, London: Methuen and Co. Ltd., 1977.
- Al-Sayyid, Afaf Lutfi, **Egypt and Cromer: A study in Anglo-Egyptian .relation**, London: John Murray, 1968.i

ثالثاً: المراجع العربية:

- دي طرازي، فيليب، **تاريخ الصحافة العربية**، ٤ أجزاء، بيروت: المطبعة الأدبية، ١٩١٣م.
- الرافعي، عبد الرحمن، **الثورة العرابية والاحتلال الإنكليزي**، ط٣، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م.
- الزركلي، خير الدين، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج٧، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٩م.
- عزيز، سامي، **الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنكليزي**، القاهرة: دار الكتاب العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٨م.

رابعاً: الصحف العربية:

- الشدياق، سليم فارس، **(القاهرة)**، عدد (١٨، ٣١، ٦١، ٧١)، ١٨٨٥، ١٨٨٦م.

الحواشي

(١) للمزيد من التفاصيل عن الاحتلال البريطاني لمصر وسياسة بريطانية في عهد اللورد كرومر، يمكن الرجوع إلى:

- Afaf Lutfi Al-Sayyid **Egypt and Cromer: A Study in Anglo-Egyptian relation. London**: John Murray, 1968 and وكذلك
- J.C.B. Richmond, **Egypt.** ***1798-1952:*** **Her Advance Towards a Modern Identity,** London: Methuen and Co. Ltd., 1977, Chapter 6.

see also: انظر أيضاً:

- John Marlowe, **Cromer In Egypt**. London: Elek Books Limited, 1970.

(٢)تفاصيل هزيمة العرابيين في معركة التل والتي نتج عنها أسر أحمد عرابي ودخول القوات البريطانية القاهرة، يمكن الرجوع إليها في كتاب عبد الرحمن الرافعي، **الثورة العرابية والاحتلال الإنكليزي**، الطبعة الثالثة، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م، ص ص ٤٧٨-٥٠٢. وكذلك

Wilfrid Scawen Blunt, **Secret History of the English occupation of Egypt,** New York: Howard Fertig Inc. 1967, PP. 419-425.

(٣)رسالة حبيب السالموني إلى الكونتيسة غرانفيل "Countess of Granville" ٢٠ أكتوبر ١٨٨٣م، انظر Great Britain, public Record Office (P.R.O.) HD 3/63 حبيب السالموني: هو حبيب بن أنطون بن حبيب بن لطف الله السالموني، ينتمي إلى أسرة كانت تعيش في جزيرة كريت. نزحت أسرة السالموني من كريت إلى لبنان في أواخر القرن السابع عشر الميلادي وتولى جده لأمه (إلياس نحاس بك) بعض المهام في إدارة ابراهيم باشا أثناء احتلال قوات محمد علي لبلاد الشام. ولد حبيب ببيروت سنة ١٨٦٠م، ثم غادرها إلى لندن ١٨٧٨م، وكان له صلات مع بعض وجهاء الإنكليز حيث يقال أنه تعرف على اللورد "روزبري" وأسس حبيب في لندن في ١ مارس (آذار) ١٨٩٢ صحيفة سماها "ضياء

الخافقين" كان هدفها التقرب بين الشرقيين والغربيين. وكان يكتب بها بعض الكتاب والصحافيين العرب اللامعين كإبراهيم المويلحي وغيره. انظر:

فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية** ، الجزء الرابع، بيروت: المطبعة الأدبية، ١٩١٣م، ص ٣٨٢.

(٤) محضر كتبه ت. هـ. ساندرسون "T. H. Sanderson" يتعلق برحلة قام بها حبيب السالموني إلى باريس بتاريخ فبراير ١٨٨٥م، انظر (P.R.O.) HD 3/63:

- "I understand from Currie that their man is to have £20 to enable him to go to Paris and make further enquiries to the proceedings of the sympathiers with Orabi and the Mehdi. Currie says I Had better obtained the £20 from you in notes for him to give when he sees the man on Wednesday"

(٥) محضر كتبه ت. هـ. ساندرسون "T. H. Sanderson" بتاريخ ١٧ فبراير (شباط)، ١٨٨٥م. انظر (P.R.O.) HD 3/63:

- Lord Granville Minute Says: "Twenty Pounds to be given to Mr. Salmoni for his expenses in connection with his journey to Paris".

(٦) إقرار من حبيب السالموني باستلامه مبلغ ٢٠ جنيها كتكاليف رحلة قام بها إلى باريس، ١٧ فبراير (شباط)، ١٨٨٥م، انظر (P.R.O.) HD 3/63:

- H. Salmoni acknowledged that: "Twenty Pounds received as payment in full of all expenses connected with a Journey to Paris".

(٧) تقرير من حبيب السالموني عن نتائج رحلته إلى باريس، ٤ مارس (آذار)، ١٨٨٥م، انظر: (P.R.O.) HD 3/63.

(٨) اللورد دفرن "Lord Dufferin" أحد دهاقنة السياسة البريطانية كان يشغل آنذاك سفير بريطانية بالقسطنطينية، لعب دورا أساسيا في رسم السياسة البريطانية تجاه مصر قبيل الاحتلال البريطاني وبعده. كتب تقريرا مهما إلى حكومته قبيل

الاحتلال وصف فيه أوضاع مصر وصفاً دقيقاً. وقد سعى لدى السلطان العثماني إبان الثورة العرابية ليقنعه بإعلان عصيان أحمد عرابي. انتدبته حكومته في عام ١٨٨٢م، في مهمّة إلى مصر بتقصّي الحقائق ومحاولة التعرف عن كثب على احتياجات البلاد وبالتالي على النظام السياسي والإداري الأنسب، والذي يمكن تطبيقه هناك. أعدّ دفرن تقريره المشهور والمعروف باسمه في أبريل (نيسان) ١٨٨٣م، والذي تضمن العديد من الإصلاحات الجذرية في مصر والتي جميعها تصبّ في مصلحة بريطانية **وقد اقترح دفرن العديد من الاقتراحات والإصلاحات في مجال الحكم**، حيث أبقى على سلطة الخديوي العليا واقترح إنشاء مجلسين (مجلس شوري للقوانين والجمعية العامة) وكلها ذات صلاحيات محدودة، كما دعا دفرن إلى تسريح الجيش القديم وبناء جيش جديد أوكلت القيادة فيه للإنكليز كما أسندت قيادته إلى الضابط البريطاني السير إفلن. وورد كما اقترح تقليص الجيش المصري إلى ٦ آلاف جندي وتغيير نظام المحاكم والضرائب، ودعا إلى ضرورة وجود مستشارين إنكليز في معظم الوزارات والإدارات الحكومية المصرية..الخ انظر كتاب:

- John Marlow, **Cromer in Egypt**, London: Elek Books, 1970. Pp.: 69-75 and J.C.B. Richmond, **Egypt, 1798-1952: Her advance towards a modern Identity**, London: Methuen and Co. Ltd. 1977, pp. 137-140.

(٩) رسالة اللورد دفرن "Lord Dufferin" إلى وزارة الخارجية ١٤ يوليو (تموز) ، ١٨٨٥م، انظر : (P.R.O.) HD 3/63

(١٠) رسالة السير إفلن وود :"Evelyn Wood" إلى وزارة الخارجية ١٤ أكتوبر (تشرين الأول)، ١٨٨٣م، انظر: (P.R.O.) HD 3/63.

(١١) رسالة حبيب السالموني إلى الكونتيسة غرانفيل، ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول)، ١٨٨٣م، انظر: (P.R.O.) HD 3/63.

(١٢) محضر بخط الكونتيسة غرانفيل رداً على رسالة السالموني، ٢٤ أكتوبر (تشرين الأول)، ١٨٨٣م، انظر: (P.R.O.) HD 3/63.

(١٣) لقد ذكر داوتي في كتابه الصحراء العربية أن جريدة الجوائب مقروءة في معظم البلدان الناطقة بالعربية وقد وجد داوتي أنها مقروءة ومنتشرة بين بعض الأسر الغنية مثل أسرة البسام والخنيني في عنيزة بمنطقة القصيم.

- Charles M. Doughty, **Travels in Arabia Deserta**, Vol. 2, New York: Dover, 1979, PP. 398-399.

(١٤) جريدة الجوائب جريدة عثمانية اشتهرت في معظم ولايات الدولة العثمانية. وقد أسّسها الكاتب والأديب الصحافي أحمد فارس الشدياق سنة ١٨٦٠م، في العاصمة العثمانية القسطنطينية. وُلِدَ أحمد فارس الشدياق في عشقوت بلبنان سنة ١٨٠٤م، من أبوين مسيحيين. وينحدر الشدياق من أسرة معروفة في لبنان حيث كان جده المقدم خاطر الحصروني يتولى جبل كسروان ٣٧ عاماً، في أوائل القرن السابع عشر الميلادي. نشأ أحمد الشدياق في بيروت وتعلم بها ثم رحل إلى مصر ودرس الآداب هناك ثم تركها إلى مالطة حيث عمل مديراً للمطبعة الأمريكية في الجزيرة. تنقّل في أوروبة حيث زار العديد من البلدان الأوروبية، بالذات إنكلترة التي مكث فيها بعض الوقت وكوّن صداقات هناك. ثم قدم إلى تونس بدعوة من باي تونس، حيث اعتنق الإسلام وترك مذهب البروتستانت الذي كان قد اتبعه عندما كان بمالطة. انتقل إلى القسطنطينية سنة ١٨٥٧م، وأنشأ بها جريدة الجوائب كما ورد ذكره وظل يحررها من القسطنطينية حتى نقلها ابنه أحمد الشدياق إلى القاهرة سنة ١٨٨٥م، وأنشأ على أنقاضها جريدة القاهرة، توفي أحمد فارس الشدياق بالقسطنطينية في ٢٠ سبتمبر ١٨٨٧م. انظر: فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج١، بيروت: المطبعة الأدبية، ١٩١٣م. ص ٩٦-٩٩.

(١٥) كان والد سليم فارس الكاتب المعروف أحمد فارس الشدياق على صلات بالإنكليز. وقد سافر إلى إنكلترة وبقي فترة هناك وتذكر الوثائق البريطانية، كما سيرد ذكره لاحقاً أنه قد حصل فعلاً على الجنسية البريطانية. اتضحت صلات أحمد فارس الوثيقة بالمسؤولين البريطانيين خاصة سفارة بريطانية بالقسطنطينية في عام ١٨٨٢م. ففي خضم أحداث الثورة العرابية قبض أحمد فارس الشدياق مبلغ ألف ليرة من السفارة البريطانية بالقسطنطينية نظير موافقته على نشر منشور السلطان العثماني المتضمن عصيان أحمد عرابي في جريدة الجوائب التي كان يتولى رئاسة تحريرها. انظر: فيليب دي طرازي، مرجع سبق ذكره، ج١، ص ٦٢.

(١٦) رسالة بيكر ستيل "Bikerstells" إلى السير ساندرسون، ٢٩ أبريل (نيسان)، ١٨٨٥م، انظر: HD 3/63 (P.R.O.).

- Lord Kimberley suggested the following arrangements in respect of Selim Faris and his newspaper:

1 - £200 to be sent to Selim Faris at once to help him establish his paper at Cairo. No conditions to be made so that if he fails we may count this small sum as gone.
2 - A subscription of £100 a year to his paper to be paid from the date that it is established at Cairo.
3 - The Indian Office will consent to pay off the above sums £100 now, and Half the subscription (i.e. £50) in future.
4 - If the Foreign Office will agree to this, and will send £100 to Sir Owen Burne, the Indian Office will at once send the £200 to Selim Faris through Sir George Birdwood. Lord Kimberley is of opinion that we should by these arrangements make a cheap and advantageous bargain, and he has no doubt that Sir Evelyn Baring will give the paper all the additional and countenance in his power."

(١٧) رسالة السير ساندرسون إلى السير جوليان، ٢٩ أبريل (نيسان)، ١٨٨٥م،

انظر: .(P.R.O.) HD 3/63

Sir Sanderson wrote to Sir Julian about Lord Kimberley arrangements that "Lord Granville desires me send you the enclosed. He is ready to sanction the arrangement".

(١٨) رسالة السير ساندرسون إلى السير جوليان، ٢ مايو (أيـار)، ١٨٨٥م، انظـر: .(P.R.O.) HD 3/66

Sir Owen Burne asked Sanderson "not to communicate with Baring till Sir G. Birdwood received a reply from Selim which shall contain definite information as to his future operations".

(١٩) انظر الوثيقة السابقة: .(P.R.O.) HD 3/66

Sanderson minutes say "I mention the matter to Sir E. Baring and he told me he knew all about it"

(٢٠) رسالة سليم فارس إلى جورج بيردوود، ٢٩ يونيو (حزيران)، ١٨٨٥م، انظـر: .(P.R.O.) HD 3/66

- Selim Faris wrote to Sir George Birdwood saying: "Dear Sir George, It was useless to write before for I had nothing to say but obstacles. (ei) to my agent to get the authorisation of the Arabic paper, but thank to the energy of Sir E. Baring I have got the authorisation this Morning, My confidential editor will leave in 5 weeks. I am dispatching what remains and I am selling my house and other property.."

(٢١) مذكرة من السير بيردوود إلى السير أوين بيرن، ٨ يوليـو (تمـوز)، ١٨٨٥م.
انظر: .(P.R.O.) HD 3/66

(٢٢) رسالة من السير أوين بيرن إلى السير جوليان، ١٧ أغسطس (آب)، ١٨٨٥م.
انظر: .(P:R.O.) HD 3/66

Sir Owen Burne wrote to Sir Julian that "Sir G. Birdwood has received a letter from Selim Faris.. He asks for a letter of Introduction to Sir Baring

asking him to extend his good offices to him. I think a letter to Sir Henry Drummond Wolff would be useful.."

(٢٣) رسالة ساندرسون إلى السير أيون بيرن، ١٨ أغسطس (آب)، ١٨٨٥م، انظر: (P.R.O.) HD 3/66.

(٢٤) رسالة السير بيردوود إلى السير أوين بيرن، ١ ديسمبر (كانون الأول)، ١٨٨٥م، وكذلك رسالة إيغرتون إلى السير جوليان، ٣٠ ديسمبر (كانون الأول)، ١٨٨٥م. انظر (P.R.O.) HD 3/66. وكذلك فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج٣، بيروت: المطبعة الأدبية ١٩١٤م، ص ٢٦.

(٢٥) رسالة السير جورج بيردوود إلى السير أوين بيرن، ١ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٥٥م. انظر: (P.R.O.) HD 3/66.

Sir Birdwood wrote to Sir Owen Burne about Selim Faris and His paper Saying ".. I think however, that I (Birdwood) should tell him (Selim Faris) that we are not bound to subscribe for a second year unless we find the paper really working good on the expert of the Consul General. I don't mean to suggest that we should abruptly leave off subscribing at the end of the year, but I think we should know we are getting worth for our money. And moreoever, it is desirable that Selim Faris should feel his dependence on the Consul General's good will and favours.. But Cairo is a more fanatical place than Constantinople, and even a loyal and cultivated man like Selim might be misled under the spell of Sheiks and Al-Azhar. And it is just as well therefore that I should tell him that at the end of the year dating from his first number, the Consul General will be asked to report on the status, influence and policy of his paper".

(٢٦) رسالة ساندرسون إلى جوليان، ٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٥م، انظر: (P.R.O.) HD 3/66.

(٢٧) محضر بخط السير جوليـــان، ٨ ديســمبر (كـــانون الأول)، ١٨٨٥م. انظـــر (P.R.O.) HD 3/66.

(٢٨) تعليمات السير جوليان إلى إيفرتون ١١ كـــانون الأول، ١٨٨٥م، انظـــر HD 3/66.

Sir Julian instructed Egerton on Cairo ".. And Indian Office are anxious that you, (Egerton) or whoever may be in charge for the time being at Cairo should keep an eye on the Journal and endeavour to ascertain and report from time to time the tone, status and influence of the paper".

(٢٩) رسالة أيغرتون للسير جوليان، ٢٣ ديسمبر (كـــانون الأول)، ١٨٨٥م، انظـــر: (P.R.O.) HD 3/66.

Egerton wrote to Sir Julian saying "I will act on your letter and look after the El-Jewaib and its Editor".

(٣٠) تقرير أيغرتون إلى السير جوليان، ٣٠ ديسمبر (كانون الأول)، ١٨٨٥م، انظر: (P.R.O.) HD 3/66.

Egerton report says "...He talks of the high salaries of the officials as a mistake; of the improvement of the army as being required..".

(٣١) سليم فارس الشدياق "الخلاف بين المرخصين"، القاهرة، عـــدد ١٨، ٥ ينـــاير، ١٨٨٦م.

(٣٢) سليم فارس "الشروط الأساسية لتسوية المسألة المصرية" القاهرة، عـــدد ٣١، ٢٥ يناير (كانون الثاني)، ١٨٨٦م.

(٣٣) سليم فارس "تقرير المرخص العثماني" المرجع السابق، عدد ٦١، ٢٤ فـــبراير (شباط)، ١٨٨٦م.

(٣٤) سليم فارس "مصر المصريين ومصر الأوروبيين" المرجع السابق، عـــدد ٧١، مارس (آذار) ١٨٨٦م.

(٣٥) تقرير السير إفلن بارنج عن سليم فارس وجريدته، ٣ أبريل (نيسـان)، ١٨٨٧م. انظر: (P.R.O.) HD 3/72.

Baring report contains "..It was through my (Baring) influence that he (Selim Faris) originally got authority to publish a newspaper.. And legally speaking his newspaper which was not in his name, but in that of his agent ought to be stopped. He was saved by my intervention. The result of all this is that Number naturally looks to me as being responsible for Faris conduct. So far as we are concerned his newspaper has been a complete failure. He doesn't support us... Faris by his writings stirred up uneasy felling among the ulema here. ... The practical question is supposing Faris is to be regarded as a British subject which is doubtful what and am I do in case this sort ... on the other hand where we find an English subject editing a newspaper hostile to British interest ... are we to protect him and prevent the Egyptian Government from dealing with him. etc...:"

(٣٦) نفس المصدر السابق، انظر: (P.R.O.) HD 3/72.

(٣٧) تقرير السير إفلن بارنج إلى ساندرسون، ٢١ مايو (أيـــار)، ١٨٨٧م. انظـــر: (P.R.O.) HD 3/72.

Baring report says "... Selim Faris is going to England. He Will try to get support for publishing an "Independent" Journal, i. .g. On which will support Turkish views and abuse the present Egyptian and English Government ... He knew Foucher a little at Constantinople. I believe and will probably try to gain his support ... he is a rascal who doesn't deserve the least sympathy or support. when shall I get an answer to my dispatch .. I wish we could find sufficient ground for not treating him as a British subject.."

(٣٨) رسالة السير جورج بيردوود إلى السير أوين، ٢١ مايو (أيار)، ١٨٨٧م. انظر:
(P.R.O.) HD 3/72.

Sir Birdwood wrote to Sir Owen Burne "one can have no doubt of Selim Faris being an English subject. His father was before him ... I hope he may be protected from evil at all ... whatever his faults may be ..."

(٣٩) نفس المرجع السابق وأيضاً رسالة السير أوين بيرن إلى ساندرسون بتاريخ ٢٧ مايو ١٨٨٧م. انظر: (P.R.O.) HD 3/72.

(٤٠) رسالة السير أوين بيرن إلى السير ساندرسون، ٢٧ مايو(أيار)، ١٨٨٧م. انظر:
(P.R.O.) HD 3/72.

Sir Owen Burne wrote ".. Can he (Selim Faris) not in some way to be managed? But I advise a trial to the end of 1 887 at which time we can if necessary, throw him over by instructing Birdwood to send him no more money

(٤١) نفس المصدر السابق، انظر: (P.R.O.) HD 3/72.

(٤٢) رسالة السير بارنج إلى فيليرز "Villiers" انظر: (P.R.O.) HD 3/72.

Baring wrote to Villiers, his letter says: "Selim Faris knows well (enough he is paid by the Government and not by Sir G. Birdwood. He told me that the amount- (I think £100 a year) was too small to be taken into account and he (Selim Faris) to understand that he couldn't afford to be a friend at that rate. He doesn't want to be convinced, he wants to be bought... Sir Birdwood says that Fairs thinks the ulema are everything in Egypt. Perhaps so but it is not worth our while to pay for propagating their opinions".

(٤٣) رسالة السير إفلن بارنج إلى السير جوليان، ٣ يونيو (حزيران)، ١٨٨٧م. انظر:
(P.R.O.) HD 3/72.

Sir Baring wrote to Sir Julian: "... about Selim Faris's subsidy - my advice is to stop it and let the Egypt Government deal with his paper. The man is rascal. He is in with the most fanatical Mohamedans here. We

ought not to support such a paper as his. Especially as he will take our money and then write against us."

(٤٤) رسالة السير دارمند ولف إلى وزارة الخارجية، ٦ أغســـطس (آب)، ١٨٨٧م.
انظر: (P.R.O.) HD 3/72.

(٤٥) رسالة السير بارنج إلى السير جوليان، ٣ يونيو (حزيران)، ١٨٨٧م ، انظـــر:
(P.R.O.) HD 3/72.

(٤٦) محضر كتبه السير جوليان إلى اللورد ساسبري، ١٥ نوفمبر (تشرين الثـــاني)،
١٨٨٧م. انظر: (P.R.O.) HD 3/73.

Sir Julian wrote a minute to Lord Salisbury: "This seems to be an excellent proposal. May I say that you authorise the outly and that if the scheme turns out well, you will be prepared to give it all reasonable financial support" -- Lord Salisbury comented on this" I fully agree."

(٤٧) رسالة السير بارنج إلى السير جوليان، ٦ نوفمبر (تشرين الثـــاني)، ١٨٨٧م ،
انظر: (P.R.O.) HD 3/73.

Sir E. Baring says: "The convenience of our not having a newspaper - especially an Arabic newspaper at our disposal here has often been recognized. The entire press is mostly in the hands of the French Syrians and others hostile to England. Our view of public questions is not properly put before the public ... the only paper we now subsidise is ElEl-l'lam, edited by Mohamed Bayram who was in London during the summer. To this paper we give some very small sum £25 a year if I recollect rightly .. Mr Bayram is a veiy high class Mohamedan, devoted to English interests. He (is) amongst the Ulema and the religious society of Cairo, by whom his paper is almost exclusively read... The class to which I allude above are very important and it is useful to us that should read Mr. Bayram's paper. I would not advice starting a new Arabic paper I think we had better work through the papers which are already in circulation ... on the whole I am inclined to think that the best plan would be to deal with the Egyptian Gazette... what I would propose for the

present is to get Mr. Philip to publish an Arabic section to his paper... gave him £100 down to cover the expenses of typing ... etc., and his monthly subsidy of £25. I now write to ask for authority to arrange this...etc."

(٤٨) نفس المصدر السابق. HD 3/73 (P.R.O.).

"محمد بيرم الخامس: ابن مصطفى بن محمد "الثالث" من أسرة بيرم وقد جاء جدّه إلى تونس كأحد أفراد قواد الجند العثمانيين الذين جاؤا تونس بقيادة سنان باشا عام ٩٨١هـ ولد محمد بيرم الخامس بتونس سنة ١٨٤٠م، ونشأ وتعلم بها ثم هاجر إلى القسطنطينية عام ١٨٨١م، عندما استولت فرنسة على تونس ولكنه تركها إلى مصر حيث استقرّ بالقاهرة وأسس بها في عام ١٨٨٤م جريدة "الأعلام" التي كانت تصدر ٣ مرات بالأسبوع ثم أصبحت بعد ذلك أسبوعية...كان خطها العام مداهنة الإنكليز والتودد إليهم.

انظر: خير الدين الزركلي ، **الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين والمستشرقين**، ج٧، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٩م، ص ٣٢٢.

انظر أيضاً: فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة، ج١، ص ١٣٩-١٤١.

للمزيد من التفاصيل حول الخط العام لجريدة "الأعلام" ارجع إلى : سامي عزيز **الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنكليزي**، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، ص ٩٤-٩٥.

(٤٩) رسالة السير إفلن بارنج إلى جوليان السالفة الذكر، ٦ نوفمبر (تشرين الثاني)، ١٨٨٧م، انظر:

(P.R.O.) HD 3/73.

(٥٠) نفس المصدر السابق، انظر: (P.R.O.) HD 3/73.

(٥١) نفس المصدر السابق، انظر: (P.R.O.) HD 3/73.

(٥٢) نفس المصدر السابق، انظر: (P.R.O.) HD 3/73.

(٥٣) محضر كتبه السير ساندرسون إلى اللورد سالسبري، ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني)، ١٨٩٦م، وأيضاً تعليق اللورد سالسبري على محضر السير ساندرسون السالف الذكر، ٢١ ديسمبر (كانون الأول)،١٨٩٦م.

انظر: (P.R.O.) HD 3/103.

Sir Sanderson wrote a minute to Lord Salisbury ... "I have just received the enclosed letter from Mr. de Reuter. I think it rather impertinent *(...)* I suppose he is free to send his agent to talk to M Regnault about anything he sees fit. But I presume you will wish altogether to repudiate any intention of continuing the conversation.

Lord Salisbury commented on the above minute.. "Thank him for communicating the (views) exchanged between Monsieur Regnault & Reuter's agent.".

(٥٤) سجل مقابلة بين مراسل وكالة رويتر في باريس والمسيو رغنو Regnault من وزارة الخارجية الفرنسية، ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني)، ١٨٩٦م، انظر: (P.R.O.) HD 3/103.

Mr. de Rueter, (Head of Rueters agent at London) wrote:

"About a week ago I communicated to our representative in Paris a conversation that recently took place amongst some statesmen and foreign diplomatists in St. Petersburg on the Egyptian Question, when it was suggested that there was ground for believing that Great Britain might be disposed to compromise the Egyptian Question with reference to France and Russia by ceding the neutralisation of the Suez Canal and allowing forts to be built at either end, Great Britain, however, continuing to occupy Egypt. I asked our Agent to ascertain, and he acordingly called

on Monsieur Regnault, - Monsieur Hanotaux at the time being occupied, - who, with Monsieur Marcel, holds the highest post in the Ministry of Foreign Affairs under Monsieur Hanotaux.

Our agent writes:-

'From the outset Monsieur Regnault paid the" greates attention to what I said, and I had hardly "finished when he asked me whether such a concession "would be considered in England as a final settlement" of the Egyptian Question. "We hardly think this possible", he added. This is evidently meant to be the "first instalment towards the final settlement of the question". At present its task is most difficult, for on one side of "the channel the smallest concession would be considered "a humiliation, and on the other nothing less than an "immediate evacuation would be thought sufficient.. etc."

(٥٥) رسالة السير توماس ساندرسون إلى المسيو دي رويـتر، ١ ديسـمبر(كـانون الأول)، ١٨٩٦م، انظر: (P.R.O.) HD 3/103.

"I have received your letter of yesterday, and have to thank you for communicating the views exchanged between M. Regnault and your agent at Paris."

(٥٦) سجل مقابلة بين مراسل وكالة رويتر في باريس والمسيو رغنو Regnault، ٢١ ديسمبر (كانون الأول)، ١٨٩٦م ، انظر: (P.R.O.) HD 3/103.

"The Quai d'Orsay has, added my informant, several such petty grievances against, England. It would seem that far from desiring to avoid friction Lord Salisbury seeks to increase it. He was well aware, for instance, that in order to remove the embarrassment of the Egyptian Government from an adverse judgement on the question of the Reserve Fund, Mr. Hanotaux did everything to delay matters. lord Cromer, however, was so certain of success that he hastened the decision of the Tribunals. Instead of recognising the blunder, the very next step which the Khedive was forced to take so ostentatiously in order to show his resentment, was to cause Egypt to refuse its official participation at the

next exhibition. This was not only an inopportune and overt, but an undeserved sign of resentment."

(٥٧) محضر اللورد سالسبري، ٢١ ديسمبر (كانون الأول)، ١٨٩٦م، انظر: (P.R.O.) HD 3/103.

Lord Salisbury's Minute says ... "Shall I acknowledge and say that M. Regnault seems to be misinformed as to Lord Salisbury's action on disposition."

(٥٨) انظر: سامي عزيز، **الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنكليزي**، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٦١-١٦٥.

(٥٩) من صراف الحكومة العامة إلى وزارة الخارجية، ٢ يوليو (تموز)، ١٨٨٧م، انظر: (P.R.O.) HD 3/72.